رَوْحُ الرُّوح

فيما حَدث بعد المائة التَّاسعة من الفِتَنِ والفُتُوح

تأليف العلامة:

عيسى بن لطف الله شرف الدين

تحقيق:

إبراهيم بن أحمد المقحفي







تأسست المكتبة الأم في عدن قبل عام 1890

تأسس المركز في صنعاء عام 1994

رقم الإيداع بدار الكتب صنعاء 72 / 2003

الطبعة الأولى 1424هـ الموافق 2003م

مركز عبادي للدراسات والنشر

ت: 219618 / فاكس: 219619

ص. ب: 662 صنعاء الجمهورية اليمنية

التنضيد بالكمبيوتر والتنفيذ الطباعي: مركز عبادي للدراسات والنشر

كلمة

ترجع أهمية كتاب ((رَوْحُ الرُّوْح)) إلى أن مؤلفه يؤرخ لفترة عاش أحداثها وسَيَّرَ أيامها وشخوصها، فجاء سجلاً دقيقاً وتفصيلياً لتلك الأحداث التي امتدت من عام ٩٠٠هـ إلى عام ١٠٢٩هـ، وكان ينوي مواصلة تسجيل أحداث السنوات اللاحقة لولا أن الموت عاجله قبل أن يحقق هدفه، لذلك قام بالمهمة بعده ولده العلامة علي بن عيسى الذي كتب ملحق الكتاب في مجلدين وصل فيه إلى حوادث عام ١٠٧٩هـ، ومنه نسخ متعددة في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، نعمل على تصوير بعضها لغرض طبعها وتقديم هذا المشروع بشكله الكامل.

وقد اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب على نسخة جامع صنعاء، وهي بخط جميل وواضح ودقيق، بالإضافة إلى نسخة القاضي السياغي التي طبعت مصورةً ضمن مشروع المائة كتاب الصادر عن وزارة الإعلام.

ويترافق هذا الجهد مع استكمالي لتحقيق كتابين ذوي قيمة تاريخية هامة، أولهما كتاب (درر نحور الحور العين) للمؤرخ لطف الله جحاف، الذي أعمل على طبعه ليأتي تسجيلاً دقيقاً شاملاً ورؤية أوسع لتاريخ القرن العاشر الهجري وأعلام اليمن البارزين خلال هذه الفترة. وثانيهما الكتاب الموسوعي الذي رجع إليه كثير من المؤرخين المعاصرين، وهو كتاب (بهجة الزمن ذيل أنباء الزمن) للمؤرخ الكبير العلامة يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد، المتوفى سنة ١٠٩٩هـ.

وبهذا أكون قد حققت جزءاً – ولو – يسيراً من مشروعي الثقافي المتعلق بالاهتمام بتاريخ اليمن.

وتبقى كلمة شكر مستحقة لكل من الوزير المثقف الأستاذ عبدالوهاب

الروحاني وزير الثقافة، ووكيل الوزارة علامة الآثار الكبير الدكتور يوسف محمد عبدالله، فقد كان لتعاونهما الصادق ولتوجيههما الكريم بتصوير مخطوطة هذا الكتاب وغيره الفضل في إخراجه مطبوعاً.. كما أحب أن أذكر جهد وتعاون الصديق الأستاذ عزالدين تقي ومتابعته التصوير، وكذا تعاون الأخ الأستاذ عبدالملك المقجفي مدير إدارة المخطوطات بجامع صنعاء، والشكر أيضاً للأستاذ علي محمد الضحياني الذي تولى تصحيح بروفات الطبع.. فإلى الجميع كل التقدير والشكر الجزيل.

ثم.. ماذا عن المؤلف؟

كتب عنه القاضي إسماعيل الأكوع فوصفه بأنه عالمٌ أديبٌ شاعرٌ فلكي، مؤرخٌ، حافظٌ لأخبار الناس وآدابهم وأمثالهم. وأضاف أنه صحب في آخر عمره الحسن بن الإمام القاسم، وكان يلبسُ لباس الأمراء من الجوخ وغيره، وكان هواه مع الدولة العثمانية، وإن كان قد أنشأ قصيدة أرسلها من كوكبان إلى الإمام القاسم بن محمد في شهارة يتنصل من تفضيله العثمانيين على الإمام القاسم، جاء منها قوله:

ما شاقني سجعُ الحَمَامَه سَحَراً، ولا برقُ الغمامه

كلا، ولا أذكى الجوى ذكر العُذَيب وذكر رامه

توفي في صنعاء يوم الثلاثاء شهر ربيع الأول سنة ١٠٤٨هـ واسمه الكامل عيسى بن لطف الله بن المطهر بن شرف الدين. وله من المآثر –غير كتاب الروح – النفحة اليمنية في الدولة المحمدية أو (الأنفاس اليمنية) وهو في تاريخ الوزير محمد باشا، أحد قادة الدولة العثمانية في اليمن، والذي تولى من عام ١٠٢٥ إلى ١٠٣١هـ . كما أن المؤلف هو الذي جمع ديوان محمد بن عبدالله شرف الدين المُسَمَّى (ديوان مبيتات وموشّحات). وله غير ذلك من المآثر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله ذي الملك والملكوت والعزة والجبروت يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير.. وصلى الله على من اصطفى من أشرف العالم وفضَّله على ولد آدم وانزل عليه في كتابه المبين ((نحن نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القرآن وإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبلِهِ لمن الغافلين))[1] صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه الانصار والمهاجرين صلواتٌ ابلغ بها الغايات من رضوانه والمزيد من إحسانه.. وبعد: فيقول العبد الصغير الأفقر عيسى بن لطف الله بن المطهر وفقه الله إلى نهج الإصابة، وهداه سبيل الإجابة، إنه الزمني من لا يسعني خلافه في أمرٍ من الأمور، ولا يحسن غير اتباع مقالة فلا برح آمراً وأنا المأمور، ذلك حضرة مولانا ومالك أمرنا، وخليفة عصرنا، وعزيز مصرنا، غيث النداء، وليث العداء، وبدر الهدى، سيد الوزراء العظماء، وعين الكبراء الكرماء الوزير محمد، محمود السجايا ظل الله على البرايا، حاكم اقطار اليمن، جمّ الأيادي والمنن، الوزير محمد حرس الله ملكه وأيد وخلد، وذلك لما جرى في مقامه محل الفضل والأفضال، والسؤدد والكمال، ذكر خروج الجراكسة إلى اليمن، وظهور تلك الحوادث والفتن، وزوال دولة عامر، وانقراض ملك آل طاهر، وابتداء دولة الإمام شرف الدين، وما هيّأ الله له من الفتح المكين، وإن أعظم الأسباب في قوة سلطانه، وعلو شأن ولده المطهر وكيف كان الخلاف بينهما، وما آل إليه أمرهما،

(١) سورة يوسف، الآية (٣).

وذكر خروج الدولة القاهرة العثمانية إلى هذا الإقليم، واستيلاء ملكه العظيم، وماجرى بينهم وبين المطهر بعد استقلاله، في حربه وسلمه ومواطن قتاله، وكيف كان استدعاه لهم لنصرته، واعانه على أسرته، وذلك أن نفث بينه وبين والده الشيطان، وغير ودهما الحاسد الذي كذب ومان، وافترى وخان، وذكر أولاده وذهاب البلاد من أيديهم وخلوهم عن ناديهم، فاشتاقت نفسه الكريمة، وتطلعت همته العظيمة، على أن أجعل في ذلك تأليفاً والخصُ من تلك الأخبار مختصراً لطيفاً، فرمت الإعتذار من المجاراة في هذا المضمار، فقال لابد من سلوك ذلك السبيل، مع اعتماد الإيجاز في التفصيل، فأطعتُ مراده، واتبعتُ ما أراده، وأسألُ الله أن يجعل ما رقمته ملحوظاً بعين الرضا، منشوراً في طي التسامح والاغضا.. وسمَّيته **(رَوْحُ الرُّوح فيما حدث بعد تمام المائة التاسعة من الفتن والفتوح)**.

واعلم أنه أيده الله ممن طلع إلى منقبة رئيسة، وخطة نفيسة، وهو الاطلاع على أخبار من سلف وما أبقوه في الخلف.. ولله القائل:

ليس بإنسانٍ ولا عالمٍ .:. من لم يعِ الأخبار في صدره
ومن درا أخبار من قبله .:. أضاف أعماراً إلى عمره

مع أن كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مشحون بأخبار الأمم السالفة الماضية، والقرون الذاهبة الخالية، وقد قيل في تفسير قوله تعالى ((أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم)) إنّ المراد بسير الأرض هو العلم بالتاريخ.. وقد قال عز من قائل: ((إنَّا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدَّموا وآثارهم))[1] وقال عز وجل: ((نحن

---

(١) سورة يس، أية (١٢).

نقص إليك من أنباء ما قد سبق))[1] ثم أن أولى ما يعتمده أولو الأمر وأصحاب الزمان، ومن بأيديهم مقاليد الملك والسلطان، وأوجب ما يتشاغل به من بأيديهم أزمة الأمور، وعليهم سياسة الجمهور، إدمان النظر في كتب السير والتتبع للأخبار والآثار، والتفكير في حال من مضى من الأخيار والأشرار، ليعلم ما أبقاه المحسن من الصيت الحميد الذي صار له حياة خالدة بالأجر الذي اكتسبه، والمسيءُ من الذكر القبيح الذي جعل صحيفته مسودّة بالوزر الذي اقترفه واحتقبه، ويتصفحوا حال الحازم في حزمه وعقله، والمضيع في تفريطه وجهله، فسلكوا من الطريق أوضحها وأمثلها، وتتبعوا من الخلايق أشرفها وأفضلها، ويردوا من المشارب أعذبها، ومن المراتع أخصبها، ويأخذوا من الأمور بأحزمها، ومن التجارب بأحكمها، فمهما تكن من حسنةٍ اقتبسوا منها، ومهما تكن من سيئةٍ ارتدعوا عنها، فالسعيد من انتفع بالأدب، فيما دأب فيه غيره من التجارب، والرابح من حظى بالراحة فيما تعب فيه سواه من المطالب، لأن العقل غريزة في الإنسان، والتجارب مكتسبة في الزمان، والرأي لقاحِ العقل، والتجربة نتاجه، ومقصد الحجا والاجتهاد منهاجه، فإذا تأمل المرءِ بسير الماضين من الأقوام حتى مع تقارب الشهور والأيام، أكل ثمرة ما غرسوه من تطاول الدهور والأعوام، وعرف علل الأحوال وفوائدها، وحيل الرجال ومكايدها، وتسلاً بمن تدرَّع الجلد عند حدوث النوائب، وتأسَّى بمن توقع الفرج حين ظهور العجائب، وما في ذلك من حسن المفاوضة والمذاكرة، وأنس المحادثة والمسامرة، مع أني التزمت في هذا المرقوم التنبيه على كل نكتةٍ واقعة، ومكيدةٍ وداهية باقعة، ورأى داخله الزلل، وخالطه الخلل، وعميت به الإرادة، ليكون فيه تحصيل فائدة للمطالع، وإيقاظ لذهن السامع، وبالله استعنت، وعليه توكلت، وبه اعتصمت، ونعم المولى ونعم النصير.

---

(١) سورة يوسف، آية (٣).

ذكر أحوال سنة إحدى وتسعمائة:

ودخلت هذه السنة والدنيا شعوبٌ وقبائل وسيوف وعواسل ومقتول وقاتل، وكانت التهايم واليمن، وزبيد وعدن، ولحج، وأبين، إلى رداع وجبن، تحت سلطنة السلطان عامر بن عبدالوهاب، وصنعاء ومخاليفها تحت سلطنة محمد بن الإمام الناصر، وكوكبان وما إليه تحت أولاد المطهر بن سليمان، والشرف والظواهر وصعدة وما إليها متفرقة بين آل المؤيد والأشراف آل منصور والإمام محمد بن علي السراجي الوشلي[1] ومع ذلك أن الاشراف المذكورين أوامرهم من تحت أيديهم لا تجرى، وسيوف بطشهم على من ناوأهم لا تجزّ ولا تفرى، بل يأخذون الأشياء بالمحاسنة، ويمارون القوم بالمداهنة، إلا ما كان من السلطان عامر فإنه كان نافذ الأوامر، شديد القوة، عظيم السطوة، مع انحرافٍ عن آل النبوة لشنشنةٍ اخرمية، ونفسٍ أموية، فإنّ نسبه يتصل بعبد شمسٍ، وما أشبه اليوم بأمس.

ذكر نسب عامر بن عبدالوهاب: هو عامر بن عبدالوهاب بن داود بن طاهر بن معوضة بن تاج الدين بن معوضة بن محمد بن سعيد بن عامر بن مسعود بن فهر بن وهب بن حرب القرشي الأموي[2] وتكنّا بالملك الظافر صلاح الدين، وكانت ولايته بعد أبيه المنصور عبدالوهاب بن داود

---

(١) الإمام محمد بن علي الوشلي: هو الإمام المنصور، وكما يذكر المؤلف فإن دعوته بالإمامة كانت سنة ٩٠٠هـ وقد حدث بينه وبين السلطان عامر بن عبدالوهاب حروبٌ أسفرت عن أسره، فأمر السلطان عامر باعتقاله في سجن قصر صنعاء في اليوم الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩١٠هـ – حسبما سيأتي– وظلّ فيه حتى توفي في آخر ذي الحجة من السنة نفسها وقيل توفي في ١٤ أو ١٨ ذي القعدة من السنة نفسها.. مولده سنة ٨٤٥هـ تقريبا (هجر العلم ٣/ ١١٨٤).

(٢) يرى القاضي عبدالله الشماحي وغيره من المؤرخين أن آل طاهر يمنيون من قبائل مذحج الكهلانية، لا قُرشيون أُمويون كما ذهب المؤلف. وتعتبر دولة بني طاهر آخر الدول السُنية الجنوبية التي كانت تتوالى على الحكم في اليمن، والتي حالت دون امتداد نفوذ الأئمة إلى المنطقة الوسطى والمنطقتين الجنوبية والشرقية. ولقد حاول بنو طاهر توحيد اليمن تحت سيادتهم، فلم يتمكنوا من ذلك، لاصطدامهم بالأئمة المتمركزين في المنطقة الشمالية مع اشتغالهم بالخارجين عليهم داخل منطقة نفوذهم (اليمن الإنسان والحضارة، ص١٤٧، وكذا تاريخ الحداد ج٣ ص١٩).

الظاهري، وذلك عشيّة الثلاثاء السابع من جمادي الأولى سنة ٨٩٤هـ، ودخلت هذه السنة، أعني سنة ٩٠١هـ، وهو أعظم أعيان اليمن سلطاناً، وأرفعهم بنياناً، وأوسعهم بلاداً وأكثرهم أجناداً.

ثم أنا نبتدي بذكر ما جرى في تلك السنة من الحوادث والفتن، في قطر اليمن، في يوم الاثنين من محرم أوقع الأمير شمس الدين علي بن محمد البعداني، أحد أعيان الدولة العامرية، بأهل تعز من ناحية، فقتل منهم تسعين وأسر أربعين ثم أغار عليهم في اليوم الثاني عشر من الشهر وتقابل معهم فهزمهم الأمير علي هزيمةً عظيمة، وقتل منهم قريب المائة وانتهب بلادهم، ثم قدم على الملك الظافر عامر غرّة صفر وهو برداع، فمن على الأسرى وأطلقها، وفي صفر منها قدم بعض التجار الأعيان بكتاب **فتح الباري شرح البخاري** مدينة زبيد من البلد الحرام، وهو أول دخوله اليمن، ولم يحدث في تلك السنة غير ما ذكرناه.

وفي سنة اثنتين وتسعمائة:

تحرك فيها الإمام محمد بن علي الوشلي للخلاف على عامر، وكانت دعوته بالإمامة يوم الاثنين سادس ذي القعدة الحرام سنة ٩٠٠هـ، فلما أظهر الخلاف لعامر وشهر دونه الحسام الباتر، مال إليه أهل ذمار حماة الذمار، وفي خلال ذلك خالف أهل المصنعة فوجه إليهم السلطان عسكراً في ربيع الأول فأخذهم قهراً بالسيف واستولوا على ما حولها من البلاد، وفي ربيع الآخر قدم رسول من الخليفة المتوكل على الله العباسي بهدية سنيّة، فواجه رسوله بها في تعز وقابله بالاعزاز والاكرام، والإحسان والانعام.. أقول إن هذا الخليفة ومن سبقه من سلفه بعد أخذ بغداد، وتقطيع تلك الأفلاذ ودفعتهم الرديّة إلى الديار المصرية كانت أحوالهم تعجب السامع، وتسك المسامع، اسم كبير، وفعل حقير، وأمر لا يطاع، وقدر في غاية الضياع،

يخطب له على المنابر في المواسم، ويضرب باسمه في الدفاتر والدراهم، وهو لا يجد الكفاية، ولا يحمد الرعاية، سيفه كهام، وسحبه جهام، وليله سهر، ونهاره فكر، وربما غضب عليه السلطان، فأورثه الهوان، فنعوذ من نوائب الزمان ومصائب الحدثان، وما برحوا مع ذلك خليفة في اثر خليفة حتى قطع تلك الأفعال السخيفة، سلطان الإسلام، ونافذ الأحكام، وصاحب النصر والابرام، سلطان البرّين، وخاقان البحرين، وحامي الحرمين، سليمان خان رحمه الله تعالى لما فتح مصر وأخذها قهراً، عُدْنَا إلى ما كنا فيه، وفي يوم السبت مستهل جمادي الآخرة وقع بمدينة زبيد حريق عظيم ابتداءه من غربي المنظرة وانتهاءه في الشام مسجد الشيخ أبي الغيث عادت بركاته وتلفت فيه بيوت وأموال جليلة، وفي شهر رمضان أمر السلطان بحبس رئيس الإسماعيلية بتعز وأودعه دار الأدب، وكان يتحدث بما لا يعنيه من المغيبات المستحيلات، وأحرقت كتبه، وكان إمام تلك الفرقة.

ودخلت سنة ثلاث وتسعمائة:

في أواخر جمادي الآخرة توجه السلطان عامر على بلاد يافع في جنود وافرة فتح ديارهم، وتتبع آثارهم واستوغل في بلادهم، واستولى على أطرافهم وتلادهم، وفي الأربعاء سادس وعشرين شهر شعبان حصل بناحية وصاب برد عظيم طول كل بردة من كباره تسعة أذرع في عرض ذلك ومات بسببه خلائق كثيرون.

وفي الاثنين ١٣ من شهر القعدة الحرام توفي السيد العلامة حسين بن صديق بن حسين بن عبدالرحمن الأهدل[١] بمدينة عدن وقبر فيها.

---

(١) حسين بن صديق الأهدل: حافظ، مُحدث، له شعر حسن، مولده في أبيات حسين سنة ٨٠٥هـ، وقد نشأ وتعلم بها، ثم انتقل إلى المراوعة، فدرس بها، ثم انتقل إلى بيت الفقيه، ومنها إلى زبيد، وذلك سنة ٨٦٨هـ، له كتاب (ارتياح الأرواح في ذكر الله الكريم الفتاح) (هجر العلم ٤٧/١).

ودخلت سنة أربع وتسعمائة:

في نصف ربيع الأول قتل سلطان الديار المصرية الملك الناصر محمد بن قاسا.

وفي ذلك الشهر أعاد الإمام محمد بن علي الوشلي الحرب على الأمير شمس الدين علي بن محمد البعداني إلى قرب هداد[١] وحط بعساكره على طريق الأمير علي وأصحابه وضيق عليهم غاية التضييق، فاجتمع من عسكر الأمير علي نحو الألف وأخذوا طريقاً يعرفونها وهجموا على محطة الإمام وحمل الأمير علي بمن معه فهزم الإمام وقتل من أصحابه عدّة واحتزت رؤوسهم وأرسل بها إلى السلطان إلى مدينة تعز يوم الجمعة آخر ربيع الآخر، وأخذت مع ذلك مراكبه وآلاته ولم ينج إلا بنفسه، ولله الأمر.

ودخلت سنة خمس وتسعمائة:

ففي الثلاثاء ٤ صفر أصبح ولد محاوش صاحب الجوف مقتولاً بمخيم السلطان، وانكشف بعد مدة أن الذي قتله بنو عَبَد[٢] وقد كان ظهر شيخ يهودي تغلب وأظهر الطغيان، وانضم إليه عدة من اليهود ومن أشبههم من أهل العصيان، فشق ذلك على السلطان فتوجه بنفسه إليه، وفي خلال ذلك كان بنو عبد قد انضموا إليه وعولوا في النصر عليه، وكان مع ذلك يركب الخيل، ولايخاف الليل، ويخرج راكباً بالعدة المجلاة، وبالحفظة والحماة، والتطاول على المسلمين، والتكذيب بكتاب الله المبين، وارتد إليه كل يهودي قد أسلم، ومرتد قد استسلم، ومن خلفه من السلطان من المسلمين، دخل في ضمن ذلك اللعين، وكان هذا من أكبر الحوادث في الإسلام، وأعظمها في

(١) هَدَاد: بفتحتين. جبل في حوران آنس.

(٢) بنو عَبَد: بفتحات، قبيلة وبلد فيما بين "حَرِيْب" وبلاد "سارع" من مديرية السَّوَادِيّة وأعمال محافظة البيضاء، وهم من قيفة ثم من مذحج.

الأنام، فدبر الحيلة السلطان في أخذه وحصوله، واستباح محصوله، فتوجه إلى جهات بيحان، وهو مظهرٌ أنّ ما له مقصد إلا الصيد فقدم قبله الأمير شمس الدين علي بن محمد البعداني في جماعةٍ من الأمراء ثم تبعهم السلطان، فلما وصل بيحان تحيَّز ذلك اللعين، إلى محل غير مكين، فقطعت عليه العساكر الطرقات، وأحدقت به الغارات، فقبض عليه واستبيح ماليديه ولزم قاتل بن محاوش ثم توجه السلطان إلى بني أرض[1] فأخذ حصونها وقبض مصونها، وعاد منصوراً ظافراً، مؤيداً قاهراً.

وفي ليلة الثلاثاء ٢٧ ربيع الأول أنقض كوكب عظيم مضى الثلث من الليل قبلي بيت الفقيه بن عجيل فخر فوق بيت الأكسع[2] مستنيراً قطعاً كالجمر الكبار، فوقعت منه قطعة على بيت الشريف عبد الغفار فأحرقته.

ودخلت سنة ست وتسعمائة:

فيها ملك شاه إسماعيل الشريف، وملك الفرنج الأندلس، وهو إقليم عظيم جمع ما في الأرض من العجائب وفيه معادن الذهب والياقوت والفيروزج والزمرد وفيه معادن الزجاج الأبيض، وأهلها أهل عقول راجحة، وحلوم صالحة، ذكر بعض العلماء أن الله تعالى خلق الأرض في صورة الطاووس وأحسن ما فيه ذنبه وذنب الأرض الأندلس، والحكمة نزلت على ثلاثة: ألسنة العرب وأيدي الصين وأدمغة اليونان، وهم الأندلس، وفي إقليم الأندلس جميع الفواكه الحلبية والبحرية والغورية ولا شيء في الأرض إلا وهو فيه، وهو أحسن الدنيا هواءً وأفقاً ومحلاً، وفتحه بنو مروان في خلافة عبدالملك.

وفي يوم الأربعاء سلخ ذي القعدة الحرام كانت وقعة الشريف هزاع بن محمد بن بركات مع أخيه صاحب الحجاز بركات بن محمد، أنكسر فيها

(١) بنو أرض: من قبائل سَرْو مَذْحج في البيضاء.
(٢) بيت الأَكْسَع: قرية في شمال بيت الفقيه.

بركات كسيرة عظيمة ما سمع بمثلها واستولى الركب المصري على خزانته وأمواله ولم يبق له باقية.. والأصل في ذلك أن العادل طومان باي صاحب مصر لما تولى الملك بعد الأشرف جلاط طود، وكان رجل من أمراء جلاط طود يقال له قانصوه المحمّدي ويعرف بالبرج فخرج إلى مكة فلم يلتفت إليه أحدٌ من كبرائها لا الشريف ولا القاضي ولا غيرهما خوفاً من السلطان طومان باي، فلما فقد السلطان طومان باي وتولى بعده الأشرف قانصوه الغوري ليلة عيد الفطر من السنة المذكورة أرسل بكتب إلى قانصوه البرج إلى مكة وجعله نائب الشام، فلما وصلت كتبه بذلك وهو بمكة في أول ذي القعدة جاءه الشريف بركات والقاضي عبدالسلام ظهيره للسلام عليه فلم يأذن لهما وكان في نفسه شيء لعدم التفاتهم عليه عند قدومه مطروداً، وكان الشريف هزاع بمكة فعامله قانصوه البُرج على أن يجعل إليه ولاية مكة ويخلع أخاه بركات عنها وأمره بالخروج إلى ينبع وأرسل إلى أمير الحاج المصري أن يواجه الأمير هزاع ويطلق إليه المراسيم السلطانية ففعل ذلك ولبس الشريف هزاع خلعة أخيه بركات وألبس أخاه الجازاني التي كان هو يلبسها مع أخيه بركات وتوجه مع الركب المصري ومعه إبراهيم بن بركات في نحو مائة فارس، فلما علم الشريف بركات بذلك خرج إلى وادي بر والتقى الجمعان هنالك وانكسر الشريف هزاع مرات وقتل من أصحابه نحو الثلاثين ورجل من الركب المصري وثلاثة من الحجاج ونهبت أطراف القافلة، فلما رأى ركب مصر ذلك حملوا مع الشريف هزاع على أخيه بركات حملة رجل واحد فانكسر بركات وقتل ولده المسّمى أبو القاسم في جماعة من عسكره واستولى هزاع والركب المصري على محطة بركات وما فيها من الآلات والأموال والأمتعة والنساء والأطفال، وولى منهزماً إلى جده فنهبت أكثر هله ودخل الشريف هزاع إلى مكة صحبته الركب المصري واضطربت أحوال الناس وكثر الخوف والنهب في الطرقات وانقطعت السبل

ورجعت حجاج البحر من الطريق وكانوا قريباً من جدّة، وكان بركات إذا اشتكى الناس إليه ما يلقون يقول اشتكوا ذلك إلى سلطان البلد واطلبوا منه أمانها فقد أمنتها حين كنت سلطانها وأما الآن فأنا واحد منكم، فلما استقر هراع بمكة جاءه الناس يصطرخون من كل جانب ومكان فضاق صدره، ولم ينتظم أمره فدخل عليه إبراهيم بن بركات فشكى إليه هراع ما هو فيه من التعب والمشقة والنصب فأمره بالخروج في صحبته إلى جدة فخرج إليها وأخوه بركات يومئذٍ مقيم بماءٍ يقال له الحمدُ بين جدة وحده فقال له إبراهيم بن بركات قف ههنا ثم تقدم على بركات، وقال له إن أخاك في حدة في ألفي فارس من الترك ولا طاقة لنا بمقاومتهم فإن أحببت أن أسعى بينكم بهدنة تسكن بها الفتنة وتذهب عن الناس المحنة ويأمنون ويحجون إلى عاشر المحرم وعلى أن يعطيك هراع ثلاثة آلاف أشرفي قبل يوم النحر فإن فعل وإلا فلاذمة له، ففعل الشريف بركات ذلك ظناً أن قول عمّه صحيح وأن هراع في ألفي فارس، فسكن بعض خوف الناس ورجع هراع إلى مكة، وكان الحاج ضعيفاً ولم يحج بركات وسلم هراع إلى عمه ما لزمه من المال، ولما عزم الركب المصري علم هراع أن لا طاقة له بمقاومة أخيه بركات وتخوف من الهجوم عليه بمكة وتوجه صحبة الركب الشامي فرجع بركات إلى مكة فدخلها دخولاً عظيماً وأمن الناس وذهب البأس وكفى الله المؤمنين القتال.

ودخلت سنة سبع وتسعمائة:

ففي يوم الثلاثاء ٤ محرم حصل حريق في مدينة زبيد من سوق السواده أخذ في الشرق واليمن حتى انتهى إلى باب الشبارق وتلفت من البيوت والأموال مالا يحصى.

وفي جمادي الآخرة هجم الشريف هراع على أخيه بركات هجمةً هزمه

فيها هزيمة فاضحة، وقلده مصيبة فادحة، وقتل أخوه أبو دعج وسبعة من أشراف بني نمي[١] وأربعة عشر تركياً من الذين مع بركات، ودخل هراع إلى جدّة ظهر يوم الثلاثاء ونادى بالأمان، وجعل محمد بن راجح أبو سميلة وزيره وعبداً من قواده حاكماً، وأرسل أخاه الجازاني إلى مكة ثم لحقه إليها في عساكره وقرأ مرسوماً سلطانياً، ثم وصلت له الخلع والمراسيم من مصر من طريق البحر إلى جدة صحبة أمير يقال له إلياس يوم الثلاثاء ١٨ شهر جمادي الآخرة.

وفي هذا الشهر تجهز السلطان عامر إلى ذمار[٢] بجيوش تسد الأقطار، ودخل غرّة رجب وأقام بذمار أياماً، وجرَّد من عسكره فيلقاً إلى جمعة الخزع فأخذهم قهراً واستفتح حصونهم ثم توجه إلى صنعاء يوم الأحد ٢٩ من رجب وحط عليها في ٩ شعبان بسفح نقم ونصب عليها المنجنيقات والمدافع وأحاطت بها أصحابه، وكان فيها محمد بن الناصر، وقد قل معينه وذل الناصر، وكان من الطاف الله الخفية أن رفع تلك البلية بغارات الإمام الوشلي والأمير محمد بن حسين الحمزي الجوفي فناوشوا أصحاب السلطان عامر مناوشة أفضت بهم إلى القتال العام، وورود حوض الحمام، فانكسر الأمير شمس الدين علي بن محمد البعداني، وقد كان السلطان عامر وجهه للقائهم، ولما انكسر عمل السيف في عسكره وجنوده، وعلقت النحوس بسعوده، وانتهبت محطته، وذهبت قوته.

---

(١) بنو نمي: هم أشراف جازان.

(٢) يتفرد المؤلف ومعه الكبسي دون مؤرخي آل طاهر (كالديبع وغيره) بأن الملك عامر كان قد سبق له بأن جهز لغزو صنعاء من ذمار في هذا العام ٩٠٧هـ، كما انفرد المؤرخان المذكوران بتاريخ استيلاء الملك عامر على ذمار بعام ٩٠٧هـ مخالفين المؤرخ الديبع الذي أرخ ذلك بعام ٩٠٥هـ.

ودخلت سنة ثمان وتسعمائة:

ففي رابع المحرم منها قوض عامر أطنابه واسكن سيفه قرابه ورجع إلى اليمن حليف همٍ وحزن.

وفي خامس رجب ولد المطهر بن الإمام شرف الدين[١]

وفي ٢٦ شعبان توفى الخليفة محمد بن الناصر، وكان سيداً تقياً وقوراً صبوراً ديّناً صيّناً راكعاً ساجداً عابداً زاهداً[٢] إلا أنه لم يكن له من الأمر في صنعاء إلا الاسم فقط، والحُكم فيها للأسديين أصحاب شارب[٣]، وتولّى بعده أخوه أحمد بن الإمام الناصر وتلقب بالمنتصر بالله.

ودخلت سنة عشر وتسعمائة:

في صفر تحرك عامر لغزو صنعاء.

وفي ليلة الاثنين خامسه خسف القمر خسوفاً كلياً لم يبق من جرمه شيء ولله العظمة، وحصل في زبيد عقيب ذلك زلزلة عظيمة، ومثلها في زيلع.

ثم أزمع السلطان على قصد صنعاء وتوجه إلى رداع ثم انتقل إلى ذمار في جنود لا تطاق قد طبقت الآفاق يقال أنها زادت على مائة وسبعين ألفاً فيها من الخيل ثلاثة آلاف، ثم حط على مدينة صنعاء يوم الثلاثاء ٢٩ في شهر ربيع بضُبْر حدّين[٤]، ثم انتقل إلى قرب المدينة يوم الخميس جماد

---

(١) المطهر بن شرف الدين يعادل تاريخ مولده بالميلادي ١٥٠٢م أما وفاته فكانت سنة ٩٨٠هـ (١٥٧٢م) وقد اشتهر بالبسالة والإقدام وأظهر في حروبه بطولة غريبة، ومؤلف الكتاب هو حفيده، وقد ذكر في كتابه هذا شيئاً من ذلك.

(٢) الإمام المؤيد محمد بن الناصر بن محمد بن الناصر بن أحمد بن الإمام المطهر بن يحيى، توفي عن نحو خمس وخمسين سنة من مولده، ونحو أربعين سنة من قيامه بصنعاء وتملكه لها، ودُفن في حوالي مسجد القاسمي بصنعاء.

(٣) منهم الأمير محمد بن عيسى الأسدي

(٤) ضُبْر حَدَّين: منطقة في غربي مدينة صنعاء.

الأول، وأحاطت جيوشه بالمدينة ونصبت عليها المنجنيقات والمدافع، ووصل في أثناء ذلك الإمام محمد بن علي السراجي[١] والأمير محمد بن حسين الجوفي[٢] والأمير البهال، لنصرة أحمد بن الإمام فلقيهم جنود السلطان فهزموهم أقبح هزيمة، وأسر الإمام الوشلي وابنه، وفر الأمير محمد بن حسين ناجياً على طمرة، قافلاً بالخيبة والحسرة، وأحاط أصحاب عامر بما في المحطة، وقالت له صنعاء بعد ذلك حطة، وانهزمت غارة صنعاء وولوا الأدبار، واستحكم عليهم الإدبار، فسبحان العزيز القهار، وكانت هذه الوقعة يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان المعظم، وخرج الخليفة أحمد بن الناصر إلى يد عامر يوم الأحد ٣ شوال ومعه أهل صنعاء والسيد فخر الدين عبدالله بن المفضل بن الإمام المطهر بن محمد بن سليمان، ودخل عامر المدينة قبل الزوال يوم الخميس ٧ شوال وأظهر غيظه على بني أسد[٣] لكونهم القاتلين لعمه عامر بن طاهر لما توجه لأخذ صنعاء في مدّة دولته، وأخرجهم من ديارهم ولحق أهل صنعاء مشقة عظيمة، وازمة جسيمة في وقت الحطاط، ثم أن السلطان اقتضى نظره بأن أنزل الإمام أحمد بن الناصر[٤] وعبدالله بن الإمام المطهر وشارب قاتل عمه وعدّة من أعيان الأشراف وانزل معهم

---

(١) محمد بن علي السراجي: هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن الإمام يحيى بن محمد السراجي، دعى إلى نفسه بالإمامة في ٦ ذي القعدة سنة ٩٠٠هـ وتلقّب بالمنصور بالله واشتهر باسم الوشلي، وكانت دعوته بعد وفاة الإمام عز الدين بن الحسن في قرية القابل بوادي ظَهْر من أعمال صنعاء، وامتد نفوذه في بلاد المغرب، وسار إلى صنعاء للقتال مع الأمير أحمد بن الناصر فأسره السلطان عامر بن عبدالوهاب كما هو مذكور وحبسه، وتوفي في حبس السلطان سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٤م، ودفن إلى جوار مسجد الوشلي في صنعاء.

(٢) محمد بن حسين الجوفي: من الحمزات سلالة الإمام يحيى بن حمزة القادم إلى اليمن من العراق في المئة التاسعة، وقد كان المذكور متولياً بلاد صعده.

(٣) بنو أسد: قبيلة ومركز إداري في جبل عُتْمة، غربي ذمار.

(٤) الأمير أحمد بن الناصر: تولى بعد وفاة أخيه الإمام محمد بن الناصر سنة ٩٠٨هـ، وقد حدث بينه وبين السلطان عامر بن عبدالوهاب حروب أسفرت عن أسره، ونُقل إلى تعز مع طائفة من أصحابه منهم السيد الهادي بن إبراهيم بن محمد الوزير وأخوه أحمد بن إبراهيم، حيث حبسهم بها.

مكالفهم من الشرايف والبنين وقاسوا منه ما قاسى الحسين في كربلا، وتجرعوا من أفعاله كرباً وبلاءً، وما هذا بكثير من الأموي الغوي، وكان استقراره في وقت دخوله صنعاء في دار الشريفة بنت الحسين وهي الآن تعرف بدار الكيخيا، ثم أنه تسلم جميع الحصون التي حول صنعاء سوى ذَمَرمَر والغُصيّين[1] ثم أنه دس للإمام الوشلي وهو بسجنه بصنعاء سماً في مأكول فأكله ورَسَميُّهْ وماتا جميعاً وفاز بالشهادة التي هي لسلفه عادة، وكانت وفاته في ١٣ القعدة الحرام، ومازال يقتل الأشراف بيد الحيلة، ويرميهم بسهام الغيلة، ويأخذ بثأر الوليد وعتبه، ويطفئ تلك الكربة، والله من ورائه محيط (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون).

ودخلت سنة إحدى عشرة وتسعمائة:

في ذي الحجة عاد عامر قافلاً عن مدينة صنعاء ومعه الأمير محمد بن عيسى شارب وعدّة من بني أسد وأعيان صنعاء.

ودخلت سنة اثنتي عشرة وتسعمائة:

وفيها دعى الإمام شرف الدين[2] فاحترقت بنار بأسِهِ الدولة الظاهرية، وتزلزلت بعلو همته المملكة العامرية. وذلك أن الإمام شرف الدين بن شمس الدين بن الإمام المهدي كانت دعوته وأخذ بيعته في يوم الاثنين عاشر جمادي الأولى، وما برح يرابط القبائل ويستميلهم بالوسائل والرسائل وهو مع ذلك ينتظر الفرج ويلح في قرع الباب ومن لج ولج حتى كانت سنة إحدى وعشرين وتسعمائة، وستذكر ما مَنَّ الله فيها من الغارة السماوية والعنايات

---

(١) ذومَرمَر والغُصَّين: حصنان متجاوران بمديرية بني حِشَيْش وأعمال محافظة صنعاء، في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة.

(٢) دعوة الإمام يحيى شرف الدين من حصن الظفير ببلاد حجة في جمادي الأولى من السنة المذكورة.

الإلهية وكان مولده الكريم في صبيحة ٧ شهر رمضان الكريم سنة ٨٧٧هـ بحصن حضور الشيخ[١] من بلاد المصانع.

وفيها، أعني سنة اثنتي عشرة، مات الخليفة أحمد بن الناصر وشارب وعدّة من الذين حملوا إلى تعز من الأشراف والعرب، وقيل أن عامراً دس إليهم سماً وكان هذا دأبه فيمن ظفر به من الرؤساء أو نابذه وأساء، ولو علم المغرور بمقابله، وقاصد مقاتله، ما ارتكب الإثم في هلاك آل الرسول، ولا احتمل الجزم في عترة الوصي والبتول، فطوبى لهم بالشهادة، والزلفى والسعادة.

وفي شهر رمضان من السنة تسلمت عساكره حصن ذمرمر وعملت لهم الزينة في المدائن نصف شهر.

ودخلت سنة ثلاث عشرة وتسعمائة:

ففيها لمع برق الهلاك لعامر وأمض سناه الذي كشف من ظلمه ظلمة الدياجر، وهيم القدر بزواله وانتقاله إلى دار الفناء وارتحاله.

وفي المحرم وصلت برشتان وثلاثة أغربة، كانت عن هذه الديار مغربة وذلك من أوائل جيش الجراكسة الذي صارت به أعلام عامر ناكسة، ولديهم البنادق والمدافع[٢] فوصلوا إلى جازان وأخذوا منهم طعاماً ثم ساروا إلى كمران ودخلوها بعد أن هرب أهلها ثم ساروا إلى المخاء ثم إلى عدن، ثم ارتفعوا إلى ساحل أبين، ثم قدم جماعة منهم في برشتين وثلاثة أغربة في

(١) حضور الشيخ: فرع من جبل المصانع في غربي مدينة ثُلا.

(٢) كان هذا بداية دخول الجراكسة المماليك إلى اليمن، وقد ساعدهم في ذلك عدة عوامل: تفردهم بالأسلحة النارية من بنادق ومدافع، ومؤازرة الإمام شرف الدين وأشراف جازان. ثم انشغال الملك عامر بن عبد الوهاب آل طاهر في حروب داخلية مع الخارجين عليه، وتعد دولة الجراكسة مزيجاً من الجراكسة ومن العثمانيين، وقد امتد حكمهم في اليمن من عام ٩٢٣ إلى ٩٤٥هـ.

شهر ربيع الأول وفيهم الأمير حسين.

وفي شهر ربيع الآخر كان وصول الأمير حسين المصري في ثلاث برشات وثلاثة أغربة إلى الجهات اليمنية ولم يعلم أحد مقصوده حتى مرَّ بباب المندب فلما قرب من الدخول في عدن أرسل سُنْبُوقاً فيه رسول إلى الأمير فرحان الظافري صاحب عدن يستأذنه بالدخول إلى حُقّات[1] فأذن له فدخل بإذنٍ واحتشام وتعففٍ واحترام، وتحت تبسُّمه عبوس، وفي ضميره ويل وبؤس، فأرسل فرحان رسولين، فلما وصلا إليه أكرمهما وكساهما وقال بَلِّغَا عنّي الأمير السلام وعرفاه لولا أنه مأخوذ عليّ من قبل السلطان قانصوه على أن لا أدخل عدن لدخلت ومثلت بين يديه، ثم أنه أخذ ما يحتاج إليه لشحنة برشاته، وأضافه الأمير فرحان ضيافة سنيّة وأرسل إليه الأمير حسين بكسوة عظيمة وهدايا نفيسة، ثم توجه قاصد البحر لسبب الفرنج الذين ظهروا فيه وأوسعوه نهباً وأخذوا كل سفينة غصبا.

وفي هذه السنة غلب الفرنج على مدينة هرموز وأخذوها وأمنوا من المسلمين والتجار والمسافرين ووصل الخبر إلى اليمن في أواخر شهر شعبان.

ودخلت سنة أربع عشرة وتسعمائة:

في المحرم منها أحرق من مدينة عدن قطعة عظيمة من المدرسة السفيانية إلى حافة اليهود وما هنالك، وأحرق من الناس قدر ثلاثين، وتلف بيوت وأموال لا تحصى، والحكم لله.

---

(١) حُقّات: هو الجزء الغربي المتدرج في الانخفاض من جبل شمسان المُطّل على مدينة عدن، ويمتد إلى الصخرة المجاورة لجبل صِيرة شرقاً، كما يطل من الشمال على خليج حُقّات الذي كانت ترسو به السفن قديماً.

وفي يوم الجمعة ٩ صفر احترقت قرية الذنبة[١] بأعلى وادي زبيد احتراقاً عظيماً ولم يبق منها سوى شرذمة قليلة من غربيها ويمنيها نحو عشرين بيتاً، وتلفت من الأموال ما لايحصى وتضعضعت أحوال أهلها بعد ذلك.

وفي آخر ربيع الأول قبضت جند عامر حصن ضُفُر بني وهّاس والغُصَيّن والعَروس والريشة [٢] وفي الثُلث الأخير من ليلة ٤ من ذي الحجة الحرام ولد شمس الدين بن الإمام شرف الدين [٣].

ودخلت سنة خمس عشرة وتسعمائة:

في يوم الأحد ٢٨ في رجب ظهر في السماء آخر الليل من مطلع العقرب نورٌ على هيئة طرف قوس قزح أبيض له شعاع عظيم وله رأسٌ مائل نحو مطلع سهيل، واستدام يطلع كل ليلة في الوقت نحو ثلاث عشرة ليلة ثم اضمحل أمره.

وفي يوم الخميس ١٧ من شعبان توفي الأمير أحمد بن الحسين باعلوي بزبيد زيلع ووالده إذ ذاك بها.

وفي هذه السنة فقدت مراكب عامر جميعها[٤] ولم يسلم منها إلا مركب واحد وطليعتان.

---

(١) الذَنَبة: قرية بأعلى وادي زبيد، عدَادها من مديرية وُصاب.

(٢) حصون حول صنعاء.

(٣) شمس الدين بن شرف الدين: عالم أديب، شارك شقيقه المطهر في كثير من حروبه، وكانت وفاته في برلش في الطرف من قاع الضَلع من بلاد الطويلة في صفر سنة ٩٦٣هـ، ونقل جثمانه إلى كوكبان.

(٤) وذلك عند رجوعها من الهند.

ودخلت سنة ست عشرة وتسعمائة:

في شهر ربيع الأول أرسل الفقيه العلامة حمزة بن عبدالله الناشري[١] بكتابه الذي ألفه في الصيد المسمَّى **بانتهاز الفرص في الصيد والقنص** إلى حضرة السلطان عامر.

وفي السبت ١٠ جمادي الآخرة قدم رسول سلطان مصر الملك الأشرف قانصوه الغَوْري[٢] وصحبته الطواشي بشير إلى مدينة زبيد، ثم توجه إلى حضرة السلطان عامر إلى رداع، فأمر عامر ولديه عبدالوهاب وأحمد باستقباله، فخرجا في هيئة عظيمة، وشحن مركباً من كل ما يصلح للملوك هدية وأرسله صحبته للسلطان قانصوه، وفيلاً من أفياله، وكتب إلى الأمير فرحان الظافري بالقيام بأمورهما فقام بهما قياماً حسناً وكان دخولهم عدن يوم السبت سلخ رجب.

وفي شعبان توفي الشريف عبدالله الأحدب باعلوي بمدينة لحج وصلى عليه بمدينة زبيد وقريت له ثلاثة أيام بمسجد الأشاعرة.

وفي رمضان توفي الشريف العالم الصالح عبدالله بن محمد باعلوي غريباً ببلاد الهند ببندر الديو.

وفي ضحى يوم الثلاثاء ٣٠ في شوال زلزلت مدينة زبيد زلزلة عظيمة، ثم أخرى ليلة الأربعاء، وانقض عصر ذلك اليوم كوكبٌ عظيم من جهة المشرق وأخذ في ناحية الشام ورُئي نهاراً وحصل بعده رجفة عظيمة كالرعد القاصف، وزلزلت مدينة مَوْزَع وتتابعت فيها حتى تصدعت البيوت

---

(١) حمزة بن عبدالله بن محمد بن علي بن أبي بكر الناشري: فقيهٌ، نحوي، مقرئ، مؤرخ، شاعر. تولى القضاء في زبيد بالنيابة. مولده سنة ٨٣٣هـ ووفاته سنة ٩٢٩هـ. من آثاره: الأربعون التهليلية، ألفية في غريب القرآن، البستان الزاهر في طبقات علماء بني الناشر، ثم كتابه الذي يشير إليه المؤلف وهو "انتهاز الفرص في الصيد والقنص" وقد نشره الأستاذ عبدالله الحبشي. (هجر العلم ٤/٢١٨٥).

(٢) السلطان: قانصوه الغوري: هو آخر ملوك الجراكسة بمصر.

واستمرت إلى آخر ذي الحجة الحرام، وخربت البيوت ضعيفة البناء وما سلم بيت من الشعث، وتشققت الأرض المعدّة للزراعة وتهجمت القبور.

وفي هذه الأيام غلت الأسعار غلاءً عظيماً حتى بلغ الثمن ثلاثة دنانير.

وفي عصر الخميس ٢٩ من ذي القعدة زلزلت زبيد زلزلة عظيمة وكذا ليلة الجمعة من الشهر، وذلك على غير الإرادة ولا جرت به العادة.

ودخلت سنة سبع عشرة وتسعمائة:

في جماد منها خرج من صنعاء واليها من قبل عامر وهو الأمير شمس الدين علي بن محمد البعداني إلى بلاد "نهم"[١] في عسكر كثيف فلما وصلها رام أهلها التمنّع والحرب فلم يطيقوا وولوا منهزمين، وقتل منهم مقدار خمسين واستباح بلادهم واحرق الزراعات والأعناب وما زال في أعقابهم حتى تسلم جبل ملح[٢] وتوغل في تلك الجهات حتى أشرف على الجوف، ثم نوى العود لأخذ بلاد ذيفان وعيال عبدالله[٣] وأخرج عسكراً وحطّ على حصن ذيفان[٤] بالمنجنيقات والمدافع، ثم أنه جرى من أهل مدينة ثلا ما يوجب الأدب، فأدّبهم بألوفٍ من الدنانير، وذلك أنهم قتلوا شخصاً عدواناً، ثم تقدم إليه أمر السلطان عامر أن لا أمان لهم إلا بتسليم الحصن، ثم أن البعداني دس الحيلة في أخذ الحصن، وأحسن الوسيلة حتى أخذ الجبل الذي هو محاذي لحصن ثلا وهو المعروف بالناصرة، فملكه البعداني في رابع الشهر المذكور، ولم يشعر أهل ثلا إلا وهم فيها، فضرب أهل ثلا الطبول فأغارت عليهم القبائل من كل فج عميق ومكان سحيق وأحاطوا بمن في البعيرة أي الناصرة، وكان صاحب

---

(١) بلاد نِهْم: بكسر النون وسكون الهاء: تقع في الشرق الشمالي من مدينة صنعاء، وهي قبيلة مشهورة من قبائل بكيل.

(٢) جبل مِلْح: بكسر ففتح، جبل وقرية من قرى عِيَال غفير في بلاد نِهْم، بالشمال الشرقي من صنعاء.

(٣) عِيال عبدالله: من قبائل أرحب، شمال صنعاء.

(٤) ذَيْفَان: جبل ومركز إداري من مديرية رَيْدة وأعمال محافظة عمران، قريب من أرحب.

كوكبان بن ناصر الدين في صعدة فبلغه الخبر فوصل مغيراً واستصرخ عدة من الأشراف في جموع كثيرة فلم يظفروا بمن في البعيرة فبلغ الخبر علي بن محمد النظاري، وكان في صنعاء خليفة البعداني، فوجه خيلاً ورجلاً، فلما بلغ الداعي الخبر تجهز في ألف رجل لهم، وبلغ الخبر الأمير البعداني يوم الأحد وهو متوجه بلاد ملح إلى ذيبان فرجع عن قصده وأغار غارة عظيمة شمرّ بها عن ساقه وردع بارعاده وابراقه، ووصل ثلا يوم الاثنين ٦ رجب، وقطع مسافة ثلاثة أيام في ليلة ويوم، ولم يشعر أهل ثلا إلا وهو محط عليهم في تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل، ودخل المدينة قهراً بالسيف، ثم أمر بالكف عن نهب المدينة، وأسر بن ناصر الدين، ثم قبض حصن ثلا وحضور الشيخ وكوكبان في ١٣ رجب، وكان هذا من عجائب الاتفاق، واعجب ما يكتب في الأوراق، فسبحان من بيده مقاليد الأمور الذي لا تغيره الدهور.

وفي آخر رجب توفي السيد الأديب الفصيح الأريب الجليل الشاعر الناظم الناثر أحمد بن يحيى بن عودي بمدينة تعز، وكان من شعراء صنعاء المحمية المجيدين.

وفي شهر شعبان توفي الشريف العابد الراكع الساجد محمد بن أحمد باعلوي وصلّي عليه بمدينة زبيد آخر جمعة من الشهر.

وفي ليلة السبت ٣ شوال قيل أن فيل السلطان عامر المسمّى بمرزوق، بقريعة يقال لها الركن من زوايا الشيخ القطب الرباني شهاب الدين أحمد بن علوان أعاد الله علينا من بركاته، وكان الفيال قد أدخله بيت فقراء الشيخ صفي الدين كرهاً، وسألهم مالا طاقة لهم بتسليمه فلم يشعروا حتى غاب أكثر الفيل في الأرض، وكانت من الصفي من قبل رجليه فصرخ صرخات ومات، وكان عبرة لمن رآه ولم يقدر على إخراج شيء منه أحدٌ من موضع الخسف.

ودخلت سنة ثماني عشرة وتسعمائة:

في ١٨ محرم احترقت مدينة زبيد احتراقاً عظيماً من الربع الأعلى إلى مسجد فوقله[١] ثم في ربيع منها احترقت حافة اليهود وتلفت الأموال.

وفي ربيع الآخر احترقت قرية الزربية[٢] كلها ولم يبق منها إلا نحو عشرين بيتاً للمشائخ بني أفلح[٣].

وفيها قدم السلطان عامر من المقرانة[٤] إلى تعز وفي صحبته ولداه عبدالوهاب وأحمد وصنوه عبدالملك وجمع من بني طاهر، وأقام بتعز حتى توجه منها في التاريخ الآتي.

وفي ربيع الآخر دخل السلطان مدينة زبيد في أعيان بني طاهر ولم يتخلف إلا ولده أحمد تركه بمدينة تعز.

ودخلت سنة تسع عشرة وتسعمائة:

في محرم منها وصل الخبر بقدوم ثمانية عشر مركباً إلى بندر عدن من الفرنج فجهز السلطان عسكراً إلى بندر عدن وأمر بالتحفظ منهم وأمر بالقنوت في الصلوة في جميع المساجد وفي خطب الجمعة، وكان وصولهم

---

(١) مسجد نوقله: من المساجد المندرسة في زبيد.

(٢) الزربية: قرية من ضواحي مدينة زبيد.

(٣) بنو أفلح: عائلة من أهل مدينة زبيد، من سلالة الصوفي الشهير علي بن عبدالملك بن أفلح المتوفي بالقرن السابع الهجري، قال الشرجي: كان من كبار الأولياء أرباب الكرامات والأموال، وكراماته كثيرة مشهورة، وله في مدينة زبيد رباط معروف وزاوية محترمة، وله فيها وفي باديتها ذُرِّيَّة أخيار صالحون، شَهُر منهم جماعة بالولاية التامة، ونسبهم يرجع إلى قحطان.

(٤) المقرانة: بلدة أثرية مشهورة تقع في منطقة خجّاج من مديرية جُبَن، جوار حَمَّام دمت شرقاً.

في أيام عامر بن عبدالوهاب كان البرتغال قد تمكنوا من اكتشاف رأس الرجاء الصالح، فهاجموا الهند وسواحل الجزيرة واليمن، ومن ذلك هجومهم على عدن بقيادة نائب ملك البرتغال وقائد قواته في بحر الهند والبحر الأحمر واسمه (البركيرك). إلا أن هجومهم على عدن لقي فشلاً ذريعاً بعد صمود العدنيين دون أية مساعدة خارجية.

عدن في ١٧ محرم، وأمر الأمير أهل عدن بالتغافل عنهم والتشاغل بتحصين البلد والأخذ بالحزم، ثم أن الفرنج خرجوا إلى الساحل بسلالم قد صنعوها ووضعوها على أقصر جانب من سور عدن فطلعوا ودخل بعضهم إلى عدن، فأمر الأمير أهل عدن أن يخرجوا إليهم فخرجوا فحازوا السلالم وقتلوا منهم بضعة وأسروا أربعة، وهزموا الفرنج ولله المنة، وحين عرفوا أن لا طاقة لهم بأخذ المدينة أحرقوا المراكب التي كانت في البندر خوفاً من الغارة عليهم، ثم ساروا إلى باب المندب ثم إلى المخاء ومرّوا ولم يدخلوا إلى شيء من البنادر، ثم ساروا إلى الحديدة وحاولوا أن يدخلوها فلم يقدروا، ثم ساروا إلى جزيرة كمران فدخلوها في أوائل صفر ونهبوا ما فيها وقتلوا من وجدوا فيها من أصحاب السلطان منهم الشريف محمد بن عبدالعزيز بن سفيان ثم رجعوا إلى البحر.

<u>ذكر تدبير حيلة لم تتم</u>: في صفر اجتمع عدّة من أهل صنعاء وتوالوا على الغدر بالأمير شمس الدين علي بن محمد البعداني، فظهر أمرهم وكشف سرهم ونتيجة مكرهم.

ثم أن الفرنج لما تركوا كمران خاوية على عروشها توجهوا إلى عدن ولم يقدروا على أخذها وتوجه منهم مركبان إلى زيلع وأحرقوا الخشب التي بها، ثم لحقوا أصحابهم إلى عدن ورموها بالمدافع وأخربوا بعض البيوت وقتلوا جماعة في الأسواق، وجرى بينهم وبين أهل عدن حرب كبيرة جُرح فيها كثير من الفرنج، ونصر الله المسلمين ولله الحمد والمنة بدفع تلك المحنة، وانصرفوا عن عدن غرّة جمادى الآخرة.

وفي ربيع الثاني طلع السلطان عامر من زبيد إلى تعز وترك بها الأمير علي بن محمد النظاري حاكماً وآمراً، وفيها أنعم السلطان علي ولده عبدالوهاب بولاية تعز وجعل إليه أمور الناس من تهامة وتعز ونواحيها، فضبط البلاد وأحسن سياستها، وفي مدّة إقامته بتعز وفد إليه الأشراف الذين

بصعدة داخلين تحت الطاعة، فأكرمهم وأحسن إليهم، وجعل بذلك في مدينة زبيد الزينة سبعة أيام، وكان قدومهم عليه في القعدة، ثم أن السلطان توجه وطلع المقرانة في خامس ذي الحجة الحرام.

ودخلت سنة عشرين وتسعمائة:

فيها توجه السلطان عامر إلى مدينة صنعاء يوم الجمعة سلخ شعبان وصام رمضان، وعيّد بها عيد الفطر، ووفدوا اشراف صعدة باذلين الطاعة وتسليم مدينة صعدة، فجهز السلطان معهم عسكراً، فلما قربوا من المدينة غدر بهم بن البهّال[١] وأظهر لهم كميناً فثبت لهم أصحاب السلطان عامر ولم ينل منهم ما أراده، ولا بلغ ما أكاده، ثم أن السلطان وجّه لنصرتهم حين بلغه الخبر الأمير علي بن محمد البعداني، فلما رأوا ذلك ولوا منهزمين ورجع الأمير علي إلى السلطان بالعساكر، وكان ذلك سبباً لتغيير قلب السلطان على أشراف صعدة.

وفي مدة السلطان بصنعاء قدم عليه رسول سلطان مصر قانصوه الغوري بهدايا نفيسة.

وفيها حج ولد السلطان قانصوه حجاً عظيماً وتجهز معه بعد الزيارة أمير الحاج بركات بن محمد ولم يبرح عنده مجللاً إلى أن رحل إلى الحجاز متولّياً أمورها ليس لأحد عنده كلام.

---

(١) بن البهّال: عشيرة تسكن " خبت دَرْعان" في مديرية باقِم من أعمال محافظة صعدة، وهم من سلالة الحسن بن حمزة بن أبي هاشم، من حفدة الحسن بن علي بن أبي طالب.

ودخلت سنة إحدى وعشرين وتسعمائة:

في ٣ من جمادي الأولى توجه السلطان عبدُ الوهاب بن عامر من تعز إلى زبيد، فدخلها في هيئةٍ جميلةٍ، واهبةٍ جليلة.

ولما صفت لعامر أوقاته، وانقادت له مراداته، وخضعت لسطوته العباد، وانقادت له البلاد، ظنّ أن الليالي قد سالمته والحوادث قد جانبته، وأن الدهر قد أنام له صروفه، وقيد له حتوفه، فأمن من وثبات الحوادث، وتغافل عن الخطب الكارث، ولا يعلم ما في طي الأيام من ألم الانتقام، فلم يشعر إلا بكتاب من ولده المنصور عبدالوهاب يخبره بوصول العساكر المصرية والأجناد الغورية، وأنها دخلت بندر كمران[1] يوم الأربعاء سابع ذي القعدة، فرجع جوابه على ابنه أن يمنع من الشحن في البحر إلى جهة الحجاز والأخذ بالحذر من الغورية، وأمره بإقامة زبيد، ولما نما هذا الخبر وشاع بين الناس وظهر لم يقر له قرار ولا ثبت له وقار وخرج من صنعاء إلى ذمار.

وفي آخر القعدة توجه إلى رداع، وعيد هناك عيد الأضحى وكادت تدور عليه الحوادث كدوران الرحا، وعلم أن الدهر قد تنكر له وكمن، وقلب عليه ظهر المجن، وأن الزمان قد أبرز ما كتمه من دهره وأجن، فعطف على عدة من أهله كانوا في الاعتقال رهن السجن والأغلال، وعند الحوادث تذهب الحقود، ويحن الودود.

وفي خلال ذلك أن الإمام شرف الدين لما علم بخروج عساكر مصر تيقن أن قد آن ذهاب ذلك الأمر من ملكٍ عامر وأن قد شارف خراب ملكه العامر فبث دعاته في البلاد الحاضر والباد.

---

(١) كَمَران: جزيرة مشهورة في البحر الأحمر قُبالة مرفأ الصليف. لا تبعد عن اليابسة إلاّ بنحو كيل واحد.

ذكر رأي سديد: أجمع رأي الإمام شرف الدين أن يكتب إلى رئيس الأجناد المصرية كتاباً يستنصرهم على الظاهري، ويستنجدهم على الملك الظافري، فكتب إلى الأمير حسين كتاباً هذه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

نعمةٌ سبغت وشملت، ومنحةٌ تمت وكملتْ بلغت من لدن حكيم خبير، على أهل بيت نبيه البشير النذير، أجراها على يد ملك السيف الأمير الهمام الخطير الشهير، أمير الأمراء الإسلامية، مفرج كرب العترة الطاهرة الزكية، الناقم بثأر الحرمين من الفرقة الغوية الظالمة العامرية، المتحلي من اجل ذلك بكل زين المتبرى إن شاء الله من كل شين، الوافي بحق سيد الشهداء الحسين، الأمير الجليل النبيل حسين "يعني حسين الكردي" حياه الله من السلام بأهناه، ومن الاكرام بأزكاه، والله المسئول أن يوفقه وإيّانا لإصابة مراده وهداية عباده وإجراء أحكام شريعته الطاهرة في بلاده، وتطهيرها من آثار جور الجائر وتنويرها من ظلمات عناده. وبعد:

كتابنا هذا لتعريف خاطر الأمير، وفقه الله الملك القدير، بأنا لم نزل إلى الله مبتهلين، ولما لديه من الفرج منتظرين، وبالتجرد لما بدت من عدوّ الله الجائر عامر[١]، والقيام بالدعاء إلى دفاعه وجهاده، امتثالاً لأوامر الله الملك القادر، ولكن مع ذلك عدم المعين والناصر، وخذلان من أهل الزمان المشؤوم القاصر، وميل من الناس إلى الأطماع الحقيرة، والإنخداع من الخلف بزخارف الأباطيل الفاضحة المبيرة، حتى تمكن منهم هذا الظالم الغشوم، وأوقعهم من الخزي والوبال والهون في أقصى التخوم، وشمل بشرّه البريء والغوي، والضعيف والقوي، والشجي والخلي، وتتبع بمعظم جيشه ومكره أهل بيت النبي ولم يبق في سلطانه لأهل البيت باقية[٢]، ولا أُجيبت لهم بإجابة نافعة

(١) يعني الملك عامر بن عبدالوهاب آل طاهر.

(٢) هذا هو نسر الجملة عليه من الإمام شرف الدين ووصفه بهذه الخلال الذميمة.

واعية حتى يدّهم الظالم في البلاد، وفرق منهم بين الآباء والأولاد، والأكثر منهم في تخوم اليمن مطرودين متبدّدين يتمنّى الولدُ أن يحضر موت أبيه، والوالد أن يشاهد أحوال بنيه، وفعل في آل المصطفى ما حرمه الله في سيئ الكفار الخارجين عن الدين، وأعانه على ذلك رجل من أهل البيت أدعى ماليس له بحق فأنكر عليه الإمام الوشلي، ولم يعذرنا أهل زماننا عن القيام في مقامه الجلي، ولقد هم أخزاه الله بقصد الحرمين، وإخراج من فيه من ولد الحسين، فرجعنا مع بذل ما بقى معنا من جهد في دفاع مجهود المذاكرة له في كثير من الحدود إلى الله سبحانه وتعالى، وسألناه تعجيل الفرج وإطفاء وهج المهج، على يد من هو أهلٌ للمحامد المبرورة والمقاصد المشهورة في حياطة هذا الدين، والرعاية لحق رسول رب العالمين، وما ذاك إلا لسريرةٍ صالحة وتجارة رابحة من السلطان الأكرم، والنور المستطيل الأعظم " قانصوه" أطال الله توفيقه، وأوضح إلى كل مقصود مبرور طريقه.

ولقد ربما يسَّر اللهُ العظيم في أثر البيت والطهر الكريم وخاتم أنبيائه عليه أفضل الصلاة والتسليم والتشريف والتعظيم، ونرجو أن الله قد وفقكم أيها الغزاة إلى قوام عمود الإسلام من قال فيه الملك العلام ((فسوف يأتي اللهُ بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلة على المؤمنين أعزةً على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم))[1] وقد رجحنا إرسال هذه الرسالة بيد صاحبنا الفقيه العالم العامل صلاح الدين بقية المجاهدين صلاح بن شراح الله، كتب الله هدايته وأحسن رعايته، وهذا كتابنا يحتوي على التهنئة بما فتح الله به على أيديكم من الفتوح الهنية، والحث لكم على استدراك هذه البقية من عترة نبيئكم الطاهرة الزكية، وبذل المعاونة على استجلاء سائر البلاد من يد هذا الطاغي وأعوانه

(١) سورة المائدة الآية (٥٤).

وأنصاره وأجناده، وقد بقت لنا بلاد مجاورة لبلاده ونحن نفتقر إلى الإعانة منكم بما أمكن من الرجال والعدّة، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، والله خير الناصرين، وأكرم القادرين، والفقيه الصالح صلاح يحقق لكم ما لايتسع له الكتاب ولا يقوم به إلا المشافهة والخطاب، وصلى الله على سيدنا محمد سيّد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

ولما وصل الفقيه صلاح رسول الإمام شرف الدين إلى رئيس الأجناد الغورية وزعيم العساكر المصرية وتم له المأمول، قابله بالقبول، وقرأ كتاب الإمام، تصحفه في ذلك المقام، وجعل له مقاماً ينزل فيه، ثم عرض الكتاب على أرباب دولته، وأحزاب صولته، واستمد منهم الرأي في جواب الإمام وهل يسعده إلى ذلك المرام.

رأي رآه بعض أصحابه: دلّ على كمال عقله وصوابه.. وكان من ذوي الحجا وأرباب الهمم والذكاء: لا تجب أيها الأمير على الإمام ولا تسرّح رسوله هذه الأيام حتى توجه رسولاً إلى هذا السلطان الذي نسب إليه الزيغ والطغيان، وتستمدّه الإعانة في قتال الافرنج الغازين في البحر، وتعرفه المشاركة في الأجر والفخر، فإن أمدّ فهو عادل ناصح راجح صالح، وعرفنا أن الإمام قد نافسه في دنياه وعارضه في مراتب علياه، أرجعنا رسوله خائباً مذموماً راجعاً محروماً، وإن تلكأ عن النصرة في منابذة الكفار علمنا أنه رأس الأشرار وزعيم الفجار، وأن ما نسبه إليه الإمام حق لا ريب فيه لمن يفهمه ويقتفيه. فقال: الرأي ما رأيت والنهج ما إليه أهديت، وأحضر من أصحابه رجلين من أهل العقل الوافر والذهن الحاضر وأصحبهما كتاباً إلى الملك الظافر، فلما وصلا حضرة السلطان عامر وقرأ الكتاب الصادر وفهم فحواه وعلم ما حواه أكرم نزلهما وأوسع منزلهما.

رأيٌ رآه النظاري: كان فيه الخير وفي خلافه الضير، ثم طلب عقيب ذلك الفقيه علي بن محمد النظاري وسأله في إمداد المشورة، وأوضح الصورة،

فقال: الرأي السديد والطريق الحميد تجهيزهما بذلك المطلوب، وتزليجهما بجواب المكتوب، وقد أمدّك الله بملك عظيم، وسلطان جسيم، وخيرات واسعة وخزائن نافعة، مع ما تنال بذلك من حسن الثناء فيمن بَعُدَ ودَنَا، فإن تجاهد الكفار في البحار فأنت ظافر، وكان لك في الآخرة الخير الأوفر المتكاثر والسهم العاشر، وإن لم يكن ذاك فقد اكتفيت شرّهم، وقطعت عُذرهم، ونُسبتَ إلى الحزم والكمال، فكاد يميل إلى هذا المقال، ويأمر به في الحال، فجالت الأقدار لوقوع الأخطار، وكان الملك الظافر شديد الميل إلى قول الأمير شمس الدين علي بن محمد البعداني، ويفضله على القاصي والداني، لمجرّد الهوى النفساني، فاستحضره وعرض عليه الكتاب، وسأله ما يحسن الجواب، وما رآه من تقدّم المقال، وكان فيه النوال لا النكال، فقال البعداني إنـي أنا القائم بالخطاب، الثابت لمولانا في ردّ الجواب، وطلب الرسولين إلى بين يديه، فلما مثلا لديه قال لهما أمركما أميركما إلى مثل حال السلطان الملك الظافر صلاح الدنيا و الدين خليفة الله على المسلمين، ويرسلكما بهذه الرسالة، ويبعثكما بهذه المقالة كأنه بعض عماله على بلاده وأعماله وما علم أنه سلطان اليمن وواحد الزمن، والله لولا قتل الرسول حرام لاعرضتكما إلا الحسام، إذهبا فهذه غاية الخطاب، ونهاية الجواب، فخرجا ما لهما همّ غير طيّ المراحل حتى ركبا من الساحل وعادا إلى الأمير وأعلماه بخلوصهما من الحَيْن، فعلم أن دعوى الإمام فيه صادقة، وأن أحواله بالظلم ناطقة فأجاب على الإمام بما شفى عليله وأطفأ غليله، وأجار رسوله، وأحسن فعوله، ولما حَسّ عبدالوهاب بن الملك الظافر بالشر من الجيوش المصرية وايقن بالبلية، وجّه إلى الفقيه عبد الحق النظاري بجميع العساكر العامرية والجنود الظافرية وعاد إلى زبيد بجمع لا يفيد[1].

---

(١) أعطى رد الملك عامر عبد الوهاب السلبي عن طريق وزيره البعداني المبرر للمماليك لتنفيذ هدفهم وتحقيق مطامعهم في السيطرة على اليمن.

ثم أنه طمع في مال أخذه من العسكر ومن له النفاعة إن جد الكر، ولم يبق في المدينة إلا الذي لا نفاعة معه ولا دفاع، ولما تغيرت نية الأمير حسين على عامر شرع في سلب ملكه العامر وتوجه إلى الحديدة فهرب أهلها منها وخلت عن الساكن وتعطلت عن الأماكن والمساكن، ولما دخل المصريون كمران حُيِّرت السفن حق السلطان من الوصول إليهم بالميْرَة [١] وعن التقدم بها إلى جدّة كما سبق ذكره فضاق بالمصريين الحال وأرسلوا غرابين إلى الحديدة للطعام فرفع أهل الحديدة الخبر إلى السلطان عبدالوهاب، وأمدّهم بخيل ورجل، فلما وصلوا طلبوا من أهلها سَبَار [٢] من الطعام والعلف فلم يقدروا فخرجوا منها خائفين عاجزين، فكان سبب خروجهم قدرتهم بقيام من جاء لنصرتهم، فلما غلب المصريون على الحديدة وجدوها خالية عن أهلها فسألوا عن عسكر السلطان المقيمين لكلاتها وحماتها فقيل لهم: لا يلبثون إلا في أعلى القرية خارجاً عنها بموضع يُسمى المحسا، فحين عرفوا موضع الخيل والرجل رموهم بمدفع عظيم ذهبت أكبادهم جزعاً وقلوبهم فزعاً وأرسلوا بحجر المدفع إلى زبيد، وتعقب ذلك ذهاب الدولة العامرية من الحديدة، ودخل عساكر مصر إليها وأخربوها وأخذوا أبوابها وأخشابها ومراكبها، وشحنوا المراكب وتوجهوا كمران وقصدوا جدّة، وكان لوصولهم إلى جدّة مشهد عظيم، وأقام المصريون بكمران وبنوا بها حصناً عظيماً، وصلوا بها صلاة عيد الأضحى في السنة، وكان من أقوى الأسباب لنصرتهم الفقيه أبو بكر بن المقبول الزيلعي [٣] مال إليهم وأشار عليهم وأمدهم بنفسه وماله، وكانوا وصلوُه بصلات، ومنحوه هيات من صاحب مصر الغوري،

(١) الميْرة: الطعام.

(٢) سَبَار: إصلاح الطعام.

(٣) أبو بكر بن المقبول الزيلعي: يُنْسَب إلى جزيرة زيلع في البحر الأحمر الواقعة ما بين أرض اليمن وبلاد الحبشة، وقد كان المذكور شيخاً لميناء اللحية وزعيماً لقبائلها، وقد أعان المماليك لمواجهة آل طاهر ولذلك أمدوه بالسلاح عن طريق جزيرة متصلة باليابسة.

وأقام الخطبة له في بندر اللحية.

ولما افتقر المصريون إلى الحَبوب أرسلوا إلى صاحب الحديدة محمد بن نوح، وكان قد حيرّ ثلاث سفن كما أمر السلطان وكانت تلك السفن متوجهة نحوهم، جاءت من جهة زيلع فأخذها وأخرج ما فيها، فأرسل إليه الأمير حسين رسولاً في غراب يقول له إمَّا أن تفسحوا للسفن وإلا أخربنا البندر، فامتنع فكان عين الزلل، وغاية الخطل، وإذا نزل القدر عمى البصر، نسأل الله السلامة من زوال النعم ونزول النقم [1] وكان مع محمد بن نوح جند من قبل السلطان فوجهوا المدافع سمته وقصدوا جهته، ورموه حتى خرب البندر وتركوه حجراً على حجر، فلما علم ذلك الفقيه أبو بكر بن المقبول طلع إليهم وقال لا تتعبوا نفوسكم نحن نفتح لكم الطريق، ونفرّج المضيق وذلك من بندر اللحية، وارسلوا معه أهل اللحية بغراب فيه مائة فتقدموا بهم إلى جهة مور، وبها من قبل السلطان محمد بن سليمان، ولدى هذه الشرذمة المصرية البنادق، ولم تكن تعرف في تلك الجهة، فخرج الأمير محمد لقتالهم فهزموهم بالبنادق فولوا الأدبار، وقتل محمد بن سليمان في جماعةٍ من أصحابه، واستولوا على مور، وتقدموا جماعة من الزيدية إلى الأمير حسين إلى كمران وبايعوه، وطلبوا منه أن يرسل معهم من جنده بضعة وتكفلوا لهم بالجوامك والسبارات وأداء خراج البلد إليه، فأرسل معهم مائتي بندق فقصدوا بهم قرية الضّحي[2] وبها جمع من عساكر عامر وعليهم أمير من بني الحجري، فلما

---

(١) كما يتضح فقد امتنع ولاة الملك عامر من وصول الطعام إلى المماليك في جزيرة كمران بهدف زحزحتهم عنها، لكن الذي حدث أن ذلك شجع المماليك على القيام بتنفيذ مخططهم وضرب ميناء الحديدة بمدافعهم، واضطروا حاميتها وأهلها إلى مغادرتها، ودخلها المماليك وانتهبوها، ونقلوا الكثير من أخشابها في مراكبهم إلى جزيرة كمران وبنوا في الجزيرة داراً كبيرة وسوّروها وبنوا بعض المرافق الأخرى فيها، وضاعفوا من تعبئتها بالمؤن والأغذية والعتاد، واتخذوها مركزاً رئيسياً لهم يصدرون منه في حرب الدولة الطاهرية ويفيئون إليه.

(٢) الضّحي: بلدة في وادي سُرْدُد، بالجنوب الشرقي من مدينة الزيدية بمسافة ٢٠ كيلاً، فيها مركز قبيلة الجرابح إحدى قبائل علك.

التقى الجمعان انكسر عسكر السلطان ونهبت الجند المصريون والزيديون قرية الضحي وأخربوها وأخذوها وانتقلت بقية جند عامر إلى قرية الغانمية[١].

ودخلت سنة إثنتين وعشرين وتسعمائة:

في الاثنين ٢٩ محرم توفى الشيخ أحمد بن أبي بكر بن عبدالله باعلوي بمدينة عدن، وكان ذا جاهٍ عظيم، ولما بلغ الملك عامر ما جرى من جند المصريين والزيديين أرسل أخاه عبد الملك إلى تهامة يكشف أمرها ويسد ثغورها، وكان عامر مقيماً بالمقرانة، فوصل عبدالملك إلى زبيد في جيش عظيم، فدخلها يوم الأحد ١١ ربيع الآخر، فلما بلغ الأمير حسين وصوله نزل من كمران إلى الزيدية بألف مقاتل كلها بنادق، ولم يكن مع عبدالملك البندق الواحد وإنما خرجت البنادق مع هذه الجند المصرية ولا كانت تُعرف في اليمن إلا بوصف السماع، وكان لها هيبةٌ في القلوب، تذهل الطالب عن المطلوب.

ولما استقر السلطان عبدالملك بالزحف تقدمت إليه أوائل الجنود الغورية، وفي ضمنهم الشريف عز الدين بن أحمد دريب صاحب جازان، فالتقى الجمعان، وكانت بين الفريقين وقعة عظيمةٌ قاتل فيها عبدالملك قتالاً عظيماً أبان عن شجاعته وبأسه وقوّته ومراسه وأحسن القتال والمراس، وهلك تحته ثلاثة أفراس، وقتل من أعيان جند السلطان عامر الأمير عوضة بن حسان والنقيب بن سعدون البابلي[٢] وكان يوماً عظيماً، وقُتل من جند الغورية أربعة عشر نفراً واجتزّت رؤوس أربعة منهم، ثم افترقوا، ورجع

---

(١) الغانمية: قرية على بعد بضعة كيلومترات من باجل على طريق الحديدة: وتاريخياً اشتهرت باسم المضيضا، وبها أولياء ومتصوفة، وقد حلّت محلها – قريباً منها – قرية الغمنية ودَيْر أحمد خليل.

(٢) النقيب بن سعدون البابلي: من قبيلة القرشيين وشيخ المنسكين.

عبدالملك إلى زبيد برؤوس القتلى بعد عصر يوم الثلاثاء ١٠ جمادي الأولى.

رأي صائب أدنى المآرب:

ثم أن بعض الأعيان الملازمين للأمير حسين أشار عليه باللحاق بعبد الملك إلى زبيد فسار إليها في عسكر هائل لا يخطئ المقاتل، وكان نزوله بنخل وادي زبيد بعد أن دخل قرية القرشية[1] وأقام هو وعسكره ثلاثة أيام ينتظرون عسكراً تصلهم، فلما وصلت الزيادة تقدّموا بأجمعهم إلى مدينة زبيد في صبح يوم الجمعة ١٩ جمادي الأولى فوصلوا والمدينة مغلقة فنزلوا خارج باب النخل في عساكر لا تقهر، وجموع لا تحصر، وقد انضم إليه جمّ غفير وناسٌ كثير من العرب وصحبهم الشريف عز الدين والفقيه أبو بكر بن المقبول، فخرج إليهم عبدالملك بن عبدالوهاب وعبدالوهاب بن عامر في عساكرهما فلما التقى الجمعان قاتل عبد الملك وابن أخيه قتالاً عظيماً ثم تعقب بعد ذلك انهزامهما، ودخلوا المدينة وقد أُصيب عبدالوهاب ببندقٍ، دخل قبل عمه إلى الدار الكبيرة ولحقه عمه وصاح به فخرج إليه وسار به إلى باب الشبارق وقد اصطفت له الجنود المصرية ليأسروه فشق الجموع وبذل من جهده الموسوع، وخاض بابن أخيه بعد أن كرّ كرّات البزاة الكاسرة وحمل عليهم حملات الأسود الحاذرة، وقتل منهم عدّة وأبان عن قلب حاضر، وصحبته الفقيه علي بن محمد النظاري والشريف الموزعي، ولما استقر عبدالملك بمدينة تعز لم يلبث أن توفى عبدالوهاب من الصوب الذي أصابه والشريف الموزعي وقُبر عبدالوهاب إلى جنب الشيخ أحمد بن محمد الجبرتي.

وبعد خروج عبدالملك بن عبدالوهاب من زبيد دخلها الأمير حسين

---

(١) القرشية: بلدة في غربي مدينة زبيد، سُمِّيت نسبةً إلى قبيلة القراشية من الأشاعرة.

بعساكره وجنوده وخفقت خافقات بنوده، وزالت عنها الدولة العامرية وتزلزلت المملكة الظافرية زوال الظل من الشموس، وذهب ملكهم كما ذهب بن فالوس، تنوح عليهم ديارهم، وتدل عليهم آثارهم، فسبحان من لا يزول سلطانه ولا يضمحل شانه، فانتهبوها نهباً عظيماً وسفكوا الدماء وانتهكوا المحارم وفعلوا العظائم واحرقت المدينة وحصل على زبيد ما حصل على الحرة بترك بن مريد، ولم تقم ذلك اليوم خطبة لما شغلهم من شمول الكربة، ولما استقر الأمير حسين بالدار أمر بالكف عن نهب الناس وصاح بالأمان، فلم يمتثل أمره أحد من العسكر وأقاموا ينهبون المدينة ثلاثة أيام وسكنوا البيوت وأخرجوا أهلها منها أذلةً. ثم أن الأمير حسين صادر التجار الكبير والصغير، وأفاض على أعناقهم الزناجير، وأمر بالقاضي صفي الدين أحمد بن عبدالواحد، قاضي الشريعة وزنجره، فاستسلم وصبر وسلم واعتبر، فأحسن الله خلاصه بعد ثلاثة أيام، وأرسل الأمير حسين رُسُلاً إلى الفقيه الصالح إسماعيل بن جمعان إلى بيت الفقيه بن عجيل يقدم عليه تحت الحفظ وطالبه بمال كان مودّعاً عنده للشريف العفيف بن سفيان أحد أعيان الدولة العامرية، ولا أصل لذلك، فأنكر فأمر بضربه بالسياط فضُرب يوم الجمعة ٥ جمادي الآخرة وحمل إلى السجن فمات لليلة سابع الشهر من ذلك الضرب، ثم أمر المصادرة لأهل زبيد بعد النهب والحريق والتمزيق والتغريق، فأخذ منهم عشرة آلاف أشرفي[1] وقد كان وعد عسكره أن يسلم إليهم بعد الفتح لكل نفر مائة أشرفي فلما دخلوا طالبوه بما وعد وبالجامكية أيضاً، وهمّوا بقتله، فاحتال وخرج إلى البقعة[2] ليأتي بمالٍ فيعطيهم، فخرج إليها وواجه الأمير

(١) أي عشرة آلاف دينار أشرفي نسبة إلى السلطان الأشرف الغوري. (غاية الأماني ٢/ ٦٤٧).
(٢) البُقعة: ميناء صغير غرب مدينة زبيد وجوار ميناء الفازة.

سليمان[١] أحد زعماء الدولة الغورية، واستخلف على زبيد شخصاً يقال له برسباي[٢] وعضده بابن صاحب جيزان، وكان خروجه من زبيد بعد إقامته ٢٧ يوماً بها يصادر أهلها ويأخذ منهم الأموال ويذيقهم النكال، ثم أقام في الساحل بعد خروجه عشرة أيام.

ثم توجه هو ومن معه إلى بندر زيلع[٣] فوصلوا آخر الشهر، وأصلحوا مراكبهم وشحنوها واستقوا الماء وسرحوا إلى عدن وبها الأمير فرحان الظافري أميراً من قبل السلطان العامري، وكان توجههم أوائل رجب بجموع كثيرة، وقد استخدموا من العرب جملةً وافرة، وجنداً ناصرة، فوصلوا عدن الثلاثاء ١٣ الشهر في إحدى وعشرين مركباً، فحال وصولهم بلغهم أن المراكب توجهت إلى الهند اليوم الأول ورأوا إقلاع المراكب في البحر، فلحقهم الأمير سليمان في جمع من أصحابه، فأدرك المركب السلطاني الهاشمي فقبض الناخوذة[٤] والكراني وجعل فيه ناخوذة وكراني ومعلماً وكتب معه كتاباً إلى الهند يخبر أن البلد قد صارت لهم وأن المراكب إلى جهته.

ثم رجع هو وأصحابه نحو عدن فطرأت بينهم وبين حماة عدن حرب شديدة ورموهم أهل عدن بالسهام والمدافع حتى هزموهم من البندر، ثم تراجع العسكر المصري وحملوا على البندر فدخلوه وانحاز عسكر السلطان

---

(١) سليمان الريسي: والي من المماليك، استولى على زبيد مع الأمير اسكندر المحضرم، لكنه دخل في مشاكل مع بقية الولاة فذهب إلى مصر، ومنها هرب إلى جدّة.

(٢) برسباي: من المماليك الجراكسة، خرجت الحملة من مصر إلى جزيرة كمران بقيادته، وقد استولى بعد ذلك على تعز والمقرانة وقتل عامراً بضواحي صنعاء، وأخذ صنعاء، ولما عاد من صنعاء قُتل بنقيل سُمارة وكان قد استخلف على المقرانة اسكندر المحضرم، مملوك الأمير حسين الكردي، ولما قُتِل (برسباي) انتقل اسكندر إلى زبيد بأموال عظيمة.

(٣) زيلع: جزيرة بالقرب من مصوع.

(٤) الناخوذة: رئيس طاقم السفينة. والكراني: هو الكاتب أو المسجّل بالمركب الذي يكتب ما تحمله السفينة (غاية الأماني، ج٢، ص٦٤٨).

عامر إلى صيرة[١] وبقي العسكر المصري في أسفله يرمون بالمدافع على صيرة حتى أخربوا دائرها.

واجتمع العسكر العامري في عدن وجاءوا إليهم من الباب الذي عند النوبة، وكان البحر إذ ذاك عارياً وحملوا على المصرية وهم تحت صيرة فهزموهم هزيمة عظيمة وقتلوا منهم خلائق كثيرة، وخرج بعضهم من محل آخر فرماهم أهل صيرة بالحجارة، فقتلوا أكثرهم وانهزم باقيهم، وطلعوا المراكب، وكان الأمير سليمان إذ ذاك غافلاً خلف المراكب الهندية التي تبعها فلما وصل وعلم بقتل أخيه أخذه الغضب والحمية، والنفس الزكيّة الأبية، وعاد إلى البندر وقد كان ضعف من كان بصيرة من الجنود العامرية، فلما عاينوا عوده نزلوا عن صيرة ونزلوا عدن، فلما تيقن المصريون خلو صيرة طلعوها ومكثوا فيها أياماً يرمون بالمدافع إلى الدائر المقابل لدار السعادة حتى أخربوا منه جانباً من قبالة دار السعادة إلى روبية القوّة التي في ميدان دار السعادة، ثم حملوا على البندر في الثلث الأخير من ليلة الأربعاء ١٩ من الشهر وتلقاهم أهل البلد وقاتلوهم من ذلك الوقت إلى طلوع الشمس وكاد المصريون يغلبوا على أهل البلد وركزوا سناجقهم على الباب الذي خربوه واسفوا أهل البلد وساءت ظنونهم ثم حملوا على المصرية حملة صادقة كان فيها النصر وقتلوهم قتلاً ذريعاً وأخذوهم أخذاً شنيعاً، وأخذوا السناجق المركزة على الدائر، وما سلم الأمير سليمان من الهلاك إلاَّ على جهدٍ جهيد، وأمر شديد، وتحصنوا بالمراكب بعد أن دفعوا بها مدافعهم وآلاتهم، وأقبل أخو السلطان عامر عبدالملك بن عبدالوهاب مغيراً على عدن ليلة الجمعة ١٣ لشهر رجب الفرد.

ولما تحقق المصريون وصوله إليها أصبحوا يوم السبت راجعين من

---

(١) صِيْرَة: بكسر فسكون ففتح، جزيرة ترتبط بمدينة عدن من ناحية الشرق، ما بين جبل حُقات وجبل المنصوري، وفي أعلاها جبل به قلعة حصينة.

حيث جاءوا ومقطعين من الماء فبلغوا إلى رُبَاك[١]، ونزلوا جماعة يستقون، وقد أعد الأمير فرحان كميناً هناك فثار الكمين فقتل منهم أربعين نفراً، وكان في البندر أربعة مراكب فأخذوها عند انصرافهم وساروا وانصرف منهم مركبٌ.

وأما باقي الجند بعد خروج الأمير حسين من بندر زبيد أمروا عليهم برسباي وزفوه، فمهد برسباي البلاد وضبط العساكر وأقام بزبيد إلى يوم الثلاثاء ٣ شعبان، وأمر بنصب الخيام خارج باب الشبارق وأقام هناك خمسة أيام بجميع الجنود وعقد الألوية والبنود، ثم توجه بهم إلى مدينة حَيْس يوم الأحد ٧ الشهر وأخرج صحبته المدافع الكبار والصغار، فلم تكد تسير في البر فردوا أكثرها وسار حتى بلغ مدينة حيس وضرب خيامه فيها بينها وبين قرية السلامة[٢] وفي وقت إقامته بباب الشبارق أتاه الخبر بقتل الفقيه أبي بكر بن المقبول، قتله الواعظات[٣] في إثنى عشر من الجراكسة.

ولمَّا رجعت العساكر المنهزمة من بندر عدن بلغهم خروج الأمير برسباي إلى الجهات اليمنية فعادوا إلى جهات جدّة وسار الأمير برسباي بمن معه إلى جهات مَوْزع فأخذها ودخلها بعد أن صالحه صاحبها الشيخ عبدالله بن سلامة على مال دفعه إليه على ألا يتعرض لأهلها بنهب ولا تشويش، فلمّا دخلها لم يجد فيها أحداً وظن أن في بيت الشيخ عبدالله ودائع للناس فأمر بنهبه، ونقض العهد، وقَتَل مُقدم العسكر الذي معه، ثم خاف على نفسه بعد قتله فرجع زبيد ودخلها يوم الأحد ٨ رمضان.

وأما السلطان عامر فلما بلغه خبر الجراكسة ودخولهم زبيد وهزيمة أخيه وقتل إبنه وكان في المقرانة، توجه إلى مدينة إب ثم توجه نحو زبيد ثم

---

(١) رُبَاك: بضم ففتح، منطقة ساحلية غربي بحر التواهي من مدينة عدن.

(٢) السلامة: قرية في شرقي مدينة حَيْس.

(٣) الواعظات: بطن من قبائل عك يسكنون في واديَ مَوْر.

انتقل إلى القوزين[١] فصام رمضان وعيّد عيد الفطر هناك ثم سار إلى زبيد، فلما تحقق المصريون ذلك طلبوا الصلح وأرسلوا رسلاً صحبة القاضي أحمد بن عمر، فلما اجتمعوا وسمع السلطان عامر كلامهم كاد أن يميل إلى ذلك فأشاروا عليه بعدم القبول وأوقعوا في خاطره أن طلب المصريين الصلح مكيدة، فأعرض السلطان عن ذلك، وكان هذا الرأي هو الموقع في حياض المهالك، نسأل الله الحماية والسلامة في الظعن والإقامة، ورد الرُسُل خائبين وأمسك القاضي عنده ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ثم سار عامر إلى التُريبة[٢] وجعل محطته غربي القرية وخرج المصريون يوم الأربعاء ٩ شوال وكان بينه وبينهم وقعة عظيمة قتل فيها جماعة منهم، ورجعوا إلى زبيد بعد مغرب ليلة الخميس.

ثم يوم الخميس كانت بينه وبينهم وقعة أعظم من الأولى وقاتل عامر في ذلك اليوم بنفسه وولده أحمد وولد خاله الشيخ محمد بن أحمد بن عامر وعبده فرحان، وقاتلوا قتالاً عظيماً، وانكسر عامر آخر ذلك النهار والسبب في ذلك أنه كان في المعركة ما شعر إلا وقد هجم عليه المصريون ونهبوا جميع الأموال والذخائر والعدد، ورجع بمن معه من الجهة التي جاء منها من غير اكتراث ولا إظهار خوف، ولم يلحقه أحد من الجند المصري لانشغالهم بالنهب وخوفهم أن ترجع الكرة عليهم، وانتهى السلطان في هزيمته إلى محل يقال له عُسَيْق[٣] فوقف فيه إلى أن تراجع باقي الجند، وسايرهم إلى مدينة تعز ودخلها في ١٦ شوال، وأقام بها، ثم أقام الجند المصري بزبيد إلى يوم الثلاثاء ٢٩ شهر ذي القعدة وخرجوا إلى جهة حصن الشريف وما إليه، ولم

---

(١) القوزين: موضعان بجوار زبيد ؛ القوز الكبير والقوز الصغير.

(٢) التُريبة: تصغير تُربة، قرية كبيرة بالقرب من مدينة زبيد من الجهة الشرقية الجنوبية. وهي من بلاد الأشاعرة.. أنظر كتاب: (معجم البلدان والقبائل اليمنية).

(٣) عُسَيْق: بضم ففتح فسكون ؛ بلدة من مديرية مقبنة في غربي تعز جوار قرية الغارضة ومن مركز العبدلة. وهناك مناطق أخرى في اليمن تحمل ذات الاسم (أنظر في المعجم).

يظفروا بشيء ورجعوا إلى زبيد في ٦ ذي الحجة الحرام، وأما السلطان عامر فلم يزل مقيماً بتعز إلى أن طلع إليه الجند كما سنذكره.

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة:

فيما نجم نجم الهلكة على السلطان المظفر عامر وانشبت فيه المنية الأظافر، وهوى نجمه واندرس اسمه، وذهب ملكه وانتثر سلكه، وأذاقه الله ما أذاق مروان في بوصير، وإلى الله المصير. فتوجهت الأجناد المصرية والعساكر الغورية في آخر محرم إلى تعز وحطوا عليها يوم الجمعة ٦ صفر، فلما تراءا الجمعان ولىّ السلطان عامر من غير قتال ولا نزال منهزماً إلى جهة إب، ودخل المصريون تعز، وأذهبوا ملك عامر والعز، وأخربوا دار السلطان ومالوا إلى المدينة فأخربوها ونهبوها وغادروها كأن لم تغن بالأمس، فبُعداً وسحقاً لمن عرف الدنيا ومصيره الرمس، وقبضوا حصنها وصادروا تجارها، وفعلوا بها أعظم مما فعلوا بزبيد.

ووقف السلطان بمدينة إب أياماً، ثم أن الأمير برسباي أقام بتعز الأمير قباني وقلده أمورها، ثم توجه ومن معه إلى المقرانة فخرج السلطان من إب مبادراً إليها، فسبقه فأخذ نساءه وحمل ذخائره وأمواله وتوجه إلى جهة الخلقة[١] وأقام هناك.

وتوجه العسكر المصري إلى المقرانة فانتهبوها وأخذوا ما بقي في الخزائن من الأموال والذخائر، وكانت جملة مستكثرة، وظفر الأمير برسباي بجماعة كانت عندهم ودائع للسلطان فأخذها منهم، ثم أنه أخذه العجب بنفسه وظن أن لن يقدر عليه أحد فتوجه نحو آل عمار[٢] فاجتمعوا عليه وأمدّهم الله

(١) الخَلَقة: قرية من مركز ظُلُم وأعمال مديرية النّادرة.

(٢) عَمَّار: بفتح فتشديد: مركز إداري من مديرية الرّضمة يُعْرف اليوم باسم "مركز أزال"

بنصره فقتلوه وقتلوا معه عصابة من قومه وعسكره، ثم أن الجراكسة ولوا عليهم رجلاً يقال له الاسكندر فأقام في المقرانة أياماً وظفر بالفقيه عمر الجبرتي وكان لعامر مضحكاً، فدله على دفائن في القصور لعامر، ودنانير ودراهم وجواهر وغير ذلك من الذخائر، فقسمه بين جنوده ثم أمر بخنق الفقيه المذكور، فخنق، ثم توجه إلى جهة صنعاء، وكان بينه وبين السلطان وقعة قتل فيها عدّة من الأتراك وأشراف جازان فلما علم السلطان بذلك استخفه الفرح وانزاح عنه الترح وتبع الجند المصري إلى صنعاء فلما علموا بوصوله قصدوه قبل أن يحط أحماله وكانت بينهم وقعة عظيمة وثبت أخوه عبدالملك ثباتاً يحيّر العقول يوم الخميس ٢٢ ربيع الآخر[١] ثم انه رُمي ببندق فأسقط ميتاً لا تحميه جنود، ولا تحفّه بنود، تسفى عليه الرياح، وتذهب برواه مرور العشي والصباح، فلما رآه السلطان قتيلاً طاش لبُّه وجزع قلبُه، وولى مهرولاً يسعى على قدميه، ويضرب من الندم صدره وكفّيه، فلقيه في الآكام المقاربة لنُقم رجل من سَعْوَان[٢] فعرفه ودنا منه وأسرهُ وتوجه به إلى بعض الأجناد فاحتز رأسه وقطع أنفاسه، وترك جسده ملقياً تلفحه الهاجرة، وتجانبه الذئاب الحاضرة، يفترش التراب بعد الأرائك، ويتضمخ بالدم بعد المسك العابك، فكأنه ما رقي على الأسرة، ولا حوت أضلعه المسرّة، ولا خضعت له الأكابر، ولا شرّفت باسمه المنابر، فقبحاً لحالٍ ساءت عواقبها، وتباً لدولةٍ ختامها نوايبها:

مـا لليـالي أقـال اللهُ عثرتنـا ... من الليـالي وخانتـها يَـدُ الغـير
تسر بالشـيء تنـوي أن تقرّبـه ... كالشوك ثار على الجاني من الزّهَرِ

---

(١) ابريل / مايو ١٥١٧م.
(٢) سَعْوَان: بفتح فسكون ففتح: منطقة في شمال مدينة صنعاء.

وكان قتله ضحى الجمعة ٢٣ الشهر، وكان قصده ذي مَرمَر[1] لأنه في حوزته وقبضته فحال دون ذلك المرام ورود الحمام، وأسر في ذلك الشهر ولده أبو بكر وولد أخيه عامر بن عبدالملك. وفي السلطان وفي أخيه يقول بعض العلماء شعراً:

أخلاي ضاع الدين من بعد عامر
وبعد أخيه أعدل الناس في الناس
فمذ فقدا والله إننا
من الأنس والسلوان في غاية الياس

وفيه أيضاً :
تحطم من ركن الصلاح مشيّدٌ
وقوّض من بنيانه كل عامرِ

وفيه أيضاً:
لم نشاهد لعامرٍ قط فيمن
قد رأينا من الملوك نديدا
عاش في ملكه سعيداً حميداً
وتوفىّ برّاً تقياً شهيدا

(١) ذومرمر: حصن مشهور في وادي السِّر، من مديرية بني حشيش، بالشمال الشرقي من صنعاء بمسافة ١٥ كيلاً.

بوَّأ الله روحه جنة الخلد
وأعطاه من رضاه المزيدا
فلقد كان للوجود صلاحاً
ولدين الله رُكناً مشيدا

ثم دخل الجند المصري صنعاء وساءَ منهم بهم صُنعا، غادروا تجارها وأهانوا أخيارها وقتلوا أجنادها وحماتها وجيادها، قتلاها فوق ألف وخمسمائة. ولقد حدَّثني من أثق به عن رجل من أعيان صنعاء أنه شاهد الأجناد المصرية قد سخروا عدّة من أهل صنعاء وحملوهم دنان الخمر، فإنه عاين من ذلك فوق مائة دن تحمل على أعناق الرجال قهراً، ثم اصطفوا أموال الأمير علي بن محمد البعداني وجمعوا من الذخائر والأموال ما ثقل حمله، وقل من تفصيله، ويعجز عن قدر تجميله.

ولما استقر الجراكسة بصنعاء تحرّك الإمام شرف الدين لنصرة الدين، والقيام بسنة سيد المرسلين وطلع من محروس بلاد حجة في ربيع الآخر وقصد حصن ثُلا، ودخله يوم الثلاثاء ٢٢ من الشهر، وفي حصنها الليث الدودحي والياً من قبل عامر، وحدّث المطهر بن الإمام أن الذي أطلع الإمام إلى ثُلا من حجة هذا الرجل الوالي، وكان بعد ذلك من خواص الإمام وأنصاره، ومن أهل وده وأسراره، ولما استقر الإمام بحصن ثلا وطلع قمره المنير على كل الملأ، وطار ذكره في الآفاق اليمنية، وظهرت آيات فخره العلية، نما إلى الجراكسة بصنعاء استقرار الإمام في المعقل المحروس، ثارت فيهم حفائض النفوس، وعلموا أنه مهما دام سكونه بذلك المكان، يظفر بالملك دونهم والسلطان، مع ما قد عرفوه من فضله ونبله، ورجاحة رأيه وعقله، وسمو شرفه وأصله، فتوجهوا نحوه، وحطوا بحوشان[1] تحت عقاب

(١) حَوْشَان: قاع فسيح تحت مدينة ثلا من جهة الجنوب، يمتد إلى مدينة شام كوكبان.

ثلاء وأرسلوا إلى الإمام شرف الدين رسولاً ودار بينهم السفير على أنهم يبذلوا الصلح للإمام ويبقى بمحروس ثلا وهم في محروس صنعاء وشرطوا مع ذلك الإتفاق بالإمام، ويتفاوضوا فيما يصلح للأمة ويكشف الغمة، ولهم بذلك قصد لا يغرب عن ذوي العقول، ولا من عرف المبادئ والمراجع في المقول، وكاد الإمام ينخدع لمقالتهم وأهمَّ بمواصلتهم، فلما بلغ باب الحديد وقد اجتمع الناس لرؤيته، وازدحم الجم الغفير لخرجته، دنا منه الليث الدودحي وأسرَّه شيئاً وكأنه قال له: ما الثقة بهذه الفرقة التي ما برحت تنقض العهود وتخالف بنكثه رضاء المعبود، وقد علمت ما تقدمت من أفعالهم وكذب أقوالهم، فالحزم في ترك العزم على موافقتهم ومواصلتهم، وأنا أتولى الجواب، ونستمد من الله الصواب. وأشرف على الناس وقال: أيها الناس إن مولانا الإمام قد أنثنى عن ذلك المرام، واستخار الله تعالى عن مواجهة الجراكسة، فانصرفوا رحمكم الله بنفوس آيسة فمن أراد الجهاد مع الإمام دخل ومن أراد الانفصال انفصل، ولما خاب سعي الغورية بظهور خبث الطوية طلعوا إلى البغيرة للمحاصرة المعروفة اليوم بالناصرة[1] وما برحوا على ذلك ليلاً ونهاراً وسرّاً وجهاراً، ثم حملوا على باب الحديد واستفرغوا بأسهم الشديد فأيّد الله أصحاب الإمام فدافعوهم أشد المدافعة، وكانت قوة الله المانعة، ورموهم بالنبل والحجارة فأثخنتهم جراحاً وزادتهم ابنراجاً.

عادة نبوية وفضيلة علويّة: وفي خلال محاصرتهم لحصن ثلا المحروس، وإحاطتهم بجانبه المأنوس، وصلهم خبر صحبة رسول وصل من الجهة المصرية إن سلطان الإسلام، ومالك أزمة الأيام، صاحب العز والنصر، والبطش والقهر، السلطان سليم خان، قد أخذ مصر قهراً وعنوة، وأوهى تلك

(١) الناصرة: جبل وحصن ملاصق لحصن جبل ثلا من جهة الغرب، وهو أكثر ارتفاعاً من حصن ثلا. إلا أن حصن الناصرة –اليوم– صار خارباً كما أن الناس أخذوا يخدون الجبل ويعملون على جرفه وهدمه وجلب أحجاره إلى صنعاء على شكل حصي يستخدمونها في عملية البناء.

القوة، وأن الملك قانصوه الغوري قُتل في المعركة، أذهبته سيوف السلطان المهلكة، وأن الخليفة الذي استخلفوه، وعلى الجهاد استحلفوه، المسمى طومان باي صُلب في باب ذويلة، وعانق ويله، فخفقت قلوبهم، وثارت كروبهم، وبان فشلهم، وخاب أملهم، وكان قتل هذا الملك المصلوب، والرئيس المغلوب في ١١ من ربيع الأول، وقد كان قبل ذلك لما جرت الحرب بينهم وبين الإمام رفعوا الأمر إلى الأمير الاسكندر إلى صنعاء وطلبوا منه زيادةً إلى عسكرهم فأرسل إليهم بثلاثة آلاف رجل من الترك وجعل عليهم سردار عبدالملك بن محرم القيسي، وكان مناصراً لهم في اليمن، ومقاصداً في الفتن وطمع أن يملكوه ما كان لبني طاهر من الحصون والبلاد، والطارف والتلاد، ولما بلغهم خبر مصر وفتحها، وتوضح لهم حال شرحها، سُقط في أيديهم وراموا الخلاص من الملازمة والمقابلة والمصادمة، وكاتبوا الإمام على أن السيد عبدالله بن وهاس الحمزي صاحب ظُفر[1] وحسن بن عبدالله بن إسماعيل يتفقان بالإمام، فأجابهم إلى الاتفاق، وخاضوا في ترك المنازعة والشقاق، فارتفعوا من ثلا صاغرين وولوا عنه مدبرين، ودخلوا صنعاء في ٢٥ جمادي الأولى.

ثم أن الأمير الاسكندر خاف أن يظهر ما جرى على ملكه، من انتثار سلكه، إذا بلغ العلم أهل صنعاء ويكون ذلك أقوى الأسباب في انتهاك حرمته، وذهاب دولته، فجمع الناس إلى الجامع الكبير وأعلمهم باستيلاء السلطان سليم خان على مصر وسلطانها واستقراره في إيوانها، وخطب له على منبر صنعاء واستظهر بانتسابه إلى طاعة السلطان سليم، ثم خرج من صنعاء بأكثر الجراكسة، ونشر أعلامه المتكوسة لا التاكسة، في ١٣ جمادي الآخرة مخذولاً وشرع من في صنعاء من الجراكسة بعد خروج الاسكندر في توجيه

(١) ظُفُر: بالضم ، قلعة في بني سبأ من مديرية يريم، وأعمال محافظة إب.

الغزو إلى مخاليف صنعاء ونواحيها فخرجوا إلى بني بهلول[1] وفي صحبتهم الأمير أحمد بن حمزة ومحمد بن نهشل وبن عمر فانضمت القبائل، وكثرت العواسل، فهزموا الجراكسة هزيمة فاضحة، محزنة فادحة، قتل فيها عدة وقتل الأمير أحمد بن حمزة وابن عمه محمد، ورجعوا إلى صنعاء بضعف مع من بقى من الجراكسة وقد قل ناصرهم، وضعف مؤازرهم، فمالوا عليهم أهل صنعاء ميلة رجل واحد، وفاجأوهم في المراقد، وأتاهم بأس الله وهم نائمون، ودارت عليهم كؤوس المنون، ولم يبق غير فرقة يسيرة، وعصابة حقيرة، التحت إلى القصر، وفزعت إلى الحصر، وكانت الوقعة بهم في الليلة المسفرة عن صباح الأربعاء ٥ شهر شوال.

ثم بعث أهل صنعاء إلى الإمام شرف الدين رسولاً يستنهضوه للوصول فتوجه على كاهل السلامة، ووصل إلى نقيل عَصُر[2] وخرجت صنعاء بأفلادها، وحيته بأعيانها، وبايعوه على النصرة والحماية، والطاعة والرعاية، فدخلها قبل الغروب يوم السبت ٨ شوال، وكانت طريقه إلى الجامع المقدس، ومحرابها الأقدس، وصلى المغرب والعشاء وطلع إلى دار الشريفة بنت الحسن، وقد منحه الله غاية المنن، فاستصرخ الجراكسة المحصورون بالأشراف آل المنصور فوصلوا صنعاء يوم الأحد ٩ شوال في ثمانين فارساً رئيسهم الأمير محمد بن عبدالله الشويع وأراد أن يمدّهم بنفقةٍ وطعام، فلم يبلغ ذلك المرام، فلما أعيته الحيلة، وخذلته القبيلة، طلب الاتفاق بالإمام، فأسعده إلى ذلك المرام، فكان من كلامه أن معنا مراسيم منك بنصف البلاد، قال نعم كان ذلك بشرط أنا نحيط بصنعاء جميعاً ونخرج الجراكسة وأما الآن فقد ملكناها من غير لا زيد ولا عمرو، وذلك فضل الله وله الأمر، فعاد الشويع مهموماً،

---

(١) بنو بهلول: من مديريات محافظة صنعاء، تقع في الجهة الجنوبية من مدينة صنعاء بمسافة نحو ٢٢ كيلاً، ومركزها مدينة غيمان الأثرية.

(٢) نقيل عَصُر: جبل يطل على مدينة صنعاء من جهة الغرب.

محزوناً محروماً، ثم أنه عاد منجداً للجراكسة الأمير حميضة بن الحسين، وكان من أهل الفراسة والبسالة، في خمسين فارساً والشويع منتظر له في بلاد همدان، فاجتمع بحميضة وتوجها نحو صنعاء في مائتين وثلاثين فارساً ومرادهم تخليص المحصورين فلم ينل ما أمل، ورجع بخيبة الأمل، ثم عاد المرة وعوض الكرة واستجدوا الرجال وعضدهم الداعي بن الأنف بجمع كثير من همدان، وقد كان حميضة استصحب حباً ونفقة للجراكسة المحصورين، وتقدموا الأشراف إلى سيا الحاجر بين الجراف وصنعاء والإمام محمل في حصر الجراكسة فطلب الشويع الاتفاق به فأسعده إليه فاتفقا على حيث لم يتم ولم يسعده إليه.

ثم أن الشويع وحميضة دبّرا في خلاص الجراكسة بكل حيلة، وتوسّلا بكل وسيلة، فما تمت لهم إرادة، ثم آل الأمر إلى أن تم الخبر بين الإمام والشويع بخروجهم إلى يد الإمام وعلى حكمه بواسطة الشويع والدويدار من أعيان الجراكسة في ٢٥ من شوال.. ومما قاله البليغ موسى بن بهران الصعدي(١) يهنئ الإمام باستيلائه على مدينة صنعاء واستقرار ملكه فيها.. وجعل أولها غزلاً رقيقاً أحببت إيراد شيء منه لرقّته وشيء من المدح وهي:

بات سميري والبرايا هجود
بدرٌ تجلاّ في ليالي السعود
ما كان أحلى سمري عندهُ
حتى كأنّي في جنان الخلود

---

(١) موسى بن بهران الصعدي: هو الشاعر موسى بن يحيى بهران التميمي اليماني، أصله من البصرة، وولد بصعدة، وتوفي بصنعاء في الطاعون سنة ٩٣٣هـ، له ديوان شعر.

لمقلتـــي فـــي خـــدّه جَنّـــةٌ
محفوفـــةٌ بالنـــار ذات الوقـــود
يـــا موقـــد النـــار بقلبـــي متـــى
تطفـــي لظاهـــا برضـــاب بـــرود
قد كنـــت أولـــى مـــن أراك الحمـــا
بالرشـــف لـــو أنّ بخيـــلاً يجـــود
أو لـــوْ قضـــى بـــالعدل مـــا بيننـــا
قاضٍ وقـــامت لـــي عليـــك الشـــهود
عجبـــتُ مـــن ظبـــي غريـــر إذا
رنـــا بعينيـــه أمـــلت الأســـود
لـــم أدر أيـــن الثغـــر مـــن عقـــده
لمـــا تســـاوى ثغـــره والعقـــود
يا ســـاحر الأجفـــان واللحـــظ لـــو
قابلت موســـى يـــوم حشـــر الجنـــود
غلبـــت بـــاللحظ عصـــاه ولـــم
تخـــرّ أهـــل الســـحر منـــها ســـجود

وما برح يرتع في هذه الحدائق ويجني من زهر هذه الشقائق حتى خـرج إلى المدح فقال:

جاري مـــن الجـــور إمـــام الـــهدى
أكـــرم مـــن رفّـــت إليـــه البنـــود

خليفة الرحمن في أرضهِ
مبارك الوجه كريم الجدود
قالت له الأيام إذ أقبلت
ما أحسن الوصل عقيب الصدود
وليست الدنيا له بغية
ولو بدت في زيّ خودٍ خرود
وإنما قام لنصر الهُدى
بهمّةٍ ما برحت في صعود
فأهلك الباغين حتى ثووا
واستبدلوا بعد القصور اللحود
وأصبحت صنعاءُ من عُجبها
ترفل في مستحسنات البرود
فقل لمولانا إمام الورى
أكرم ما سارت إليه الوفود
يا شرف الدين وُقيت الردّا
ودُمت تحمي بالحداد الحُدود
لا غرو إن سدت جميع الورى
مثلك يا بحر الندى من يسود
فضلك مثل الشمس مشهورة
ليس لها من مشبه في الوجود

مـــا أحـــد والاك إلاّ عـــــلاَ
وأشـــرقت أيامُـــهُ وهـــــي ســـودِ
لـــو ثعلـــب كنـــت لـــه عـــاضداً
قـــام علـــى الليـــث بسـيفٍ وعـــود
لو كنـــت فـــي أيـــام عيســـى لمـــا
أظـــهرت البُـــهتَ عليـــه اليـــــهودِ
أو كنـــت فـــي أيـــام عـــادٍ لمـــــا
عـــادت نبـــيَّ الله ذا الفضـــل هـــود
وصـــالح لـــو كنـــت عونـــاً لـــــه
مـــا عقـــر الناقـــة أشـــقى ثمـــود
فيـــك مـــن الرحمـــــن ســـبحانهُ
ســـرٌ عظيـــمٌ مالـــهُ مـــن جحـــودِ
أيّـــدك اللهُ ولازلـــــت فـــــي
عـــزٍّ بـــه ترغـــمِ أنـــفَ الحســـود

وقد قيل في فتح صنعاء عدّة قصائد أضربنا عنها طلباً للاختصار. ولمـا خرج الجراكسة من القصر طلبوا الخروج مع من يحميهم من أهل صنعاء خوفاً وذلك لشدة ما كانوا يعاملونهم من العسف وشدة الوطأة، فخرجوا صحبة المطهر بن الإمام شرف الدين إلى المشهد المقدس الذي جنب مسجد فروة بـن مسـيك رضي الله عنه وذلك يوم عيد النحر، وقد أخرجوا معهم كل ما خفَّ مـن النقـد وغيره مما ترك لهم الإمام، فلما بلغوا قرب المشهد فرّوا على ظهور الخيل،

وأراد أهل صنعاء والعسكر إتباعهم وإرجاعهم فمنعهم الإمام، ثم أنهم قصدوا الداعي بن الأنف وكاتبوه فأجاب عليهم أنه لا يأذن لهم في دخول بلاده إلا برأي الإمام فانصرفوا عنه إلى عمران والشويع بها.

وفي سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة: دخلت ذمار وبلادها في حكم الإمام ووصل أعيان أشرافها إليه في سنن الطاعة والدخول في الجماعة، وكان ذلك قبل أن يدخل مدينة صنعاء.

ودخلت سنة أربع وعشرين وتسعمائة:

وفيها اجتمع السيد عز الدين بن الحسن بن المؤيّد[1] والأمير محمد بن عبدالله الشويع[2] وبعض الجراكسة الذين كانوا محصورين في القصر وعقدوا الرأي على الإئتلاف على حرب الإمام، وألا تنقض في نكايته الأحكام، وأغاروا على بعض البلاد مما يلي البَوْن[3] ووقف الشويع في البون، وابن المؤيّد والجراكسة في مُدَعْ[4] ثم أنهم قصدوا ثلا وفيها جماعة من أجناد الإمام فأحربهم أهل المدينة وكسروهم وهزموهم، وقتل من الجراكسة خمسة

---

(١) عز الدين بن الحسن المؤيد: عالم مشارك نجل الإمام الناصر الحسن بن عز الدين المؤيد، وشقيق الإمام الداعي مجد الدين بن الحسن الذي دعا إلى نفسه بالإمامة من صعدة بعد وفاة والده سنة ٩٢٩هـ. وقد ناصره أخوه المترجم له، وقاد له جنوده الموالية له، ثم حدث بينهما منافرة. مولده سنة ٨٨٣هـ ووفاته سنة ٩٤١هـ.

(٢) الأمير محمد بن عبدالله الشويع: من الأشراف الحمزات، وقد حالف المماليك هو والأمير عز الدين بن الحسين؛ تساندهم همدان بزعامة الداعي بن الأنف والأمير حميضة بن الحسين، قريب الشويع، واستطاعوا تخليص المماليك من حصار اليمنيين في صنعاء، وأخرجوهم منها إلى عمران نزولاً على حُكم الإمام شرف الدين وتحت حمايته.

(٣) البون: بفتح فسكون، قاع فسيح يمتد من جنوب مدينة عمران إلى شوابة، ومساحته لا تقل عن ٦٠ كيلاً في عرض ستة أكيال.

(٤) مُدَع: بضم ففتح، حصن وقرية في جبل المصانع الملاصق لجبل ثُلا من جهة الغرب الشمالي. وهو حصن منيع.

وعشرون رجلاً، وحزّوا رؤوسهم وغنموا منهم غنيمة عظيمة وأرسلوا بذلك إلى صنعاء إلى عند الإمام، وما برحوا يخونون في تلك الأطراف، ويتخطفون تلك الأكناف، وناموسهم يقل، وقوتهم تضمحل، ثم أنه بعد ذلك فارق ابن المؤيد بعض الجراكسة وتوجهوا إلى تهامة ولحق أناس منهم بابن المؤيد ورجع الكل خائبين لم ينالوا خيراً ولله الحمد.

وفيها تحرّك عامر بن عبدالملك بن عبدالوهاب الظاهري الأموي على ذمار وأهلها وقصدها وأمر على أهلها بتسليم مالٍ من النقد وعين من أصحابه من يقبض ذلك وهو أحمد بن مسعود، وتوجّه لقصد رداع [1] وفيها ابن عمه محمد بن أحمد بن عامر تحت طاعة الإمام، فأخذت أهل ذمار الحميّة، فدخلوا على أحمد بن مسعود المذكور وتقدم إليه شخص يقال له أحمد بن إبراهيم الخالدي فضربه بالسيف حتى برد، وقيل وجميع من معه، وذلك في يوم الأربعاء سادس شهر رجب من السنة المذكورة.

ذكر نهوض المطهر بن الإمام مغيراً على ذمار: [2] وهي أول غزوةٍ غزاها، ولما بلغ الإمام ذلك وجه ولده المطهر في عساكر كثيرة فدخلها ثم توجه بتلك الجنود المنصورة والعساكر الموفورة نحو رداع لتخليص محمد بن أحمد بن عامر بن عبدالملك، وقد كان أحاط به في قلعة رداع، فلما بلغه توجه المطهر بن الإمام عليه طلب الصلح والهدنة من ابن عمه بواسطة بني النظاري [3] بشروط شرطها محمد بن أحمد بن عامر على عامر بن عبدالملك تمت له، وعزم عامر بن عبدالملك بخيبة أمله، ثم عاد المطهر بن الإمام إلى محروس صنعاء من ذمار ثاني شهر شعبان من السنة المذكورة.

---

(١) رَدَاع: بالفتح، مدينة شرقي ذمار بمسافة ٥٣ كيلاً – انظر المعجم.

(٢) المطهر بن الإمام شرف الدين: كان من كبار أعوان والده الإمام شرف الدين، ولما توفي والده تولى الأمر من بعده.

(٣) بنو النَّظاري: من قبائل رُعَين، وقد كانت لهم الزعامة على جبل بَعْدان في القرن التاسع الهجري، ومنهم وزير الملك عامر بن عبدالوهاب المذكور آنفاً.

وفيها قبض الإمام حصن القصر[١] من أهله.

وفيها قبض الإمام حصن حليل[٢].

وفيها تسلم عساكر الإمام الذين في الشرف حصن كحلان نوسان[٣].

وفيها في سابع عشر شوال توجه الإمام لحصر كوكبان فخرج صاحبُهُ الذي كان فيه وهو عبد اللطيف بن الظافر، وسلم الحصن للإمام من غير تعب ولا نصب، وذلك في يوم الاثنين ٢٠ من الشهر المذكور، ولبعضهم من قصيدة في فتح كوكبان:

فتح الله بالهنا كوكبانا ... لإمامٍ أحيا الهدى وأبانا

إنّ خير الفتوح ما سكن الشرّ ... وأطفى الحروب والنيرانا

بارك الله للإمام وهنّاه ... وبوّاه للمعالي مكانا

وهي كثيرة اقتصرت منها على هذا المقدار.

ودخلت سنة خمس وعشرين وتسعمائة:

وفيها خرج الإمام شرف الدين لحصار مدع وهو في يد آل المؤيد، وذلك في يوم السبت ثاني عشر صفر، وحصره من جميع الجهات، ثم توجه لأخذ قارن[٤] ثم أخذ بلاد الطرف[٥]، وكحلان تاج الدين[٦] وعزّان[٧] وذلك من

---

(١) حصن القصر: لعله يقصد القُص في بني حشيش، كما جاء في كتاب "اللطائف السنيّة" للعلامة محمد بن إسماعيل الكبسي.

(٢) حصن حليل: من حصون بني مَطَر في غربي صنعاء.

(٣) كُحلان نوسان: هو جبل كحلان الشرف في شمال الحابشة من بلاد حجّة.

(٤) قارِن: بكسر الراء، قرية في غربي مدينة عَمْران جوار الطريق الحديثة الذاهبة إلى مدينة حجّة، تتبع إدارياً مديرية جبل عيال يزيد.

(٥) بلاد الطرف: هي جبل الطرف في المحويت.

(٦) كُحلان تاج الدين: وقد يُقال له كحلان عفّار، ويقع في الشرق الشمالي من مدينة حجّة.

(٧) عِزّان: منطقة في جبل كحلان عفار. وما يحمل اسم عزان من بلدان في اليمن هي كثيرة جداً وتُطلق على المناطق المرتفعة ذات القلاع الحصينة – راجع المعجم.

الشريف الذي كان في كحلان من بني المؤيد وهو السيد عز الدين بن الحسن بن الهادي، وفيها نقض العهد الشيخ محمد بن أحمد بن عامر الظاهري، الذي كان برداع وطلع إلى ذمار، وظن أن الإمام قد شغل بحصار مُدَع، وأخذ تلك الحصون التي فتحها الله عليه، فلما عاد إلى صنعاء وجه إليه الجنود وشن عليه الغارات، فهرب الظاهري ولجأ إلى شيخ بني مسلم[١] وهو من أنصار الإمام فأخذ له أمان.

وفيها كان الصلح بين الإمام وأشراف الجوف آل المنصور فارع وحميضة والشويع بعد أن كانوا قد تقدموا إلى بلاد همدان طلباً لحرب الإمام، فلما علموا عدم القدرة طلبوا الهدنة.

وفيها دعى إمامٌ في عر الحيمة[٢] كان مقيماً في مسجد الفليحي[٣] في صنعاء يقال له السيد أحمد بن الهادي[٤] واجتمع إليه الآفاق من القبائل، وبلغت دعوته إلى محروس صنعاء، وفي أثناء الدعوة لخّص الكشاف تلخيصاً أبان عن قلة عقله، وضعف نقله، وأظهر عقائد فاسدة، وأجاز نكاح الواحدة، والعشر والمائة، وأتى بما خرق الإجماع، وانتقل من العِرّ إلى جبل اللوز[٥] فأسره عامل الإمام في تلك الجهة في محل يقال له مَحَالِين[٦] وأمرهم الإمام بدخوله إلى صنعاء مقيداً مركباً على جمل، فدخلوا به على تلك الهيئة، وطافوا به أسواق

---

(١) بنو مِسْلم: جبل غربي مدينة يريم بمسافة ٢٠ كيلاً.

(٢) عِر الحيمة: جبل في الحيمة الداخلية بمغارب صنعاء، يتصل بجبل النبي شعيب. وكثيرة هي المناطق التي تحمل اسم (العر) انظرها في المعجم.

(٣) مسجد الفليحي: من المساجد العامرة في الجهة الشمالية من مدينة صنعاء القديمة – راجع كتاب الحجري: مساجد صنعاء، ص٩٠.

(٤) السيد أحمد بن الهادي: هو أحمد بن محمد بن الهادي بن سليمان بن الإمام يحيى بن أحمد الهادي، كان إمام محراب مسجد الفليحي ثم سار إلى العر ودعا إلى نفسه بالإمامة، ولم يكن أهلاً لها كما يحكي المؤلف ((الكشاف، للإمام الزمخشري.)).

(٥) جبل اللوز: من جبال خولان الطيال في شرقي مدينة صنعاء.

(٦) مَحَالِين: قرية في أسفل جبل اللوز.

صنعاء، ثم سجنه الإمام في مسجد القصر[١]، وذلك في جمادي الآخرة من السنة المذكورة، ثم أطلقه من الأسر ووعظه وزجره وأحسن إليه وكفاه فأظهر التوبة والاستغفار.

ودخلت سنة ست وعشرين وتسعمائة:

وفيها توفى سلطان الإسلام سليم خان بن بايزيد، وتولى السلطان بن السلطان بن الملك المجاهد سيف الله المسلول على الكافرين، ونعمته الشاملة على كافة المسلمين، سليمان بن سليم خان.

وفي المحرم منها خرج المطهر بن الإمام وذلك في يوم الثلاثاء سادس وعشرين من الشهر المذكور قاصداً لجبل تيس[٢] فأخذها واستولى عليها وتسلم حصونها كالأحجل والوقيعين وجَبَى خراجها وأخذ أموالها وعاد ظافراً منصوراً إلى محروس صنعاء، فدخلها يوم الثلاثاء تاسع شهر ربيع الأول من السنة المذكورة في موكب عظيم، وجيش جسيم، وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

ضحكت فرحةً مدينةُ سام وسما قدرها على كل سامي
وتناهى في الحسن غمدان حتى خلته من قصور دار السلام
وتثنّت فيه الغصون اختيالاً وبدا زهرها من الأكمام
وتغنّت أطيارها من سرورٍ بقدوم المطهر ابن الإمام
الفتى الماجد الهمام الذي فا ق على كل ماجدٍ وهمام

---

(١) مسجد القصر: المقصود قصر غمدان في أعلى مدينة صنعاء القديمة، ويقع المسجد داخل ساحة القصر المشهور اليوم باسم: قصر السلاح.

(٢) جبل تَيس: جبل مشهور في المحويت يُقال له اليوم جبل بني حَبْش – بفتح فكسر– وهو من بلد حِمْيَر، وتقع في سفحه الغربي مدينة المحويت. كما قد يُقال له جبل تَضَار.

الذي إن سطا فليثٌ وإن جا　د فغيثٌ على البرية هام
سطوةٌ تترك العزيز ذليلاً　وهباتٌ تغني ذوي الاعدام
ليت شعري لمن تكون التهاني　بالمسرّات والفتوح العظام
لك يابن الإمام أو لإمام الحق　أم أهل مِلّة الإسلام

وهي طويلة تركتها اختصاراً وانجازاً واقتصاراً.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر شهر شوال من السنة تسلم الإمام حصن ذي مرمر من ولاة الظاهر وعُمِلَ فيه موكب عظيم، وموقف وسيم، ولله المنة.. وللفقيه الفصيح البليغ محمد بن الناصر [1] في فتح ذي مرمر يهنئ الإمام من قصيدة:

تم فتح الفتوح والله أكبر　لمُسمىً محروس حصن ذي مرمر
هزم الله وحده كل حزب　وكفى عبده الإمام وظفّر
انجز الله وعده فله الحمد　مع الشكر والثناء المكرّر
ضاعف الله للإمام الكراما　ت وهيّا له الرشاد ويسّر
كان تاريخه لستٍّ وعشرين　وتسع من المئين تهجّر
شاهر الافتتاح في شهر شوا　ل على ماقضى الكتاب المسوّر

---

(١) محمد بن الناصر: فقيه، شاعر.

ودخلت سنةُ سبع وعشرين وتسعمائة:

وفيها ولد على المرتضى بن الإمام شرف الدين في شهر رجب.

وفيها نقض الهدنة الأشراف آل المنصور[١] وكانوا في البَون، منهم فارع بن حميضة والشويع وغيرهم من آل غزّا[٢] وكانوا في عمران، فخرج الإمام وولده المطهر وصحبتهم من آل جودة[٣] الأمير الخطير الناصر بن أحمد بن محمد بن الحسين والأمير بنيان بن صالح بن ناصر بن صالح، فلما تقابل الجمعان، والتقى الفريقان، حمل الأمير فارع بن حميضة على بنيان بن صالح وطعنه طعنة أردته عن فرسه وفارق فيها الحياة فحمل عليه الأمير ناصر بن أحمد فطعنه طعنة أبطلت يده، وحمل الإمام بمن معه، فانهزم الأشراف آل غزّا هزيمة فاضحة وقتل من جموعهم خلقٌ كثير وكذلك من خيلهم، وحاصرهم الإمام وولده المطهر في عمران، وأحاط بهم من كل مكان، فلما ضاق الخناق على الأمير فارع والأشراف الذين معه وصاحب خمر وصاحب القُبّة[٤] خرجوا إلى يد الإمام وعلى حكمه، وخرج معه أيضاً بقية الجراكسة الذين انضموا إليه بعد خلوصهم من صنعاء، فتسلم الإمام الدروع والرماح والبنادق والخيل ولم يُبْقِ لهم شيئاً من ذلك، وحبس الأمير فارع وأخوته في حصن ثلا. وأما الشويع فإنه كان له فرس من عتاق الخيل تسمى الخطلا دنا بها من دائر عمران وقفّزَهَا فوثبت ونجا على ظهرها، وقد كنت أسمع والدي لطف الله يحدث بذلك عن والده المطهر، ولما تيقن الأشراف آل غزا ما جرى من الإمام في البون طلع الشويع بجميع من بقي من أعيانهم وكاتبوا الإمام في الاتفاق، فأجابهم إلى ذلك فاجتمعوا به وقد شاهدوا من قوته

(١) آل المنصور: من الحمزات، وهم آل المنصور بالله عبدالله بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبدالرحمن الحسني المتوفي سنة ٦١٤هـ وهو من أحفاد الإمام علي بن أبي طالب.

(٢) آل غزّا: من الأشراف الحمزات.

(٣) آل جُودة: بضم فسكون، فرع من آل الضُمّين أهل الجوف الذين يرجعون في نسبهم إلى الإمام المنصور عبدالله بن حمزة. قيل لهم كذلك نسبة إلى جدتهم جودة بنت الشيخ أحمد المحبوبي (من المحابيب).

(٤) القُبَّة: بلدة في منطقة خِيار من مديرية خَمر وأعمال محافظة عمران، هي قبة خيار.

الاتفاق، فأجابهم إلى ذلك فاجتمعوا به وقد شاهدوا من قوته ما حير عقولهم، فطلبوا منه هدنة فأجابهم إلى هدنة ستة أشهر لا غير، وعاد إلى صنعاء يوم السبت تاسع عشر ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة.

ودخلت سنة ثمان وعشرين وتسعمائة:

وفيها خرج المطهر بن الإمام لأخذ عمران، فلما وصلها شرع أهلها يحربوه فحمل عليهم بجنوده فأخذها أخذة رابية وأسر من فيها بعد أن قد كان قتل من قتل، وعاد وقد تركها أطلالاً دارسة وخرابات عابسة، وغنم فيها سلاحاً ونقداً وبقراً وغنماً وخيلاً.

ودخلت سنة تسع وعشرين وتسعمائة:

وفيها خرج المطهر بن الإمام إلى ذمار وأخذ أهل شعب المصاقرة[1] قهراً بالسيف، فقتل منهم عدّة وانحصر الباقون وطلبوا الأمان فأمنهم وجعل عليهم مالاً، ثم توجه لأخذ قاهرة عاثين[2] وكانت بيد الأشراف آل المهدي، وعاد المطهر بن الإمام إلى صنعاء يوم الاثنين ثالث شهر جمادي الآخرة من السنة المذكورة، وفي فتح القاهرة يقول السيد محمد بن المرتضى:

كل المعاقل دون حصن القاهره
كالبدر هالتها النجوم الزاهره

---

(١) شِعْب المصاقرة: قرية لقبيلة المصاقرة، من قبائل عبيدة السُّفلى، إحدى قبائل الحداء في شمال ذمار، وشرقي معبر.

(٢) قاهرة عاثين: قلعة حصينة في جبل ضوران آنس من أعمال محافظة ذمار، سميت نسبة إلى قرية عاثين الواقعة في أسفلها، وهي من مراكز العلم القديمة.

هـي كاسمها لكن فتح منيعها
لك آيةٌ يا ابن الخلايف باهره

وهي قصيدة طويلة تركتها لما قدمت من الاختصار.

وفيها تجرّد الصلح بين الأشراف آل المنصور وهم الشويع وأحزابه بعد أن كانوا قد أنووا المصاف، وكان المطهر في تلك الأيام في ذمار على ما ذكرناه، فلما قفل بجنوده وبنوده أصلح الأشراف المذكورين إلى الصلح مدّة عشر سنين ويترك لهم البون قطعة وجبل عيال يزيد، وجعل بذلك قاعدة عليهم حضرها الأعيان من الأشراف والعرب، وأطلق الأمير فارع بن حميضة وأخوته من السجن، وعاد الإمام إلى صنعاء.

وفيها كان الصلح والهدنة بين الداعي بن الأنف وهو حسين بن إدريس بن حسن بن عبدالله بن علي بن محمد بن حاتم بن حسين، وذلك بعد أن أخذ المطهر بن الإمام المصنعة[١] وكان الصلح على أن الداعي يسلم حصن الحجار ونصف الغيل[٢] والسياسة في بلاد همدان جميعها، وعدّل للإمام حصن فدة[٣] وكانت الهدنة عشر سنين أولها شهر رجب من السنة المذكورة، وترك له الإمام الزكاة والعدة والفطرة في مدة بقاء الصلح والهدنة.

وفيها هرب واحد من قوّاد الإمام يقال له ذيبان، وكان مقداماً فارساً شجاعاً، فاختلفت نيّته، وخبثت طويته، وهرب إلى الزاهر[٤]، وحسن للأشراف آل المنصور أن يرسلوه إلى عبدالملك بن محمد الظاهري، وتتحد كلمتهم في

---

(١) المصنعة: قلعة وبلدة في ضلع جبل الأشمور، ما بين عمران ومدينة ثُلا.. وفي اليمن كثير من الحصون المعروفة باسم ((المصنعة)) أنظرها في المعجم.

(٢) حصن الحجار والغيل: منطقتان من بني مكرم، بمديرية همدان صنعاء، قريب من جبل ضَرَوان.

(٣) حصن فِدَّة: بكسر الفاء فتشديد الدال. جبل منتصب في الطرف الجنوبي من وادي ظهر، وهو من بلاد همدان في غربي مدينة صنعاء، بمسافة ٧ أكيال.

(٤) الزاهر: مدينة وحصن في الجوف.

حرب الإمام، فهرب ذلك الملعون وحسّن المنابذة لعبد الملك الظاهري، فحشد جيوشه وتوجه إلى بلاد الإمام ووصل إلى حَبّ[1] وكان صاحبها مائلاً إلى الإمام فجرى بينه وبينهم حربٌ فقُتل ذيبان وفاز بالخسران، وفي ذلك يقول بعض بلغاء العصر:

أرأيت ما صنعت يدُ العدوان
فيمن عصاك ولجَّ في العصيان؟
لمّا عصى ذيبان أمرك واعتدى
حلت عليه عقوبة الطغيانِ
ردَّ المهيمن كيده في نحره
وسقاه كأس منيّة وهوان
يا ويله غرس الجناية فاجتنى
ندماً وباع الفوز بالخسرانِ

وللفقيه موسى بن يحيى بهران في ذلك، ولله دره:

الله أكبر أردى الله ذيبانا
وهدَّ منه إلهُ العرش أركانا
خان الإمام وخان الله خالقه
ولم يزل عاصياً لله خوّانا

---

(١) حَبّ: بفتح الحاء وتشديد الباء، حصن شهير في جبل بَعْدان من بلاد إبّ – راجع المعجم.

رفعتهُ يا أمـــير المؤمنيـــن فلـــم
يقبل وهل يستحق الرفع من هانـــا
ما كان مثلك من يرجـــو نفاعتـــهُ
هل يرتجي ملك للنفـــع شـــيطانا

وهي طويلة وفي إيراد ذلك كفاية، عن بلوغ النهاية، وقد كـــان وصـــل عبدالملك بن محمد إلى الحقل[1] بعد ذلك فلما بلغ المطهر بن الإمام خرج فـــي جيوشٍ لا تعد، وعساكر لا تحد، وقصد ذمار فدخلـــها يـــوم الثلاثـــاء رابـــع وعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة، فلما بلغ عبدالملك الظاهري قدوم المطهر ولاّ مدبراً ولم يعقب، ووصل بعد ذلك ابن عمه الشيخ محمد بن أحمـــد بن عامر الذي كان في رداع مائلاً إلى جهة الإمام مسلماً على المطهر فخلـــع عليه وأركبه على فرس من خيار الخيل وردَّه إلى محله.

وفي يوم الاثنين ثامن شهر شعبان توفي إمام بني المؤيد الحسن بن الإمام عز الدين بن الحسن بن الإمام المؤيد[2] في فَلَلَه[3] وكانت وفاته من الطـــاعون، ودعى بالإمامة بعده ولده مَجْدُ الدين [4]

---

(١) الحقل: يقصد حقل يريم المعروف باسم حقل قتاب أو كتاب، وقديماً بحقل يَحْصُب.

(٢) الحسن بن عز الدين المؤيد: هو الحسن بن عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد، الإمام الناصر، دعا إلى نفسه بالإمامة من كحلان عفار في رجب سنة ٩٠٠هـ (١٤٩٤م)، وقد عارضه عمه صـــلاح بـــن الحسن، وولده علي بن صلاح، وغيرهما. وقد ترك هذا الإمام عدة مؤلفات منها (القسطاس المقبول شـــرح معيار العقول) في أصول الفقه، كما أنه تمم شرح والده على البحر.

(٣) فَلَلَه: بفتحات، واد وقرية في بني جُماعة، بالشمال الغربي من صعدة بمسافة ١٥ كيلاً.

(٤) مجد الدين المؤيد: تولى بعد والده كما هو مذكور، واتخذ صعدة مركزاً له، لكنه توســـع في فتوحاتـــه فاستولى على كحلان والسودة وبلادهم. وسيأتي في حوادث سنة ٩٤٠هـ أنه لما ذهب الإمـــام شـــرف الدين إلى صعدة في صفر سنة ٩٤٠هـ فرّ المؤيد منها إلى الحرجة بمنطقة جازان واستقر فيها حتى توفي بهـــا سنة ٩٤٢هـ.

ودخلت سنة ثلاثين وتسعمائة:

وفيها تحرك الإمام مجد الدين وتقدم إلى كحلان وقد كان والته بلاد السودة وشظب[١] وفيها أمر الداعي مجد الدين بعمارة الشنظوف، وهو ما بين كحلان وبلاد الأشمور.

وفيها استولى المطهر بن الإمام على حصن المُنَقَّب[٢] من بلاد همدان.

وفيها طلع الإمام مجد الدين المؤيدي لتفريج كربة أهل مُدع من الحصار الذي طال لبثه، وعظم مكثه.

وفيها تسلم الإمام بيت غفر[٣] وحصن فدة من الدعاة، وكان المطهر في هذه الفتوحات قائد أعِنَّتها، ومالك أزمتها، وفي ذلك يذكر بعض بلغاء العصر من قصيدة طويلة:

فنقّب الجيش عن أهل المنقب كي
يبدو لهم كل مكتوم ومحتجب
وبالمطهر قام النصر وانتزعت
من الطغام بيوت المال بالغلب
من كان يحسب أن الله يأخذهم
في بعض يوم ويرديهم بلا تعب

---

(١) شَظَب: جبل فوق مدينة السُودة، غربي مدينة خَمر من بلاد حاشد، ولذلك يتم الربط بينهما فيقال: سُودَة شَظب.

(٢) المُنَقَّب: بضم ففتح فتشديد القاف، بلدة في عرض جبل أسود أصم ذي ثقوب عديدة. وفي أسفل الجبل قاع فسيح يقال له (قاع المُنَقَّب) يمتد من شرقي مدينة شِبام كوكبان إلى أسفل مدينة ثُلا.

(٣) بيت غُفر: من قرى همدان صنعاء، في الشمال الغربي منها بمسافة ٢٧ كيلاً، وهي في طرف قاع المُنَقَّب.

كذاك في بيت غُفر قد جرى عجبٌ
فاعجب لطفلٍ لديهم كيف لم يشب
وإن رأيت ديار القوم خاوية
على العروش فدوّن ذاك في الكتب
قد أصبحت فِدّةً لله حامدةً
على تخلصها من حكّةِ الجربِ

وهي قصيدة طويلة.

ودخلت سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة:

وفيها تسلم الإمام شرف الدين حصن منيف[١] وعطشان[٢].

وفيها في ذي الحجة منها غزا القلعة المعروفة اليوم بطيبة فدخل القلعة الخارجية المسماة اليوم طيبة الخارجية [٣] وحصرها وقوى الرتب ثم رجع إلى صنعاء لأجل العيد، وقد كان نصب عليها المجانيق في المحرم من سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة، وكان المباشر لذلك الحصار، والموجه إلى نحوها لفتح الإعصار، المطهر بن الإمام، وكان مما فتح الله به عليه أنه لمَّا قدم الزحّافة إلى قرب دائر طيبة الداخلية تأمل في قطعها إلى دبب قد سدّته الدهور، واعفته العصور، فأمر المطهر بفتحه ففتحوه وبقوة، وأمر بحمل الأحطاب والأخشاب والأحجار وأتوا بها في داخل القطع حتى يبلغ ذلك الكيس منهج الدبب ومع ذلك والعمارون يعمرون لم يصبهم شيء من تلك البنادق المحافظة للقلعة، ولم

(١) حصن منيف: جبل ومنطقة في مركز عاصمة محافظة المحويت.
(٢) عطشان: قرية من ربع همدان، بمديرية همدان صنعاء. تقع بجوار قرية الحزّة.
(٣) طِيْبة: سبق الإشارة إليها وأنها القلعة المطلة على وادي ظهر في شمال صنعاء، ويطلق على القرية الداخلية اسم الكُمَّة. وكان القصد من الهجوم على القرية القضاء على الباطنية الإسماعيلية الموجودين فيها.

يقتل من العمارين إلا واحد من آل مومل[١] وقع فيه بندق في رأسه فمات رحمه الله، واشتد القتال بينهم وبين المطهر وألم بهم الخوف من قبل تلك الغورة التي فتحت وتقوا الدبب، ولما عظم عليهم الخطب، واشتد الكرب، طلبوا الصلح والدخول في الطاعة، والسلوك في منهج الاجماع والجماعة، وأذعنوا بتسليم القلعة وواجهوا الإمام في حصن فدة، ولما واجهوه زجرهم وعنفهم على نقض العهد الذي وضعه فيما بينه وبينهم، فأجاب عليه رئيسهم علي بن جعفر وقال: ما نحن يا مولانا بأول عبدٍ عصى مولاه ولا أمير المؤمنين نصره الله أول من عفى عمن أذنب، وهفى، والعبد في محل الخطأ والزلل، وأنت في محل العفو وسد الخلل، فأذن لهم الإمام بإخراج ما في القلعة ما خلى البنادق والشحنة، ودخلها الإمام يوم السبت بعد صلاة الظهر ثاني شهر جمادي الأولى من السنة المذكورة.

وفيها قبض المطهر بن الإمام على السيد عبدالله بن يحيى بن صلاح الذي كان في صنعاء قبل دخول الإمام وأرسل به صحبة عدة من الأعيان إلى حصن القصر فحبس هناك، وقد كان السيد المذكور رام الخلاف على الإمام وأراد المكر بصنعاء فلم يتم له ذلك وخالفه خياله، وخابت آماله، وفي اليوم الثالث من شهر رجب مات الفقيه العلم العلامة الزاهد محمد بن أحمد بن محمد بن مرغم القاضي.

وفي هذه الأيام أمر الإمام أن القلعة تسمى طيبة، فجرى عليها ذلك الاسم إلى اليوم، واحتفل المطهر بن الإمام بعمارتها فعمرها أحسن عمارة، وجاءت نزهة في أعين النظارة، وكان المطهر بن الإمام بعد عمارتها يعدها من هفواته التي لم يزل نادماً عليها , وقد ذكرت ذلك في إنشاء هذا المختصر.

وفيها توجه المطهر بن الإمام لأخذ حصن حضور المصانع [٢] قصده

---

(١) آل مومل: من همدان.

(٢) حضُور المصانع: هو الحصن المعروف بِحضُور الشيخ، ويقع في غربي جبل ثُلا.

بعساكره ورماحه وبواتره وبنادقه وبيارقه، وأحاط به من جميع الجهات وأصبح الحرب عليه وبات، فلما عيل صبر من فيه وقل، وضعف وذل، طلب الإذعان والأمان من المطهر بن الإمام فأجابه إلى ذلك، واسعده إلى ما هنالك، وجعل له إخراج ما فيه ماخلى السلاح والبنادق والشحنة، وتسلمه يوم الجمعة المبارك ثامن وعشرين شهر شوال من السنة المذكورة، وعملت لذلك بصنعاء وسائر البلاد البشائر والزينة ونظمت الأشعار، فمما قيل في ذلك من قصيدة طويلة لبعض بلغاء العصر:

قل للخليفة من محبٍ وامق
هُنّيتَ يا أزكى البرية عنصرا
فتح الذي حلل الغمام غدت له
تاجاً وثوباً يرتديه ومئزرا
أعني حضوراً فهو أرفع شامخ
يدنو له في عزّه شم الذرى
وأتاك منقاداً مطيعاً تائباً
عما هفى فيما مضى أو قصرا
أدناه صفوتك الهمام مطهرٌ
فاشكر على حسن الصنيع مطهرا
ولكم له من عزمة فخرية
جعلت له صيتاً وشادت مفخرا

فـــالمدح فيـــه لا يـــزال مخلـــداً

والشكر ما هـــبَّ النسـيم مقـــرّرا

وهي طويلة اقتصرت منها على هذا المقدار.

ودخلت سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة:

وفيها فتح الإمام حصن شارح.

وفي جمادي الآخرة من هذه السنة تسلم الإمـــام حصـــن بيـــت نعـــم[1] وجربان[2].

وفي شهر رمضان تسلم الإمام حصن كنن[3] والكُمَيْم[4] وفي هذه الســنة وقع في صنعاء ومخاليفها وباءٌ حدث منه حُمَّى سطر الغب توفى منها خلـــقٌ من العلماء والأعيان منهم القاضي بدر الدين، حاكم الإمام شرف الدين محمـــد بن حسن بن علي النجري، وخرج في تلك السنة دودٌ صغارٌ خضـــر وســود أكلت الزرع والكلأ حتى أخلت الأرض من الخضرة، ولله ما يشاء وله الأمر.

وفيها سلخ ذي الحجة الحرام تسلّم الإمام حصن عزّان المصانع[5]

---

(١) بيت نعم: بفتح النون والعين، قرية في أعلى وادي ظهر، شمال غربي صنعاء بمسافة ١٢ كيلاً. وهي من أعمال مديرية همدان.

(٢) جَرْبَان: بفتح فسكون ففتح. قرية بالقرب من جبل طُوظان، بمديرية همدان صنعاء، على خط الطريق الأسفلتية من صنعاء إلى عمران.

(٣) حصن كنن: جنوب مدينة صنعاء من بلاد سَنْحان.

(٤) الكُمَيْم: بضم ففتح. من أعمال بلاد الحدا، في شمال ذمار.

(٥) عزان المصانع: حصن أعلى جبل المصانع، الواقع غربي جبل ثلا.

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة:

في المحرم منها تسلم رئيس أجناد الإمام شرف الدين المحاصرين لعزان بني عَشَب[١] وهو السيد محمد بن عبدالله الغرباني[٢] حصن بني عشب ودخل في الحكم الإمامي.

وفيها تسلم الإمام وولده المطهر جميمة بني النوّاد.. وقد كانا قبلها تسلما عزّ الطربيين[٣] وفتحت عقيب ذلك بلاد لاعة.

ذكر خروج الجراكسة من زبيد: أمر الأمير حسين قَدْر مائتي فارس إلى موزع وكان عبدالملك بن محمد الظاهري صاحب تعز مالكاً لها في تلك الأيام، فلما بلغه وصولهم موزع غزاهم إليها، وكان الرأي تركهم في موزع، وتسكينهم بذلك الموضع، لكن الادبار قد استحكم على أهل هذا البيت الظاهري وصرفهم عن مناهج الرشاد، ومسالك السداد، وذلك ببركات أبناء النبي، وأولاد الوصي، فلما قصد عبدالملك الجراكسة الذين بموزع لم يشعروا إلا وقد خالطتهم عساكره، وناوشتهم بواتره، وقتل منهم جماعة، وانهزموا في تلك الساعة ورجعوا إلى زبيد في قلة وذلة، وحالة مضمحلة، فلما عاين ما دهاهم الأمير حسين من الذلة والجبن ثارت به الحمية، وحملته النفس العصية، بعد يومين من قفول أصحابه، وعود أحزابه، عوّل على الخروج متجسرّداً لقتال عبدالملك بن محمد إلى صقع داره ومحل قراره، فطوى المراحل بتلك الجحافل، فما شعر عبدالملك المدبر إلا وقد حطوا في ميدان دار الوعد، وسمع جلبةً ذلك الرعد، فخرج لنزالهم وبرز لقتالهم ثم ولاّهم المدبر الدبر بعد أن قتلت طائفة من قومهِ وذهبت أكثر خيله، ثم دخل إلى حصن تعز وخرج منها خائفاً يترقب، ويتلفت أين يذهب، فتبعوا اثره وتصفحوا خبره ففرّ برأسه إلى

---

(١) بنو عَشَب: بفتحات، منطقة في جبل كُحلان عفّار، شرقي مدينة حجة.

(٢) الغرباني: في الأصل: الرياني، والتصحيح من هامش نسخة وزارة الإعلام.

(٣) عر الطربيين: نسبة إلى بني الطربي، مركز إداري من مديرية كحلان عفار.

مضرح[١] وهو أعظم المعاقل وأحسنها، وقد كان الجراكسة عقيب فرار عبدالملك دخلوا تعز واستباحوا ما بقي من محطته وتسلموا الحصن وتبعوه على ما شرحناه وأوصحناه.

ثم أنهم حاصروه في مضرح، وواخاهم وساعدهم عليه ابن عمه طاهر بن عمر بن عامر بن طاهر، ثم أن القبائل اجتمعت وتحالفت في الخلاف على الجراكسة وأن من أوصلهم بطعام أو علف فهم عليه يدٌ واحدة، وجرت بينهم حروبٌ متطاولة، ثم واخاهم أيضاً أعني الجراكسة، محمد بن أحمد بن طاهر، واتحدت كلمته هو وابن عمه طاهر بن عمر وقبضا المقرانة وجُبناً ودمتاً وغيرها من المعاقل، والجراكسة باقون في المشرحة[٢] ما بين المقرانة ودمتٍ وهم يترددون في هذه الأماكن، وقد ضعن من خوفهم الساكن، وفر القاطن، واشتد الحصار على عبدالملك في حصن مضرح ولم يكن له ذخيرة ولا عدة، تدفع عنه الشدة، وقد كان جمع في ذلك الحصن أرحامه ومكالفه، وتالده وطارفه، فأخرجهم من جانب من الحصن لا يعرفه سواه وتمت له النجاة، ثم أنه التفت على خزائنه، وأكثر محاسنه، فأحرق ما أحرق، وفرق ما فرق، من الخوف والفرق.

ذكر غدر: مجانب للتوفيق، لا يليق بحال صديق، وقصد حضرة الشيخ الغيلاني، وكان والياً له في بعض الحصون من تلك الجهة فقبض عليه حال المواجهة، وأرسل الغيلاني في وقته وحينه أخاً له يقال له البهال[٣] إلى أمير الجراكسة وإلى ابن عمه طاهر فبادروه بالوصول، وأودعوه الكبول، وحملوه

(١) مضرح: بفتح فسكون ففتح، حصن في أعلى جبل منقير المُطل على وادي بنا، عِداده من بلاد العود في النادرة، وهو من الحصون المنيعة وليس له غير طريق واحدة، وفيه آثار حميرية وسدود ماء محفورة في أصل الجبل.

(٢) المشرحة: هي ما يقال لها اليوم قرية الشريجين، وهي من قرى مركز الأملوك، بمديرية الشعر وأعمال محافظة إب. والمقرانة عدادها من مديرية السدة. أما دمت فهي مديرية قائمة بذاتها.

(٣) البهّال: لقب عشيرة من قبائل عمّار في بلاد النادرة.

ومكالفه معه إلى جهة خُبان[١]، وفشا في الناس الطاعون فأمر الأمير حسين بعبد الملك فضرب وسطه بعد أن قد كان ناله من العذاب والنكال، ما يقصر عنه المقال، وتركوا مكالفه مع غير أنيس، ولا أمجد رئيس، يجبنهم الليل، ويحدوهم الويل.

ثم أن الشيخ جمال الدين بن الحلي من أهل حجر، وهم حيّ من شرعب[٢] أحد بطون حمير، أخذته الحمية، والنخوة الحميرية، لفّ شملهم المبدّد، وجلى كربهم الأسود، وسار بتلك الحريم والأطفال وفيهم الحرة عائشة بنت السلطان الملك المنصور عبدالوهاب بن داود أخت السلطان عامر بن عبدالوهاب، وأوصلهم حضرة المشائخ بني سرحة[٣] فحمدوا تلك السرحة، وهذه عادة الدنيا، تذهب كما تذهب الأفيا.

من يأت بعدك من ملك يسرّ به

فإنما ذاك بالأحلام مغرورُ

ولما وصل الجراكسة إلى المقرانة، وفعلوا بعبدالملك ما فعلوا، حصل مع أهل صنعاء الرعب والفشل، وطال واتصل، وشاعت الأراجيف، وخامرهم الخبر المخيف، وخرج أكثرهم هارباً، وإلى البراري ذاهباً، وكذلك فعل أهل ذمار وأصابهم ما أصاب أهل صنعاء، وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً، وكان الإمام شرف الدين وولده المطهر في محروس ثلا فلما نما إليهم خبر

---

(١) خُبان: بضم ففتح، صقع معروف من ذي رُعين، بالشرق الجنوبي من مدينة يريم. يُعرف اليوم باسم مديرية الرضمة ومديرية السدة، بمحافظة إب.

(٢) شَرْعَب: واد في الغرب الشمالي من مدينة تعز، وهو قسمان: شرعب السلام وشرعب الرونة، وإلى القسم الأول ينتمي أهل حجر أو ما يقال عليهم اليوم: الأحجور.

(٣) بنو سرحة: قبيلة ومركز إداري من مديرية المخادر وأعمال محافظة إب.

أهل صنعاء وذعرهم واضطراب أمرهم توجه المطهر إلى صنعاء لتسكين روعتها، وإذهاب فزعتها، فدخلها يوم الجمعة في شهر رجب من السنة المذكورة واستدعى من بقى من ساكنيها وعاتبهم على سوءِ فعلهم وعرفهم بما يحصل من ذلك من الوهن وجرأة الخصم إذا بلغه مثل ذلك، ونما إليه ما هنالك، فلاموا نفوسهم الأمارة، ورأوا أن الذي اقترفوهُ عين الخسارة.

وفي أول شعبان من السنة المذكورة وقع الطاعون الذي جرَّع أكثر الأمة المنون، وعم الحاضر والباد، وأفنى أكثر البلاد، وشهر حمامه وحسامه، وبسط في الجو غمامه، وأمطر صوب الحتوف، وأفنى جملة الألوف، وعطل في المدينة الدور، وأخلى القصور، وكان يخرج من صنعاء كل يوم فوق المائة، وكان في آخر يوم من رمضان وخرج من صنعاء سبعة عشر مائة جنازة، ومثلها يوم العيد، ومثلها ثاني العيد، ولم يبق في المدينة إلا اليسير والنزر الحقير، وغلقت الأبواب وأعشبت الطرقات ومات فيه من الأعيان خلق لا يحصى عدّهم منهم إبراهيم بن الإمام شرف الدين أخو المطهر وشقيقه توفي يوم الجمعة من شهر شوال بحصن ذي مرمر وحُمل إلى صنعاء وقبر في حوطة المدرسة التي أبدعها أبوه وعليه لوح مكتوب فيه تاريخ وفاته.

ودخلت سنة أربع وثلاثين وتسعمائة:

وفيها عاد الإمام شرف الدين إلى صنعاء وذلك يوم الخميس رابع عشر شهر محرم، فلما عاين مقبرة باب اليمن، وشاهد ما قد حلها وقطن، من تلك الأجساد الفانية، والعظام البالية، لم يملك نفسه من البكاء فبكى لبكائه من حضر، ورق له من نظر، ثم استرجع واستغفر، وحمد الله وشكر، ودخل من باب اليمن إلى الجامع المقدس صلى فيه الضحى ثم طلع القصر وهو حليف الفكرة، نديم الحسرة، على تلك الوجوه التي ثوت في التراب، وفارقت الأحباب، وسكنت اللحود إلى يوم المآب.

ليس حـــيٌّ علـــى الحيـــاة بباقٍ
غَير وَجْـــه المُـــهَيْمن الخَـــلاَّقِ

وفي هذه السنة المذكورة فتح المطهر بن الإمام بلاد اليمانيـة واسـترجع كنن والكميم، وقد كان غاب فيها أهل تلك البلاد عقيب الطاعون المذكور، ثـم انتقل إلى جهران قاصداً للبلاد الظاهرية فحط في معبر وغزا بـلاد هـداد[١] ونهبها وبسط على صوافيها ونهب أغنام البدو بني ضبيان[٢] الأسناف وقـرى هداد وهي لا تدخل تحت الحصر، وأسر شياطين الأسناف خمسة عشر رجلاً، ولما عاد إلى محطته أمر بقطع أيديهم وأرجلهم، ثم تسلم حصن معسج[٣] مـن السيد صلاح بن يحيى بن علي بن فخر الدين، ثم انتقل إلى معسج وواجهتـه تلك البلاد جميعها ودخل أهلها في طاعته أفواجاً، ولما قرب من بلاد آل طاهر كاتبه الجراكسة الذين كانوا في المقرانة بعد استيلائهم عليها وأنهم داخلون فـي طاعته، منضمون في جماعته، فأرسل لتسليم المقرانة فقيهاً يقـال لـه محمـد جسّار والشيخ أحمد بن هادي المرهبي فوصلاها وقد سبقهما إليها رجل يقال له عبدالغني، من قوّاد عمر بن عامر بن طاهر، وهـو ذاك الوقـت فـي رداع، ووجه عبد الغني المذكور في عسكر ومالٍ وبنادق، فلما وصل المقرانة قبـض على القاضي والشيخ اللذين أرسلهما المطهر بن الإمام وحبسهما وسلبهما، فلما علم بذلك الجراكسة الذين كاتبوا المطهر بن الإمام قبضـوا علـى عبدالغنـي وأطلقوا القاضي والشيخ، وهرب من لدى عبدالغني من العسكر ووصل منـهم جماعة إلى عند المطهر بن الإمام.

---

(١) هَدَاد: بلدة لقبيلة عنس، عِدادها من مديرية الحدا في شمال ذمار.

(٢) بنو ضبيان: من كبار قبائل خولان العالية في الشرق الجنوبي من صنعاء، وهم على مقربة مـن بـلاد ذمار.

(٣) مَعْسِج: بفتح فسكون فكسر السين، وادٍ في منطقة عنس، بالقرب من مدينة ذَمار في غربيها.

وحاصل الأمر: أنه لما بلغ المطهر هذا الأمر توجه وفتح ما لقيه من البلاد العاصية، والأماكن القاصية، من حدود مَعْبَر حتى وصل دَمْت ففتح حصنها وواجهه أهلها، ثم تسلمَ حصن المقرانة وواجهوه الجراكسة الذين كانوا فيها ودخل تحت الطاعة جميع تلك القبائل ودخل المطهر بن الإمام المقرانة يوم الجمعة ثالث عشر شهر صفر من السنة المذكورة، قصد جامعها وصلى فيه صلاة الجمعة وقبض ما فيها من السلاح على أنواعه، ووجد فيها المدافع والآلات العظيمة من النحاس الغصّاني المطعن بالفضة وأنواع الصيني المعتبر وذلك مما خلفه بنو طاهر، ثم انتقل المطهر إلى الفارد[1] وهو من محاسن بلاد أهل عمرو، وقد جلى عنه أهله خوفاً من السطوات المطهرية، والبطشات الحيدرية، فوجد فيه من آلات النحاس ومساغ الذهب والفضة واللؤلؤ والنقد ومن الشخوص التي من البلور المصنوع على أنواعه جملة كافية، وذلك أن آل طاهر حولوا إليه لمَّا دهمتهم الجيوش الغورية يوم ذهاب عامر بن عبدالوهاب، ثم تقدم على أهل عبدالله[2] وقتل منهم جماعة ووجد عندهم من الذخائر والأموال ما وجده عند أهل الفارد، وما برح على ذلك الحال يفتح الصياصي، وتخضع له النواصي، مطيعها والعاصي، ودانيها والقاصي، ثم تقدم إلى جبن يوم السبت ثاني وعشرين من الشهر المذكور من السنة المذكورة وواجه أهل جبل حرير[3] وتلك الجهات ودخلوا في حكمه، وجمع من كتب العلوم في كل فن مالا يكاد يقل حامله وينوء به، وقد كان عامر بن عبدالوهاب أخذها من جميع الآفاق استنساخاً وقهراً، فإنه وجد في غمدان، من الكتب لما استولى على صنعاء شيئا لا يفنيه العد، ولا يجوزه الحد، وأرسل بها إلى تلك البلاد فجازاه

---

(١) الفارد: قرية من مركز آل عمرو، بمديرية دمت، تقع في الشرق الشمالي من حمام دمت، ويقال لها: حقل الفارد.

(٢) أهل عبدالله: مركز إداري من مديرية دَمْت.

(٣) جبل حَرِيْر: سلسلة من الجبال في منطقة الحُصين، بالشرق من الضالع.

الله بمثل ذلك، وكما تدين تدان، سبحان الملك المنان، الذي لا تغيره الأزمـان، ثم توجه إلى رداع بعد تدويخ تلك الجهات وأخذها، وتخريبها وجذّها، حصـر القلعة حق رداع وكان فيها حدث من بقية آل طاهر ومعه عدّة من الجراكسـة، فلما علموا ألا طاقة لهم بمنازلة المطهر وقتاله جنحوا إلـى السـلم والراحـة وسلموا القلعة المذكورة، ثم توجه قافلاً بالطائر الميمون، والملك المصون، إلى حضرة والده منصور الألوية، معمور الأندية، تنثنى أعلامُه من التيه، وتخفـق من بأسه قلوب أعاديه، ويشرق بنور محيّاه ناديه. ولبعض بلغاء العصر لمـا وصل المطهر القصر:

أطـاعك اذعانـاً لـهيبتك الدّهـر
وقـابلك الإقبـال والفتـح والنصـر
نهني بك الأيام يا شـرف الـهدى
فإنك أنـت البـدر والليـث والبحـر
ولست تُهني بـالذي أنـت نـائلٌ
لأنـك فـي الدنيـا وسـكّانها فخـر
إذا مـا رداع ملّكتـك زمامـهـا
فدون عُلاك الشمس والأنجم الزُّهرُ

وهي طويلةٌ اقتصرت منها على هذا القدر.. وقد كان المطهر بن الإمـام قبل عوده إلى صنعاء غزا إلى بلاد عراس[1] من يريم وهي بـلاد الباطنيـة، وقبض فيها على علي بن جعفر الداعي الذي أخرجه الإمام من حصن طيبة ثم

(١) عَرَاس: بفتحتين، منطقة جنوب مدينة يريم، ومتصلة بها.

منّ عليه المطهر بن الإمام وأرسل به إلى والده إلى صنعاء.

وعلى الجملة: أنه ما عاد من سفرته هذه إلا وقد استفتح البلاد من عدني صنعاء إلى أقصى جبل حرير، وأطلع صحبته أبواب المقرانة وفيها صروف الذهب التي كانت في مجلس سقف الذهب بظفار داود[1] التي هي برسم الإمام المنصور، لأن عامر بن عبدالوهاب لما ملك ظفار ودخلها وشاهد حسن هذا المجلس أمر بقلع تلك الأصراف لما أمِنَ الصروف وأرسل بها إلى المقرانة، قال شاعره فيه ذلك اليوم وهو في ظفار:

ما في ظفار ما يُزار وإنما
زرناه إرغاماً لكل معادي

وكان جملة الأبواب التي أطلعها المطهر بن الإمام فوق مائتي جمل وكادت الدنيا أن تكون دار جزاء:

إنما الدُّنيا وما فيها عوارٍ مستردّة.

نسأل الله التوفيق، إلى سواء الطريق، وكان دخوله إلى صنعاء في يوم الاثنين ثامن عشر شهر جمادي الأولى من السنة المذكورة.. وفي ذلك اليوم يقول بعض الفصحاء البلغاء من قصيدة طويلة:

وهنّ أمير المؤمنين ولم يزل
مهنا بفتح ما نوى يتَسَهّلُ

---

(١) ظفار داود: مدينة أثرية في رأس جبل ((العِراقة)) الواقع في جنوب مدينة يَريم بمسافة ١٧ كيلاً، كانت العاصمة الثانية للدولة الحميرية بعد مأرب، ولذلك قد يقال لها: ظفار حِمْيَر.

بفتح حليـــل دونــه فتــح خيــبرٍ
ويقــربُ منــه فتــح مكـــة أول
بفتح رداع بعــد مقرانـــة الأولـــى
علينــا لأمــر الله فيــهم تفضــلُ
عفونا على بعض وبعض تنوشُـــهُ
السباعُ وبعض في الحديــد مكبَّــلُ
وأيّ دمٍ للنـــاكثين عـــــهودهم
وما فيه عقبـــان المطــهر تنــهلُ

ولم نورد من هذه القصيدة غير ما ذكرناه وفيه كفاية.

وفي هذه السنة لما استقر في صنعاء بعد هذه السفرة، وفي غضــون هــذه الكرة، ظهر من خولان الخلاف، وطلب النزال والمصاف، وخرجوا عن طاعــة الإمام، ونكثوا ذلك الذمام، وسعوا في الأرض فساداً، وأخافوا أغواراً وأنجـــاداً، واجتمعت القبائل الثلاث على الضلالة، والسلوك في مجاهل الجهالة، ودخلوا فــي قول الله تعالى علوّاً كبيراً: ((وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيــها فحق عليها القول فدمَّرناها تدميرا))[1] فكتب إليهم المطهر بن الإمام كتاباً يقــول فيه: إن رهائنكم الذين في القصر على شفير التـــلاف، مقرونيــن بتمــام ذلــك الخلاف، فإن أصررتم على العصيان، وصممتم في الطغيان أجرينا فيهم حكـــم الله، وإن عدتم عما نهيتم عنه، ودخلتم في طاعة إمامكم، ومنفذ أحكامكم، عفونــا عن سيئاتكم، واغتفرنا خطيئاتكم، فلما أبلغهم الرسول الكتـــاب، أجــابوه بغــير الصواب، فعند ذلك أمر المطهر برهائنهم وكانوا زهاء ثمانين نفــراً فــي ســن

(١) سورة الإسراء آية ١٦.

التكليف، فقطعت أيديهم وأرجلهم، ولما بلغ ذلك أهلهم سقط في أيديهم، واجتمعوا في ناديهم، وصحّ لهم أن في ذلك العارض بُروقاً مقلقة، وصواعق محرقة، فتحزبوا وحشدوا، وأعدوا واعتدوا، وقد كان قبل قطع رهائنهم، والتوجه إلى مساكنهم، انبرى بعض أشرارهم، والمردة من فجارهم، إلى باب اليمن، وقد أظلم الليل وجن، فأضرم فيه شهابا، وأذكى فيه التهاباً، ففطن له الحماة، فحمق مسعاه، وتبعوه في سواده[1]، فاختفى في بعض وهاده.

وتوجه ذلك الأسد، في العد والعدد، فاجتمعوا لقتاله، وراموا مفاجأة نزاله، فجرت بينهم حروبٌ أفضت عن هزيمتهم، وانحلال عزيمتهم، فأخذ بلادهم، وفتح أغوارهم وانجادهم، ودمَّر ديارهم، وقطع أعنابهم، وأشجارهم، وتركها خاوية على عروشها، كاسفة بقطع غروسها، ولما استأصل بالمغروس والمعمور، تركها خاوية بما ظلموا (هل نجازي إلا الكفور)[2]، ولما تيقنوا ألا مانع، ولا رادع ولا دافع، ولا مناصر، ولا مدافع، سلموا الأمر إليه، ودخلوا فيما حكم به لديه، فقبض من شياطينهم ثلاثمائة نفر أو يزيدون، وأودعهم السجون، وأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، فذعر من بقى وخلف، ونسأل من الله خفي الألطاف.

ثم أنه عرفهم ألا أمان لهم ولا سكون، ولا يدعهم يغرسون ولا يعرشون، حتى يأتوه بمُحرِّق الباب، ولو كان في السحاب، فطلبوه طلب المعدم الدرهم، والجريح المرهم، فوجدوا المريد، على بركة ماءٍ في أقصى وديد[3]، فحملوه إلى المطهر فأمر بأن يحمل إلى صنعاء فتسمر في الباب كفاه حتى تدركه الوفاة.

---

(١) سواده: المقصود سواد جِزْيَر في الطرف الجنوبي من مدينة صنعاء.

(٢) سورة سبأ، آية ١٧.

(٣) وَدْيد: بفتح فسكون ففتح، قرية في شرقي مدينة خَمِر، عِدَادِها من مديرية ذِيبِين، وأعمال محافظة عمران.

ثم عمر حصن يفعان[١] المشرف على كيران، وجعل فيه الولاة من غير تلك البلاد، وحصل به من الشحن ما كمل به الاستعداد، فذلت بعد ذلك خولان، وهكذا عاقبة من بغى وخان، وأخذ منهم الجباية، وعاقبهم على الجناية، وكانوا قبل ذلك لا يكدّر لهم بال، ولا يغير لهم حال.

ودخلت سنة خمسٍ وثلاثين وتسعمائة:

وفيها توجه المطهر والإمام شرف الدين لقبض حصن ظفر بني وهاس، وواجهه أهل تلك البلاد جميعها على اختلاف الاجناس، وذلك في المحرم من السنة المذكورة، ولم أعلم بحادث جرى فيها غير ما ذكرناه.. والعلم كله لله.

ودخلت سنة ست وثلاثين وتسعمائة:

ولم يحدث فيها ما يحمد رفعه، ويحسن وضعه.

ودخلت سنة سبع وثلاثين وتسعمائة:

وفيها تعاقد الشرفاء آل المنصور جميعهم والشريف بن المؤيد واصطلحوا على أنهم حربٌ للإمام وأن الخطبة في صعدة باسم السيد بن المؤيد[٢].

ودخلت سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة:

ولم أقف فيها على أمرٍ يجب تخليده[٣]

---

(١) يفعان وكيران: من حصون بني سحام في خولان العالية، ويقال لهما: الحصنين.

(٢) كان القائم من آل المؤيد – وقتها– هو الإمام مجد الدين بن الحسن بن الإمام عز الدين المؤيد.

(٣) جاء في هامش النسخة: وفيها أكمل الإمام شرف الدين مصنفه ((الأثمار في فقه الأئمة الأطهار)) وشرع في شرح مقدمته.

ثم دخلت سنة تسعٍ وثلاثين وتسعمائة:

وفيها حدث طاعون أقل من السابق إلا أنه سريع الفوت وحيّ الموت.

ودخلت سنة أربعين وتسعمائة:

وفيها فتح الإمام الجوفين وصعدة، ولما فتحت البلاد اليمنية جميعها من باب صنعاء إلى الدارم حدث سببٌ كان فيه تحرك الإمام على صعدة والجوفين[1] وتقدمه على ذينيك الحيين، وهو أن الأمير الناصر بن أحمد قصد حرفة مأرب ومنازعة أهلها، وهم من أتباع الإمام ومن أهل بلاده، وأرباب ولايته ووداده، فسما بالمحطة إليها، وأناخ عليها، فلما علم الإمام لم يقر له قرار، ولا ساعدته في ذلك إناءةٌ ولا اصطبار، فحشّد الأجناد من جميع البلاد وعزم بنفسه نهار الخميس، وكان في مخروس ذي مرمر سادس عشر شهر محرم الحرام من السنة المذكورة، وكانت طريقه بلاد نِهْم وصحبه ولده السيف المنتضى المسلول في يد القضاء، المطهر بن الإمام، فاقتضى نظر الإمام في ذلك المقام، أن ولده المذكور، وسيفه المشهور، يتقدم لقتال الأشراف، ويشهد تلك المصاف، فسبّق الإمام إليهم رسالة يعضهم ويذكرهم فلم تجد فيهم بل زادت في تحزبهم وأرسلوا بالرسالة حق الإمام إلى رئيسهم الأمير أحمد بن محمد بن الحسين، وهو في صعدة، وأصحبوها كتاباً إلى ابن المؤيد، وهو في فلّه، وعقيب ذلك تقدم المطهر بن الإمام يوم الاثنين رابع شهر صفر من السنة المذكورة، فلما تراءا الجمعان في مكان يقال له السواد[2]، وعاين الأشراف تلك البنود والأجناد، حملوا حملةً واحدة انهزمت منها ميسرة المطهر بن الإمام، فثبت في القلب ثبات شمام، وجعل صالح بن أحمد[3] ينادي بأعلى صوته:

---

(١) الجوفين: القصد الجوف الأعلى والأسفل.

(٢) السَوَاد: من قُرى شاكر، بمديرية أرحب في شمال صنعاء على خط طريق نِهم إلى الجوف.

(٣) صالح بن أحمد الجوفي.

مطهر يا طلاّبيه، لا يفوت مطهر لا يفوت، ليُعلمهم أنه قطب رحى الحروب، وهزبرها الموهوب، واختلطت الخيل بالخيل، وثار النقع حتى صار النهار كالليل، ثم انجز الله وعده، ونصر عبده، ورمت البنادق التي في صف المطهر بن الإمام، فأمطرت عليهم مطراً أسبق من غمائم الحمام، بزّ الأرواح، ومزّق الأشباح، فقتل الأمير صالح بن أحمد، والأمير حاجب بن قاسم بن محمد بن الحسين، وأبو شبيه من أشراف الحسنيات، والشريف أحمد بن عبدالله من أعيان آل سليمان[١]، وعدّة من الأشراف تخطفتهم الرماح والأسياف، وانهزموا هزيمة جاوزوا الخراب والعامر، فتبعهم المطهر بجيشه القاهر، ودخل بيومه قرية الزاهر[٢] وذلك في يوم الخميس سابع الشهر المذكور، وصلى فيه الجمعة، وفاز بالأجر والسمعة، وفي ذلك يقول بعض بلغاء العصر من قصيدة طويلة، يمدح الإمام، ويذكر ثبات المطهر في هذا المقام:

قسماً بعدوُ الشوس في يوم الوغا
ما للمطهر غير ذا من مذهب
ما يرهب الموت الذي هو كائنٌ
يوم النزال كأنّه لم يُكتب
ولذاك لم تهدو جفونُ خصومه
أبداً وهل يصفو لها من مشرب

(١) آل سليمان: بطن من قبائل دُهمة، من بكيل، ديارهم في شرقي بَرَطْ العِنان.

(٢) الزّاهر: مدينة وحصن في الجوف، هي اليوم عاصمة إحدى مديريات محافظة الجوف. وفيها آثار حميرية وإسلامية، كما أنها محل سكن أغلب الحمزات من ولد الإمام عبدالله بن حمزة.

كم بارزته الأسـد خشـية كـره
وتفـرّ بيـن يديـه فـرّ الثعلـب
أوما رأيـت وثوبـه مـن غابـهِ
لفريسةٍ لـم يخـش مَـدَّةَ مخلـب
تحدو من الجوفين كـوم سـحابه
حاد من الأجل المطيش المطـرب
أنكث بنو المنصور نـار وميضـه
جهلاً ولو لـم تنكـه لـم تغلـب
طلبت نزال ابن الإمام ولـم يكـن
إلا عليـه ذاك أيسـر مطلـب
طلبت نزال المـوت فـي ميدانـه
يوماً يشيب لهولـه فـود الصبـي
يومـاً تـبرقعت الغزالـة نقعـه
من فوق برقعها الأنيـق المُذهـب
جاءت وقد عقدت بسـوءِ ظنونـها
لقراع ذاك اليـوم يومـاً أشـعبي
فتفرقت مـن حينـها أيـدي سـبا
في الأرض بين مشرّق ومغـرّبِ
ما للمطهر في الـورى إبنـاً ولا
كأبيه يحيى فـي البريَّـة مـن أبِ

وهي طويلة اختصرت من سلكها هذه الفرائد، وانتخبت من سمطها يتام القلائد، ولما زحف الإمام وولده المطهر بذلك العسكر الذي حجب الأفق بالعثير، وشاع في الشام قصد صعدة، وألم بمن فيها وارد الشدة، وداخلهم خوفٌ أذهب الوقار، ولا خوف بغداد، من طوالع التتار. وفي خلال ذلك أن السيد بن المؤيد وجّه كتبه لجمع كتائبه، وشحذ قضبَهُ لقتال محاربه. ولما قربت من صعدة، تلك الأبهة والعدّة، أرسل المطهر بطائفةٍ من العسكر فظفروا بجماعةٍ من قبائل تلك الجهة فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم، ولما قرب الإمام من صعدة أستقبله أهلها وأعيانها، ودخل المدينة سلماً بسلام، لا كلم ولا كلام، وذلك يوم الجمعة ثاني وعشرين من صفر من السنة المذكورة، وجعل طريقه إلى جامع جَدِه الإمام الهادي يحيى بن الحسين[1] وقد كان خرج عنها الشرفاء آل المنصور قبل ذلك بيوم واحد، ولم يعش الأمير أحمد بن محمد بن الحسين بعد ذلك إلا ثلاثة أيام، ووافاه وارد الحمام، وكانت وفاته ليلة الاثنين لخمسٍ بقين من صفر، وانشد الإمام شرف الدين ارتجالاً لما رأى قبر جَدِّهِ الهادي، وأعلن بها في ذلك النادي:

زرناك في زرد الحديد وفي القنا
والمشرفية والخيول الشُّزَّبِ
وجحافل مثل البحار تلاطمت
أمواجهنّ بكل أصيَدِ أغلبِ
من كل أبلج من ذوابة هاشم
وبكل أروع من سلالة يعرب

(١) جامع الهادي: أختطه الإمام الهادي يحى بن الحسين بن القاسم الرسِّي المتوفي سنة ٢٩٨هـ، وهو مدفون في قبره المقابل لمحراب الجامع.

وأعـــاجمٍ تـــركٍ وروم قـــادةٍ
وأحـــابشٍ مثـــل الأسـود الوثّـــبِ
من بعـــد أن حـــال العرانـد بيننــا
وتحزّبــوا حُقبــاً أشــد تحـــزّبِ
وتجنّبــوا نـــهج الرشـــاد ضلالـــةً
وتنكبــوا عنـــه أشـــــدّ تنكّـــــبِ
فأذاقــــــهم ربّ العبـــــاد نكالــــــهُ
في كل معركةٍ يشيب لها الصبـــــي
فيها تـــرى فَلْقــاً رؤوس رؤوســـهم
منّــا بكـــل مثقـــف ومشــــــطّبِ
وكـــذا عـدوّ الله أقتلــــــه ولــــو
قد كان ابنــــي أو شـــقيقي أو أبـــي
فإليـــه صـــدق لجائنـــا ولفضلـــــه
منّا رجاءٌ صــــــار غـــير مخيّـــبِ
مـــازال يولينـــا الجميـــل بحمــــده
وبشـــكره الجـــمّ الكثـــير الطيّـــبِ

وهي أكثر مما أوردناه، تركناها اختصاراً. ولما استقر الإمـــام بصعـــدة دانت له بلادها، وخضعت لديه أمجادُها، وواجهته المواطـــن القريبـــة منـــها، ودخل في طاعته السادة الأعلام آلُ المؤيد، منهم السيد العلامة شمس الديـــن أحمد بن الإمام الهادي عز الدين، وصنوه السيد صلاح الدين بن المهدي بـــن

الإمام عز الدين، والسيد البليغ العلم الأوحد يحيى بن الحسن بن الإمام. ولم يبعد منهم إلا الذي كان داعياً وبضعته من أهله وأقاربه، فقابلهم الإمام بالإجلال والاحترام، والتعريف والإكرام، ثم استأذنوه في العود إلى بلادهم فأذنَ لهم ولم يبقَ منهم غير السيد عماد الدين يحيى بن الحسن، وما برح المطهر يفتح تلك الأكناف، ويدني بسيفه طرّافها والأطراف. ولما زلزل تلك الديار، واخترم من الأعداء موصول الأعمار، ونزح آل المنصور عن تلك الجهات، وتقدموا إلى محل يقال له الحسينيّات[1] وذلك لما جاش حزبهم، وثار ضغنهم، فحشدوا جميع تلك القبائل العاصية، واستصرخوا ساكن الديار القاصية، في عدة الوف، ورماحٍ وسيوف، فقصدهم المطهر بن الإمام، في ذلك العسكر اللهام، فثار الكفاح، ونهلت الرماح، وتعاطت الفرسان كؤوس المنون على غناء الصهيل، من وقت الشروق إلى وقت الأصيل، ثم كرّ عليهم المطهر كالعقاب الكاسر، وحملت معه العساكر، فانكشف الأشراف، عن ذلك المصاف، وما برحت عاملةً فيهم العوامل، وناهلة من ظهورهم العواسل، وقتل منهم ألف قتيل، وأسر ستمائة، ولم يبق إلا القليل. وعاد المطهر إلى مخيم أبيه، في موكب سعد مشهود قُل فيه، ولما استقرنواه، وألقى عصاه بأخذ من عصاه، أمر بالاسارى فضُربت أعناقهم فأصبحوا كنخلٍ خاوية، فهل ترى لهم من باقية، وكانوا ستمائة أسير، وتعرف هذه القتلة بقتلة المخلاف، صارت تاريخاً في الزمان، وسمراً في الأوان، وكان قائد هذه الجنود الأمير ناصر بن أحمد بن الحسين والأمير داوود بن أحمد بن الحسين، وفي هذا الموقف يقول بعض الفصحاء[2]:

---

(١) الحسينيّات: قرية كبيرة من مركز الحمزات، بمديرية سَحَار وأعمال محافظة صعدة، تقع بجوار عاصمة المحافظة من الجهة الغربية الجنوبية وكذا جوار بلدتي: الأبقور ورهوان. سُمِّيت نسبة إلى الإمام يحيى بن الحسين.

(٢) أوردها زباره في كتابه "أئمة اليمن" ١/ ٤١٠" منسوبة إلى المطهر بن محمد بن تاج الدين الحمزي.

يــامٌ وســنحان والطــاغون وادعـــةٌ
ودهمةٌ أقبلوا نحـــو الــرَّدا زُمــرا
ساروا جميعاً إلى المخـــلاف قـــائدهم
إبليس فهو بما قد جرّعــوا جســـرا
كفعلـــه بقريــشٍ حيــن أوردهـــــم
بدراً فلمـــا رآ مـــا هالـــه صَــدَرَا
وقـــال إنـــي بـــريءٌ منكــمُ فلقـــــد
رأيت بالعين مالم تدركوا بصـــــرا
فسلَّ تـــــاجُ بنــي الزّهـــراء قاطبـــةً
سيفاً لأعناق أحزاب الضلال فــــرا
في كفّ أروع لمـــــا هـــزّ عاملـــه
على أعاديه مــــا أبقـــى ولا وذرا
ذاك المطـــهر أبقـــى الله مهجتــــه
ولا أرانا لـــهُ بؤســاً ولا ضــررا

وهي كبيرةٌ، اكتفيت منها بما رويت، وقد قيلت في هذه عدّة قصائد، مـــن كل عارف ماجد، ولبعض السادة:

ما إن مضى وشل الردينيّــات   يوم كيـومٍ فــي الحســينيّات
هيهات ما أيـــام صفّيــن ولا   ذو النهروان يفوقـــه هيـــهات
يوم كيوم الحشر قيل لشمســـه   في برجها لا تجنحي لبيـــات

حتى يذلّ الله أعداء الهدى ويبيدهم بالهندوانيات[١]
ألف من القتلى ظلت خيلنا ترعى السنابك منهم اللمّات
موتاهمُ قد عاينوا مثواهمُ في النار والأحياء كالأموات
قد عجّل الفخرى صيحته بهم لسباعها والطير في الوكنات
عاداته سدّ الثغور وطحنه الأعداء بالأعداء في الوقعات
ماعادة السادات من آل الهدى يا صاح إلا سادة العادات
مازال مُذْ عقدت يداه إزاره في ظهر سلهبةٍ وظل قنات
كم جالَدَ الأبطال بالأبطال كم لاقى كُماةً في الوغى بُكماة
فاجزِ المطهر يإله الخلق عن دينٍ حماه بأجزل الحسنات

ومنها يخاطب آل المنصور:

يا آل حمزة كم نرى غفلاتكم عن رشدكم.. ما أقبح الغفلات
وإلى متى لا تقبلون نصيحةً وإلى متى لاتسمعون عضات

وهذا المقدار منها يدل على ما جرى، وحدث وطرأ.

ودخلت سنة إحدى وأربعين وتسعمائة:

في المحرم منها بَرَطْ[٢] وما إليه دخلت تحت الطاعة الإمامية، وذلك ببركات العزمات المطهرية، فهو الذي ذلّل هذه الرقاب العاصية، ودوّخ البلاد القاصية.. ولو ذكرنا مناقبه ومشاهده على التفصيل، لأفضينا إلى الحديث

---

(١) بياض في موضع الشطر الثاني، وأثبتناه من النسخة المطبوعة عن وزارة الإعلام.

(٢) بَرَطْ: بفتحات، جبل مشهور شمال شرق صنعاء، تسكنه قبائل ذو غيلان بن محمد، من قبائل دُهمة بن شاكر، من بكيل، وهم فرعان: ذو محمد وذو حُسين.

الطويل.

وفي هذه السنة في اليوم الثاني والعشرين من صفر استولى الإمام على بلاد نجران، وقد كان تقدّم إليها بعساكره وجحافله وبنادقه وعوامله، وفي صحبته ولده الهمام، المطهر بن الإمام.

وكان فتح صعدة في اليوم الثاني والعشرين من صفر.. واتفق فتح نجران في هذا اليوم بعينه في الشهر بعينه من سنة إحدى وأربعين، وهذا من عجائب الإتفاق، وعَمَرَ الإمام قبّةً على قبر عبدالله بن الناصر، الشهيد الذي قتل في عصر تبّع ووجد في زمن عمر بن الخطاب ودمُه يسيل من شجة، ثم أن المطهر بن الإمام ما برح يقصد النازح، ويباكر العدوّ ويصابح، حتى أذعن لبطشه جميع نجران، وواجهه القاصي والدان، وذلك بفضل الله المنان، ولما تيقن الأشراف آل المنصور أن الإمام قد استولى على نجران، وكان لهم هجرةً يفرّون إليه من حادث الزمان، وعلموا بعد ذلك أنّ ما بقى لهم محل يلجأون إليه إلا محل يُسمى الدملية، وهو كاسمه، وذلك بين نجران والبصرة، فطلبوا من الإمام العفو والصفح، فأجاب إلى ذلك المراد، وأسعد غاية الإسعاد، فوصل إليه جماعةٌ منهم محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين وابن أخيه الحسين ومجلّي بن نبهان من آل سليمان، وقد كان سبق قبلهم نهشل بن محمد بن الحسين، فطلبوا من الإمام تأمينهم في البلاد الامامية مدّة سنة كاملة، فأجابهم إلى ذلك وشرط عليهم أنهم لا يواصلون عدواً للحق كائناً من كان، من أهل زمان، ويشتغلون بخاصة أنفسهم، ويأتمرون بما أمر به الإمام وينتهون عما نهاهم عنه.

ووقع في جند الإمام مرضٌ شديدٌ مات أكثرهم، وأمر بالمرضى فحملوا على الجمال، في أحسن حال، وتأخّر هو وولده المطهر حتى شدّت آخر المحطة، وانتهض من هذا المحل وعاد إلى صعدة من هذه البلاد وقد نامت قطاها، ومهّدت وطاها، ودخل صعدة في يوم الخميس آخر شهر ربيع الأول

من السنة المذكورة، وقيل في هذه الفتوح عدّة قصائد.. فمن بعضها:

هنيئاً لنجران الخلوص عن الأذى
بطوع إمام العصر (فهو بها أحرى)[1]
فقد كان في الاخدود والمؤمنين ما
يحب على ألاّ يفوتهم الأجرا
ليهن أمير المؤمنين وحزبه
جهادهم المبرور إذ ركبوا الصبرا

ومنها في ذكر المطهر وقتاله:
لقد حاز فخر الدين فخراً مؤبداً
واخوته الأبرار شاد لهم فخرا

ولما فتح نجران، وخمدت نار الطغيان، وانطمست آثار الشقاق والعصيان، ولم يبق في الجهات الشامية شجن من الأشجان، خَرَجَ من صعدة يوم سابع ربيع الآخر من السنة المذكورة ووصل الجراف[2] يوم الخميس رابع عشر شهر ربيع الآخر، ثم دخل محروس صنعاء بكرة يوم الجمعة منتصف الشهر فصلى بها الجمعة صلاة جامعة، وقد كان ولده المطهر تخلف عنه في تلك الجهات لأمرٍ رآه واقتضاه هواه، ولما أراد الله فتح بقية البلاد اليمنية،

---

(١) من نسخة الاعلام وهو به أحرى.

(٢) الجِرَاف: بكسر الجيم وفتح الراء. قرية في شمال مدينة صنعاء، صارت اليوم – مع التوسع العمراني – جزءاً من العاصمة صنعاء.

والجهات العامرية، تحرك عامر بن داود بن طاهر لفناء بقية ذلك الملك الذاهب، والعز الغارب، لزواله، واتّضاع حاله، وكان عنده وزير سوءٍ الشريف يحيى السراجي، وهو ممن باع الهُدى بالضلالة، ونكث عهود الإمام لا أباً له، وكان منه أن حسّن لعامر بن داود ما حسن، فهلك المُحَسّن والمُحَسِّن، وذلك لمّا طالت إقامة الإمام في تلك الجهات الشامية وتعقبه المرض الحادث في العسكر بنجران، ظنّ أن عَوْد الإمام وولده المطهر دونه القارضان، فسهل لعامر قصد بلاد الإمام، وانفاذ أمره فيها والأحكام، فعمل في عامرٍ كلامه، وأسكره مدامه، فتجهز الشريف يحيى السراجي المشير بالمسير وصحبه علي بن محمد البغدادي الملقب بالشرامي، وكان عين دولة عامر، القائم فيها والآمر، فعاثت الجيوش العامرية، في أطراف البلاد الإمامية، وعاب من علب من ولاة الحصون مثل الدارم وهيوه وغيرهما، وانتهى السراجي المذكور إلى دَمْت، وتخلف عنه الشرامي. فلما بلغ الإمام الخبرُ أرسل الرُّسل إلى المطهر وهو بنجران، في سكون وأمان، فجمع زهاء ألف ناقة، من ذوات القوة والطاقة، فأركب عليها عساكره، وصاحب باكره، وتوجه لا يلوي على شيء، ولا يأوي إلى فيء، حتى صبح القوم بِمَوْكَل[1]، وقد أناخ الشريف السراجي بها الكلكل، وذلك يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، فما شعر الشقي إلا والسيوف عليه مظلة، وغمامها مستهلة، وكان مستبعداً وصول المطهر من نجران، كما يستبعد لمس الزّبرقان، فأخذهم المطهر في ذلك الحين، وساء صباحُ المُنْذَرِيْن، ولما ظفروا بالشريف أسيراً، وأتوا به حسيراً، أمر بضرب عنقه في الحال، وأذاقه الوبال، وكانت الأسرى ألفين وثلاثمائة والرؤوس التي قطعت حال أن دخل عليهم المطهر ثلاثمائة، فأمر المطهر وهو راكب بضرب أعناق ألف من الأسرى واستبقى ألفاً

---

(١) مَوْكَل: بفتح فسكون ففتح، جبل وقرية في الشرق الجنوبي من مدينة ذَمَار، وهو من عَنس قديماً، واليوم من بني عامر: صباح من مديرية رَدَاع وأعمال محافظة البيضاء.

وثلاثمائة. ولقد حدّثني من شهد ذلك الموقف أنه لما أمر المطهر بضرب أعناق الأسرى وهو راكبٌ على بغلته وهم يأتون بالأسارى أفواجاً فقتل كل زمرة وحدها حتى غطى الدم حوافر بغلته، ثم حمل كل أسير رأساً ووجه بهم إلى والده إلى محروس صنعاء فدخلوا بالأسرى والرؤوس إلى صنعاء في العشر الوسطى من جمادى الأولى، وكان لوصولهم على هذه الصفة إلى صنعاء موقع عظيم، وباس جسيم، ثم أنهم وجهوا بالرؤوس والأسارى إلى مدينة صعدة إلى عند الفقيه عماد الدين يحيى بن إبراهيم النصيري، وكان والياً على تلك البلاد من قبل الإمام، فلما وصلت الرؤوس والأسارى إلى صعدة ذلت النفوس، وانقاد النافر الشموس، وللسيد العلامة المطهر بن تاج الدين الحمزي قصيدة رائقة، ومنظومة فائقة، أثبت بعضها، وأضربت عن أكثرها اختصاراً وانجازاً.. كان أولها:

يا وطية وطى الإله بمَوْكَلِ
أنحت على حزب الضلال بِكَلْكَلِ
طحنتهم طحن الرحى بثفالها
أو طحن طودٍ هدّ أرضاً من علِ
كانت على يد فخر آل محمد
عن أمر واسط عقده المتوكل
قاد الكتائب من جميع جهاتها
حمراء بين مجففٍ ومسربل
وانصب من نجران من كثب على
أهل الضلالة انصباب الأجدل

فتصادم الجيشان في أرجائه
ناهيك من حولٍ هنالك أحول
مازال يزحف في قساورة الوغى
ذاك النهار على أقبّ هيكل
من كل ندبٍ للحروب مجربٌ
وافٍ أخا ثقةٍ أنوفٍ افضل
ودخان نفط للقتام ممازجاً
أذكى وأطيب من دخان المندل
وكأن معترك المنايا عندهم
ملقى الأحبة في الدحول وحومل
حتى أحان الله أعداء الهدى
يحنون بين مجدلٍ ومكبل
متحملين رؤوس قتلاهم فيا
لشقاوة المحمول والمتحمل
وزعيمهم رام التخفي طامعاً
في غفلة عنه وليس بمغفل
المكر حاق به الذي هو ماكرٌ
في حق صاحب أمره من أوّل
أودى وصعّره المطهر فاعلاً
فعل المحق بأمره في المبطل

أودى وجئ بـــه علـــى روس المـــلا

قُتِـلَ الخبيــث هنـــاك شـــر المقتـــل

من صار من بـــأس المطـــهر دائمـــاً

فـــي ليـــل هـــمٍ صُبحـــه لا ينجلـــي

الحمـــد لله الـــذي نصـــر الـــــهدى

بالنّـــاصر الملـــك الأجـــل الأكمـــل

أعني المطهر خير من شهد الوغـــى

وأبـــاد أرواح البُغـــاة بمنصـــل

ولبعض الفضلاء في ذكر هذه الوقعة، وذكر سيره من شبام صعدة إلـــى موكل:

العزم أمضى للفتـــى مـــن نصلـــه

من رام عنه السبق فـــاز بحصلـــه

النصل قطـــاع ولا كـــالعزم فـــي

قطع المهمّ مـــن الأمـــور ووصلـــه

إن صار ذو عزم بقلـــب خميســـه

فـــهو الخميـــس بقلبـــه ورجلـــه

كالنّاصر الملك المجاهد خير مـــن

للملـــك أبهـــة بـــه وبفعلـــه

قد صار من شام إلى يمـــن لـــذبّ
الخصـــم ذبّ أُســامة عــن شـــبله
كمسير جون الســحب لا بجهامـــها
أطمـــاع مـــن أرداه غـــالب أمـــره
والخصم حين أتاه أن الفخـــر فـــي
نجران ساعد ما طغـــى مـــن جهلـــه
عميت عليـــه ويَلّـــهُ الأنبـــاءُ مـــن
قَتَـــل المطـــهر يـــوم مبـــدأ نقلـــه
في جحفلٍ مثـــل الغمـــام إذا طمـــا
لم يـــدر حِيـــن غشـــاه أول وهلـــه
ظنَّ المطـــهر واقفـــاً بالشـــام بـــل
كَلِفـــاً بنجـــران القصـــى ونخلـــهِ
وهو الذي لـــم يلهـــه عـــن ظـــالمٍ
شـــيءٌ فكيـــف ينيلـــه
فحذا كنهور جيشه من غـــير مـــا
بـــرقٌ ولا رعـــدٌ مقـــدّم وبلـــه
وقرا سباع خبـــان ســـبعاً[1] منـــهم
بالمرهفـــات ومثلـــه فـــي غلـــه

---

(١) ألفاً في "نسخة الأعلام".

الحمـــد لله الـــذي مـــن فضلــــــه

نصبر الهدى بـــالفخر كوكـــب أهلـــه

وهي طويلةٌ، اكتفيت منها بهذه الأبيات، ثم أن علي بن محمـــد البعدانـــي الملقب الشرامي، المقدم ذكره بعض قوّاد عامر بن داود، وكان معـــه أحســـن موجود، توجه إلى المقرانة، لما نخس الحظ قرانه، وهي في الحوزة الإماميـــة، والدولة الشرفية، فدخلها على حين غفلة من أهلها وذلك قبل أن يقتل الشـــريف السراجي، فلما بلغتهم هذه القتلة الكبرى، والحميلـــة الغـــرّا، ضـــاقت عليـــهم الأرض، ذات الطول والعرض، وكان عامر بن داود في قعطبة[1] فلم يجـــدوا ملجأً إلا الفرار، وإخلاء تلك الديار، فهرب عامر بن داود إلى بلاد الأحـــدوق[2] وهرب الشرامي إلى الشُعَيْب[3]، وكانت محطة المطهر بن الإمام بالعرفـــاف، وكان من الأشياء القاضية باللطف وبلوغ الوطر أن المطهر بن الإمام أَلَمّ بـــه أَلَمٌ اقتضى طلوعه من تلك المحطة إلى جبل صباح، فلما بلغهم طلوعه، وعوده ورجوعه، عاد كل منهما إلى موضع هلاكه، ووقوعه فـــي حبـــائل الـــهوان واهلاكه، وأقيل المطهر من تلك العلة والمرض، وعاد إلى محطته بالعرفـــاف، وبلغ رجوعه الشرامي، وكان في رأس جبل السروات بـــالقرب مـــن حصـــن الدارم، فقصدهم المطهر إلى ذلك المحل فقابلوه وقـــاتلوه، وقـــد كـــان جعـــل الشرامي محاجياً فوق محاجي، ولا دافع من الله ولا حاجي، فتشـــرعت لـــهم العساكر المطهرية من كل مكان، ورقت تلك الشماريخ كأنهم الجان، فلم يكـــن بأسرع من هزيمتهم فأخذتهم البواتر والبنادق، في مضيق ذلك المارق، ولحـــق الباقين من لحق فأخذوا منهم خمسين رأساً وغنم النـــاس البنـــادق والأســـلحة،

---

(١) قَعْطَبة: مدينة بالشرق الجنوبي من مدينة يريم بمسافة ٧٢ كيلاً.

(٢) الأحدوق: الأصح الأحذوق، في بلاد الحُشا.

(٣) الشُعَيْب: أخدود جبلي في الجنوب الغربي من الضالع.

وسلب الشرامي لأنه لم يعرف ولا تعرّف حتى رآه رجل من اليمن كان من جملة العسكر فعرفه وصرخ عليه حتى لزم وجئ به إلى المطهر مقوداً، مكروباً مفرداً، فقال له المطهر إن رمت السلامة، وهي أشرف النعيم المقيم، فخاطب أهل الدارم بالتسليم، فخاطبهم فلم يلتفتوا إلى مقاله، ولا رقوا لحاله، فلما عاد إلى بين يدي المطهر بن الإمام، قرَّعه بالملام، ثم أمر به فضربت عنقه، وانقطعت علقه، وبعث برأسه إلى حضرة أبيه. ولبعض البلغاء من أبيات يذكر هذه الهزيمة:

أما بعده حتف العِدَى بآخر الهدى
ومن رامهُ قتلاً فقد ضمّهُ اللحدُ
مليكٌ له شأوٌ بعيدٌ وسطوةٌ
تميد إذا ما سار في ارضها الهندُ
وأكثر من ظلت تنوشِ سيوفه
رجالٌ لئامٌ خين عندهم العهد
كمن جدلته في الدرام وموكلٍ
جنود الهدى إذ أكَّدوا العهد وارتدّوا

وبعد قتل الشرامي استولى المطهر على جميع بلاد خُبَّان، قاصيها والدّان، وهرب عامر بن داود إلى نازح الحدود، ثم سار المطهر بعساكره إلى جهة المخادر[١]، وقصد بذلك الجيش الشوافي[١] وحُبَيْش[٢] فنازلهم وأخذ معاقلهم

(١) المخادر: بفتح الميم والخاء وكسر الدال، بلدة شمال مدينة إب بمسافة ٢٠ كيلاً يتوسط بينهما قاع السحول، وهي على هضبة جبل عُقَّد.

كحدود المصانع وحصن الحضري وتلك الأطراف إلى حدّ الجبلين والمخلاف، وفي ذلك يقول بعض البلغاء من قصيدة:

وإن يدنو المحبوب عـن ميلـه كمـا
دنـا جُـددٌ لله بيـن أكامـه
وقد البسـته السـحب تاجـاً مكلـلاً
ولوح هـواه مطرفـاً مـن غمامـه
إلى فخـر ديـن الله وابـن عمـاده
إلى ملك هذا العصـر وابـن إمامـه

وهي طويلةٌ، ثم أن عامر بن داود آوى إلى التعكر[٣]، نافراً من الخطوب والغير، فقصده المطهر بجيشه الكافي، بعد أن أخذ حُبيش والشوافي، فلما رأى سواد العسكر، وأظله ظل ذلك العثير، فرّ من الحصن إلى عدن، رهين كرب وحزن، وسرى إليها سريان الطيف، وأخذ بعده المطهر الحصن بالسيف، ولم يبق فيه إلا القفلة[٤]، بالخلاف مستقلة، وفيها والٍ يُقال له القاضي محمد بن أبي بكر اليافعي، فلما علم أن لا مناص له ولا خلاص سلم القفلة واستسلم، وجنح إلى أحسن الشيم، وكان الاستيلاء على ذلك الحصن المذكور، والمعقل

(١) الشُواقي: قرية في جبل خضراء من مدينة حُبَيْش وأعمال محافظة إب.

(٢) حُبَيْش: بضم ففتح فسكون، مديرية في الشمال الغربي من مدينة إب بمسافة ٤٢ كيلاً، مركزها مدينة ظَلْمة - بفتح فسكون- وهي منطقة جبلية تضم مجموعة حصون وقلاع، منها: جبل عمقة وحصن حضار والمصنعة وغيرها.

(٣) التعكر: بتشديد التاء وسكون العين. جبل في العُدَيْن أو ما كان يُعْرَف سابقاً باسم الكلاع. وفي سفح التعكر تقوم مدينة جِبْلَة، ومن جنوبه مدينة ذي السُفال.

(٤) القفلة: قلعة حصينة في بني ظافر من بلاد العُدَيْن. تشرف على معظم أراضي العُدَيْن ووديانها.

المشهور، غرّة شعبان من السنة المذكورة، وفي ذلك يقول السيد العلامة مطهر بن تاج الدين الحمزي:

هكـــذا اللهُ أكـــبر اللهُ أكـــــبر
تغلـب الغلـب فـي ذراهـا وتقـهر
أنكـروا حيـن لاح بـرق المطـهر
إن حيلـه بعـارض الفخـر تمطـر

وهي طويلةٌ، اكتفيت منها بهذا المقدار، للدلالة على الأخبار، ولــهُ مــن قصيدة أخرى:

الحمـد لله العظيـم الأكـبر
لفتوح سلطان الحصـون التعكـر
المشمخرُ الشامخُ السامي الـذي
يعلو على هام السـها والمشـتري
أدناه مالكنا المطهر مـن غـدا
لبـلاد أهـل البغـى أيّ مطـهّر
كم قاد يوماً للهدى مـن عسـكر
كالبحر وهو جميـع ذاك العسـكر
فالعـالم السـفليّ بيـن مـدوّخ
ومنصّـر وملجـم ومظفّـر

والعــالم العلـويّ بيــن مُســبّحٍ
ومقــــدّسٍ ومــــهللٍ ومكـــــبر

ولبعضهم من قصيدةٍ يذكر فرار عامر بن داود وهي:

وابن داود ضعيف العقــل لــو كان ذا عقــلٍ أتــاكم للحفــر
يحسب المجد شـــجاه اللهُ فــي نقر طـــارٍ واســتماع لوتــر
إنما المجد لمن يلقـــى العــدى لطعانٍ وضراب في المكــــر
لا كمن في الحرب ألقى جيشهُ للدان البيض والســمر وفــر
هكــذا فعــل بــن داوودٍ فمـــا زال في الناس يقولون انكســر
غادرتهم جند فخر الديــن فــي كانب التعكر للوحش جـــزر
ولقــد ولـــىّ لعمــري عـــامرٌ مثل كلبٍ ســمع الليــث زأر

ثم أن المطر بن الإمام فتح في هذا الشهر المذكور نعمان زُبَيْد والحســـا ومرعد وريمة والسَّارة وعزان وأكن وريمان[١] وسائر حصون المخلاف، ثــم توجه وفتح مدينة تعز، وجاز القدح المُعلا في العز، ثم حاصر القاهرة، بتلــك الجنود الوافرة، وفيها رجل من آل طاهر، وأقارب عامر، يقال له أحمــد بــن محمد، وكان متهوراً مغرباً عن حقائق الأمور، غافلاً عـــن حـوادث الأيــام والشهور، تسديده لا يليق في ذلك الحال، آل منه الحال إلى سوء المآل، وكــان مع أحمد الظاهري حينئذٍ عبيد وعرب وكان بعض العبيد أساء الأدب في شيءٍ لا يوجب الحد، ولا يفتح السد، فأنكر فعله، ورام قتله، فراجعه العبيد في ذلــك

(١) حصون مشهورة في بلاد العُدَيْن.

العبد، فردَّهم بأقبح الرد، وحرصت العرب معه على القيام وتبليغه ذلك المرام، فلما عرف العبيد تصميمه على هواه، وهويّه إلى مهاوي هواه، أرسلوا إلى المطهر يخبرونه ويعرّفونه أنهم يريدون الوقوع في يديه، والخروج إليه، وطلبوا أمانه، وأفضالهُ وإحسانه، ففعل كل ما أرادوه، وإلى الحصن بعد ذلك قادوه، فما شعر بن طاهر، إلا بلمع البواتر، وجلبة العساكر، فعلم بعد ذلك أنه فرَّط في عدم قبول الشفاعة، ولا ينفع الندم تلك الساعة، فقبضَهُ المطهر أسيراً، وأرسل به إلى محروس صنعاء كمداً حسيراً، ووجد في القاهرة من الشحنة والآلات الملكية، والذخائر البهية، مايبهر العقول، ويحير النقول، وأقام أحمد بن محمد الظاهري هو وأقاربه في قصر صنعاء حتى توفاه الحمام، بعد تلك الأيام.

ولما بلغ الجراكسة الذين كانوا في زبيد، قدوم المطهر على تعز في الجيش العديد، طمعوا في أخذها قبل وصوله، وراموا منازلتها قبل نزوله، فلما بلغوا إلى بعض الطريق، لقيهم الخبر في ذلك الفريق،، بأن المطهر قد استولى على البلد، وقبض أحمد بن محمد، فعادوا بخيبة المسعى، وقد كان مات الأمير اسكندر بن محمد[1] في هذه الأيام وهو المعروف باسكندر مور، الذي دخل مدينة صنعاء وأخذها من عامر بن عبدالوهاب وقتل عامراً وتولى بعده أمير يقال له أحمد الناخوذة[2]، ثم أن المطهر اختط دائر تعز، ثم وجّه للفقيه يحيى بن إبراهيم النصيري الظاهري، وكان مقيماً في بلاد صعدة والياً بها من قبل الإمام، فوصل إلى حضرته إلى تعز فولاّه البلاد جميعها، وعاد قافلاً إلى صنعاء

(١) الأمير اسكندر: هو اسكندر المحضرم، وكان حازماً، وكان يخطب للسلطان سليم العثماني، ولهذا سُمي المحضرم، وقد استمر اسكندر حاكماً بزبيد وتهامة إلى سنة ٩٢٧هـ حيث قتله كمال بك الرومي، أحد رجالات السلطان العثماني، واستولى على زبيد.

(٢) الناخوذة أحمد الجركسي: هو الذي وقف في وجه مطهر بن شرف الدين بمعركة زبيد التي سيرد ذكرها قريباً، وتمكن من إرجاع المطهر فاشلاً وجريحاً، وقد استمر الناخوذة أحمد إلى عام ٩٤٥هـ حيث قتله غدراً بالمخاء الباشا سليمان، مملوك السلطان العثماني سليم.

ورماحه تختال مرحاً، وتهتز فرحاً، والويته تخفق من الحنو عليه وتغار من الشمس لا تصل إليه، وجعلوا ولاية صعدة وبلادها إلى عز الدين بن الإمام شرف الدين، ودخل المطهر صنعاء ظهر يوم الخميس أول ليلة من شهر الحجة دخولاً لم يُر مثله، ولا بعده، ولا قبله.

ودخلت سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة:

وفيها حط المطهر بن الإمام على عدن، وقد كان دخل في طاعته جميع البلاد كخنفر المقاربة لها ولحج وأبين وزنجبار[١] وغيرها من البلاد، ثم دخل صنعاء في شهر رجب من السنة المذكورة.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة:

وفيها جمع الإمام الجموع وجند الجنود. وأول ربيع الأول من السنة المذكورة فتح عز الدين بن الإمام شرف الدين ظهر نجران وقتل صاحبه ابن المهدي.

وفيها توجه شمس الدين بن الإمام شرف الدين بذلك العسكر الذي هيّأه والده وجعله قائده وذلك لمَّا طال مكث المطهر في اليمن فعزم بتلك الجنود التي هيأها الإمام، وجعل فيها كل ماجد مقدام، إلى حضرة المطهر بن الإمام، وانبرم الأمر فيما بين المطهر وصنوه شمس الدين على قصد الجراكسة إلى مدينة زبيد وأميرها أحمد الناخوذة، فساروا بحبيش ضخمٍ لا يطاق، يسد الآفاق، وكان عزم المطهر وصنوه شمس الدين ضحوة نهار الخميس السادس والعشرين من شهر جمادي الأولى من السنة المذكورة، وفي خلال هذه السفرة فتح الفقيه يحيى بن إبراهيم النصيري حصن قوارير[٢]. ولما وصل المطهر بن

(١) زنجبار: في الأصل "حياز".

(٢) حصن قوارير: حصن مشهور في جبل الدَّاشِر من مديرية وُصاب السافل وأعمال محافظة ذَمَار، وهو من الحصون المنيعة ويُطِلّ على مدينة زَبِيد من شرقيها.

الإمام قرب مدينة زبيد وذلك بكرة يوم الأربعاء ثامن شهر جمادي الآخرة كان شمس الدين بن الإمام في الميمنة والفقيه يحيى بن إبراهيم النصيري في الميسرة والمطهر بن الإمام في القلب.

رأيٌ كان فيه السلامة لمن في زبيد: من ذلك الجيش العديد، ولما بلغ الجراكسة تقدم المطهر بن الإمام عليهم بعساكره وشواجره، وجنوده وبواتره، أمروا بغيل زبيد الكبير فأجروه في الأرض التي سيكون فيها مجرّ العوالي ومجرى السوابق، فكان في هذه الملحمة العظيمة، والملمة الجسيمة، وانكسرت فيها جنود الإمام، وخاضوا غمرات الحمام، وما ذاك إلا أن خيل الجراكسة لما علموا أن قد توغلوا في تلك الحمأة التي أحدثوها بماء الغيل، وأن لا مجال فيها للخيل، حملوا حملةً واحدة انهزمت فيها تلك الصفوف، وانكشفت فيها الألوف، ولم يبق إلا المطهر وصنوه شمس الدين وسبع خيل الأمير عبدالله بن أحمد بن محمد بن الحسين الحمزي، وصالح بن الحسين بن عبدالله بن الحسين، وخمسةٌ من العبيد، دارت على المذكورين رحى القتال، ومال عليهم هجير النزال، وظهر من المطهر وأخيه، في ذلك الموطن الكريه، من الثبات والبسالة، ما حير الوصف والمقالة، وقتل هو وأخوه عدّة من فرسان الجراكسة من شجعانهم، والثابتين يوم طعانهم، منهم رجل يقال له أبو شوارب، وقد كان سبقت له معرفة بالمطهر، فعرّف الشراكسة بموضع المطهر، وتابع عليه الكر، وكان على المطهر آلة حربه، ولامة طعنه وضربه، فلما دنى من المطهر، وهي الكرّة الرابعة، لاح للمطهر عورة من درع أبي شوارب عند حلْقِهِ، انكشفت عنه بعض حِلَقِه، فحمل عليه المطهر حملةً علوية، وشد عليه شدّة حيدرية، وطعنهُ طعنة سلبت مهجته، وأذهبت بهجته، فعند ذلك اكتف شر تلك الخيل والأسل، وطال عليهم القتال واعتراهم الملل، فانحاز ضباب القتام، وانقشع ذلك الغمام، وعاد المطهر إلى محطته، واستشهد ذلك اليوم من أعيان

الدولة الإمامية السيد الصدر الأعلم جمال الدين علي بن يحيى بن الإمام المطهر محمد بن سليمان ونُقِلَ إلى المحطة، وبقي إلى بكرة الجمعة عاشر الشهر المذكور، وتوفى إلى رحمة الله، ودفن في محل يقال له الصباح، والسيد صارم الدين إبراهيم بن محمد بن الهادي بن الوزير، وأما الجند فهلك منهم في ذلك الموقف أممٌ وطوائف:

وَمَنْ ظَنّ ممن يلاقي الحروب
بأن لا يصاب فقد ظَن عجزا

ولما بلغ عامر بن داود انهزام المطهر وشمس الدين من زبيد بالجنود أيقن بالظفر، وبلوغ الوطر، وظن أن السعد قد طالعه، وأن الدهر قد عطف عليه وراجعه، فحزَّب أحزابه وجنوده، وعقد الويته وبنوده، وقصد المطهر بن الإمام، فلما بلغ المطهر خبر خروجه من عدن ووصوله إلى أم قريش، قصده، فلما علم عامر بذلك فارقها إلى غيل ورزان[١] ووصل المطهر بن الإمام إلى أمّ قريش[٢] فوجد عامر قد خرج عنها فبكر لاحقاً له صبح يوم الأحد عاشر رجب الأصب من السنة المذكورة، فلما أدركته العساكر المطهرية، والطوائف الفخرية، تلازم الحرب، وثار الطعن والضرب، من الميسرة والميمنة والقلب، وآل بعد ذلك انكشاف عامر وأحزابه، واستيلاء المطهر على محطته وخزائنه ومضاربه وأطنابه، وقتل من العبيد أوفر العدد، فوق أربعمائة عبد، وفرّ ناجياً بنفسه، وقد عاين طوى رمسه، يقطع الوهاد تبكيه أطواف مر وحداد، والجنود المطهرية في أثره، والبحث عن خبره، فلقيه في أثناء الهرب ومحل الطلب

(١) غيل وَرَزان: بفتحات: وادٍ مغيول مشهور في منطقة دِمْنَة خَدِير جنوب شرق مدينة تعز بمسافة ٢٨ كيلاً.

(٢) أمّ قريش: حصن بالقرب من دِمْنَة خَدِير.

عبد من عبيده لم يحضر وقت تشريده، فعرفه وهو يمشي، وكان الوقت العشي، والعبد على فرس جواد فترجل لديه، وأركبه عليه، فطار على ذلك المهر، بعد أن قد كان أهلكه النهر، وأدركت العبد العساكر التي كانت في طلب عامر فسألوه عنه فأنكر عرفتهُ، وجهل وجهته، فأتي به إلى المطهر فاستنشده الخبر فأعلمه أنه أركبه على جواده، وأن قد غاب خلف أغواره وأنجاده، فشكر له المطهر حسن معاملته لمولاه، وحلفه عليه وأولاه، ثم عاد المطهر إلى عند والده إلى صنعاء ودخلها في شهر شعبان من السنة المذكورة. وقيلت في ذلك اليوم من الأشعار ما لو ذكرنا بعضه لخرجنا عن الاختصار، وجاوزنا موضع الاقتصار، ولم يبق في يد عامر من البلاد بعد هذه الهزيمة شيء غير عدن.

ودخلت سنة أربع وأربعين وتسعمائة:

وفيها توجّه شمس الدين بن الإمام لفتح بلاد حَرَاز[1] وهي فرقتان: فرقةٌ من همدان وفرقة من الشافعية، ففتح تلك البلاد غورها والأنجاد، ونازِل المعاقل في الضحى والأصائل، ففتحها بأجمعها مثل حصن مَسَار وشبام اليعابر، وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة طويلة:

ولما تبقت في شبام بقيةٌ
وقد جمعوا فيها الجموع وعسكروا

توجّه شمس الدين تلقاء أرضهم
فأفناهمُ والحق واللهُ أقدرُ

(١) حَرَاز: اسم يُطلق على سبعة جبال هي: مناخة، صَعْفَان، مَسَار، لِهَاب، مِجْيح، شِبَام، هَوْزَن.

فزال بشمس الدين داجـــي ظلامـــهم

فدمّرهـــم وهـــو الـــهمام المشـــــمّرُ

ثم فتح شمس الدين بلاد صَعْفان وحصونها ومعاقلها في شهر صفر مـــن هذه السنة، وفي شهر ربيع الآخر فتح جبل بني عرّاف[1] وهو قطـــرٌ واســـع، ومحل نافع.

ودخلت سنة خمس وأربعين وتسعمائة:

وفيها وصل سليمان باشا إلى كمران.. ووجهه السلطان سليمان خان بـــن سليم رحمه الله لقتال الافرنج في بحر الهند، فلما ألقى في كمـــــران مراحلـــه، وحط بها كاهله، طمع عامر بن داود في نصرته على الإمام شرف الدين وظن أنه المُنقذ المعين، ولم يعلم المغترّ أن في ذلك العارض صواعق حين، فكاتبـــه على يد شخص من الأروام يقال له فرحات، وكان داهيـــة ناقعـــة، ومصيبـــة واقعة، فبسطوا له في القول وأظهروا له الرغبة إلى إسعاده بمراده، ومناصرته ومعاونته على حرب الإمام، فأغتر بخُلّب تلك البروق، وتوّجه إليه سليمان باشا بمراكبه، فلما بلغ بندر عدن طلب الإذن من عـــــامر فـــي دخـــول العســـاكر السلطانية لقضا حوائجهم وأغراضهم، وكان سليمان باشا قد أودع فرحـــات أن يغدر بالمدينة ويأخذها على صاحبها، فلما دخلها فرحات بتلك الجموع، التـــي تذهب عن المقلة الهجوع، دخل على عامر داره، وأزال قراره، وقبض عليـــه، وعلى جماعة من أصحابه وخواصه، وأرسل بهم إلى الباشا وهو في البنـــدر، فلما وصلوا إليه شنقهم وهم ستة أنفار وتركهم معلقين ثلاثة أيام، ثم توجه إلـــى الهند فلم يحصل له طائل من فتح بلاد الهند، وما ذاك من عجزه ولا من قـــوة في الهند بل صرفه الله عن تلك الأقطار، وأماله عن تتبع تلك الآثـــار، عـــدم

---

(١) بنو عَرّاف: جبل ومركز إداري من مديرية صَعْفَان في بلاد حراز.

انقضاء تلك المدة، وأن دولتهم ممتدة، فلو توجه عليهم بتلك الجيوش العظيمة، والعدة الجسيمة، ما منعهُ مانع، ولا دفعه دافع، ولفتحها إلى قرب الصين، إلاَّ أن الله ما أراد وهو المتصرف المالك.

ولما استقر سليمان باشا قرب زبيد أرسل عدّة من دهاة أصحابه في الوساطة بينه وبين أحمد الناخوذة، وفي أثناء ذلك الخوض يفسّد جنده بالترغيب والترهيب إلى أن مالوا عليه وانعزل إليه رجلٌ يقال له سنان من أصحاب الناخوذة أحمد في عدّة من عسكره، ووصل من وصل منهم إلى الباشا سليمان، ولما تيقن الناخوذة أحمد أن قد أنسل أكثر أصحابه إلى الباشا وأنه لم يبق معه من يقدر على حفظ زبيد، إذا رامها الخصم القوي الشديد، خرج مواجهاً للباشا بعد عهود وعقود، ومواثيق يعلم بها العليم الودود، ولما خرج الناخوذة أحمد امر من لقيه إلى بعض الطريق وقتله وقتل الذين خرجوا في ركابه، وتخلّف عنه فوق ثلاثمائة، وأمر برؤوسهم فحزّت، وبمرآ منه رُكزت[1]. ولما استولى على هذين الموضعين، وملك أزمة المدينتين، قيل له لن ينفعا ولن ينتفع بهما إلا إذا كانت تعز ومخاليفها إليهما، فكتب إلى الإمام كتاباً يحقق فيه وصوله إلى جهة اليمن، وفتحه لزبيد وعدن، وذكر أن الذي أوجب قتله لصاحب عدن أنه بلغه أن قد كان بينه وبين الافرنج حديث على أن يسلم لهم عدن، وذلك قول غير صحيح، ثم أنه حاول حصول غرضٍ من جانب الإمام بالقوة واللين، والتحسين والتخشين، فلم يقع على طائل، فلما آيس من ذلك نزل في زبيد وعدن وأبين، وبلغني من بعض الثقاة أن ملوك الهند بذلوا لهُ في الكف عنهم وعن قتالهم أموالاً جليلة، وهبات جزيلة، ووقف في زبيد أياماً يسيرة يحاول حصول غرض له في حصن قوارير أو غيره مما هو تحت بسطة الإمام فلم يحصل لهُ شيءٌ من ذلك، وكان خليفته في زبيد أمير يقال له مصطفى عزّت،

---

(١) بمقتل الناخوذة أحمد، ومن قبله عامر بن داود بن طاهر، لم يبق في اليمن إلا قوتان في ميدان الصراع: اليمنيون بقيادة الإمام شرف الدين وإبنه المطهر، والأتراك سلاطين آل عثمان.

وعزم إلى الشام وقد كان الزم الواقفين في زبيد وعدن أن يتحركوا على تعز.

ودخلت سنة ست وأربعين وتسعمائة:

وفيها تحرك عساكر السلطنة الذين بزبيد على تعز فطلعوا عليها في عددٍ عديد، وبأس شديد، ولما بلغ الإمام شرف الدين ذلك وجه الفقيه يحيى بن إبراهيم النصيري فخرج من صنعاء في شهر رمضان من السنة المذكورة، وكان والياً لتلك البلاد فوقف في جبل التعكر، ثم توجه شمس الدين بن الإمام من صنعاء في يوم الاثنين سادس شهر القعدة، فوقف شمس الدين في التعكر وقدم الفقيه يحيى بن إبراهيم النصيري ووقف بالقرب من تعز، وقد كان عسكر السلطنة أحاطوا بها وفيها من أصحاب الإمام السيد صلاح بن فخر الدين والأمير حسن بن الصيّاد وعدّة من العسكر، فعالج جند السلطنة في فتح المدينة واجتهدوا في خرابها ليلاً ونهاراً، وكانت تقتل منهم البنادق والمدافع عدّة. ولما كان بعض الأيام عزم الفقيه يحيى بن إبراهيم النصيري والسيد حسين بن عز الدين المؤيد بقطعة من العسكر إلى موضع قريب من محطّة عسكر السلطنة، وقد كان سرح جريدة من عسكر السلطان لأخذ شيءٍ من تلك البلاد مثل قوت وغيره، فالتقاهم الجند الذين مع السيد حسين والفقيه يحيى بن إبراهيم ووقع بينهم حرب عظيمة فانهزم جند السلطان، وقتل منهم فوق العشرة، ولما وصلوا منهزمين إلى محطتهم خافوا من أن يحاط بهم فانتقلوا في تلك الليلة التي انكسروا قبلها بيوم، ولم يشعر الناس بهم إلا بعد مضي أكثر الليل فلحقهم الفقيه يحيى النصيري في جمع كبير فلم يظفر بهم، وقد كانوا تركوا المدافع والاثقال في موضع محطتهم فظفر بها جند الإمام، وكانت المدافع من أعظم المدافع وأحسنها، وتولّت العساكر السلطانية بغير ظفر إلى محروس زبيد.

وفيها وصل إلى الإمام الأمير الخطير ناصر بن أحمد بن محمد بن الحسين في قدر ثلاثين فارساً من أصحابه تائباً إلى الله عما سلف منه في

حرب الإمام، فالتقاه الإمام، وقابلهُ بالإكرام والإنعام.

وفيها فتح الإمام سماه بني النوار وبعدها حصن يفعان[١] على يد شمس الدين بن الإمام، وعدّة معاقل، وذلك في شهر جمادي من السنة المذكورة.

ودخلت سنة سبع وأربعين وتسعمائة:

في اليوم الثاني عشر من شهر صفر فتح عز الدين بن الإمام شرف الدين جازان وأبا عريش وسائر الجهات الشامية التهامية.

وفيها وصل الأمير حسن بهلوان في خمسين من عسكر السلطنة فيهم إثنان وعشرون فارساً، وخلع عليهم الإمام الخلع السنيّة الفاخرة ووفّر لهم العطيّة، ومنحهم بالتقريرات والسبارات النافعة الواسعة.

ودخلت سنة ثمان وأربعين وتسعمائة:

ولم يحدث فيها ما يوجب ذكره ويحسن نشره.. **وكذلك سنة تسع وأربعين وتسعمائة.**

ثم دخلت سنة خمسين وتسعمائة:

فيها أخذت عساكر السلطنة جازان، فتوجه عليهم عز الدين بن الإمام شرف الدين من صعدة، وجرت بينه وبينهم وقعات عديدة متواليات ولم يأخذ أحد من الفريقين من صاحبه حق.

(١) يفعان: ريمة.

ودخلت سنة إحدى وخمسين وتسعمائة:

وفي هذه السنة توجّهت العساكر السلطانية إلى جهة لغسان[1] على مقدمتها حسن بهلوان، فوجّه الإمام أولاده للقاهم فلقوهم إلى ذلك المكان، فجرت بينهم حروبٌ آلت إلى انكشاف عسكر السلطنة إنكشافاً عظيماً قتل فيه عدّة من عسكر السلطنة وعاد أولاد الإمام إلى حضرة أبيهم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة:

وفيها ابتدأ زوال دولة الإمام شرف الدين، وانحلال ملكه المكين، وجنحت شمسه للغروب، وفطن لذلك أذكياء القلوب، وكان من أقوى الأسباب، في فتح ذلك الباب، أن عساكر السلطنة شرعت تسري في بلاد اليمن سريان النار في الهشيم، وتعلق بأطرافها علوق المقلة بالتهويم، وما برحوا بين إقدامٍ وإحجام، ونقضٍ وإبرام، فكان من أمر الله الغالب، وقضاه الذي لا يفوته الهارب، أنها لما اتحدت الكلمة للإمام، وهادنته الأيام، وفتح قطر اليمن على العموم، وقام بحقوق الحي القيوم، شرعت عقارب الحسّاد تدب، وحيّات المبغضين تضطرب، فيما بين الإمام وولده المطهر، وما برح الكاشح يلقى بينهما عطر منشم[2]، ويجد ويجتهد في ذلك ويهتم، وتلطف حتى ألقى في مسامع الإمام سحر بيانه، وأخذ قلبه بوهق لسانه، ونصحه بغير الصواب، ورفع إلى شمس الدين غير ذلك الخطاب، وصوّر أن المطهر الذي نزّه البلاد عن العدى وطهر قصده فيهم الإستئصال، والانفراد والاستقلال، ومهما بقي على تلك الحال، فالملك أقرب إلى الإنحلال، فخلبهم بزخرف زوره، وبدّد ملكهم بأباطيل تصويره، وحسّن لهم الوقيعة به إن أمكنت الفرصة، وإيداعه السجن حتى

---

(١) لِغْسَان: بكسر فسكون ففتح، هي البطائح والمواطن الواقعة فيما بين ((باجل)) و((سهام)) و((بُرع)) و ((حراز)) وجاء في الأنساب أن لِغْسان من ولد عَك.

(٢) جاء في الهامش شارحاً المثل قوله: زعموا أنها .....الخ (عرض الورقة).

يموت بالغصة، فعند ذلك يخلو لهم وجه الإمام، وتسعدهم الأيام بغايات المرام، ثم أنه دس إلى المطهر ما أوهمه وأكثر تألمه.

يَصْنَعُ في ساعته النّمامُ فتنة أشهرٍ لَهَا اضطرامُ

ولم تزل تكثر أسباب الوحشة فيما بينهم، وتنمو وتعظم، حتى وقع في الجراف شيءٌ من الطاعون في بعض الأعراب الوافدين من مدينة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فرجّح الإمام الانتقال من ذلك المقام، فعرفه ولده المطهر بأن يسكن عنده في فِدَّة[1]، فهي له معتدة، فأجابه إلى مطلبه، وسلوك مأربه، فأخرج المطهر أولاده وأحفاده لأبيه وأخيه، ثم أن صنوه شمس الدين، نظر بنظرٍ كان فيه الداء الدفين، وما ذلك إلاَّ أنه أشارَ على الإمام بعمارة دائر قرية القابل وأماكن في جبل مُرشد فشرعوا في ذلك وجدّوا، وسعوا واجتهدوا، وصرفوا فيه أموالاً عظيمة، عزيزة القيمة، ولما رأى المطهرَ بن الإمام جهدهم وإقبالهم إلى ذلك لغير موجب ولا سبب قطع بأنهم ما يريدون بتلك المعامر غير محاصرته في طيبة، وإيقاعه في المصيبة، وكان ذلك من أقوى الأسباب التي أوجبت عدم مواجهته لوالده، وقد كانوا أرادوا قبضه، وأسره وحفظه، بعد صلاة الجمعة، واجتمع الرأي أنه عقيب الدعاء بعد الصلاة يؤمر به الكفاة، فنبّهه بعض إخوانه وأهل مودته بأن كتب له في ظهر كفّه، وعرضه على طرفه، أنّ الملأ يأتمرون بك، فاحفظ منصبك، فأرسل إلى جنوده الذين في طيبة، وكانوا خيلاً وبنادقاً من العبيد والأروام، والعرب الحماة الكرام، فما أكمل الخطيب النزول عن منبره حتى وصلت المطهر طلائع عسكره، وكان ذلك بمسجده الذي عمره بوادي ظهر[2] وأدخل إليه معين ذلك النهر، فلما أحسَّ بأعوانه ورفقته، قام لوقته وساعته ولم يطيقوا منعه ولا هموا، ثم عموا وصموا، لما رقى بجيشه الجبل، وارتقى إلى ذلك المحل، ثم إن الخطاب دار

---

(١) فِدَّة: بكسر فتشديد، جبل منتصب في الطرف الجنوبي من وادي ظَهرٍ غربي صنعاء بمسافة ٧ أكيال.

(٢) مازال الجامع عامراً في قرية القابل الواقعة بالوادي المذكور.

بينه وبين أبيه، على يد كل المعيّ نبيه، بأنه يعرفهم ما في مراده، في إصداره وإيراده، فعرفهم بأنه قد تشوش قلبه، وعظم خطبه، وأنه لا يأمن إلا بتعديل لهُ في أي حصن أراده، وضمانة من اختاره واستجاده، بإبقائه على ما هو موضوع له من الأسباب والحصون، وما يتعلق بها من جميع الشؤون، فلما لم يحصل لهُ ما طلبه من العدالة، تقرّر الخوف في قلبه وآماله، وهم لما عرفوا عدم قبوله لمقالتهم، وإسعاده إلى إجابتهم، تزايد خوفهم واشتد حنقهم، وكثر التباعد فيما بينهم، ولم تزل الأشراف والقضاة، والأعيان الأباة، يسعون بينهم بالسّداد، فلم يتأت ذلك بل كان يزداد.

وذكرتُ ما أجاب به حسن بهلوان على عسكر السلطان وأعيانهم لما عاد هارباً من عند الإمام، وقد ذكرنا في هذا المختصر وصول حسن بهلوان[١] إلى مقام الإمام، وكان السبب في مفارقته رفقته، وانفصاله عن زمرته، أن أعيان السلطنة الذين في زبيد جرى بينهم ذكر الإمام وأولاده، وسعة بلاده، فقال أحدهم: الإمام والمطهر وشمس الدين كالأثافي، تمّ لهم التكافي، فلو هلك أحدهم لمالت الدولة، وهانت منهم الصولة، فهل من يتلطف ويكفينا أحدهم، وينقص عدهم، ويفل حدّهم، ونجعله رئيساً، ونمنحه نفساً ونفيساً. فوقع اختيارهم، وشخصت أبصارهم، إلى حسن بهلوان، وكان المشار إليه بالبنان، في ذلك الأوان، وكان داهية لا يطاق، مشهوراً بالإقدام على الاتفاق، فلما وصل إلى سوح الإمام على ما ذكرناه، أكرم مثواه، وأعطاه وحباه، واختلط به، وحظي بقربه، وأقام مدّة في ذلك الإجلال، قويم النعمة والحال، وأصحابه ينتظرونه انتظار الساهر الصباح ويشتاقون إليه ولا شوق العطشان إلى الماء القراح، فدبر الحيلة، وأحسن الوسيلة، وفر من الجراف فرار الخائف، وطرق زبيد طروق الخيال الطائف، لفعله، فلما وعى كلامهم، وسمع ملامهم، قال لهم لا

(١) حسن بهلوان: من أمراء الأتراك ودهاتهم.

تبادروا إلى تلبي، ولا تطيلوا السنتكم بسببي، فإن كشفت سري، وأوضحت عذري، وقصصت قصتي، وأشرقت أنوار حجتي، فقد بريت من العار والذم وإن لم أبرهن على ما ادعيت فقد استوجبت الإهانة، وعدم الإعانة، فقالوا: هات ما عندك فيما أوجب صدك، فقال: اعلموا أني ما طلعت من عندكم إلا بنية الفتك بأحد المذكورين وإراحة الناس منه فلما طلعت وصلت إلى حضرة الإمام وأولاده أكرموني وقرّبوا رتبتي فأحسنوا مقامي وجعلني مطهر رأس عسكره الأروام ولم تزل رتبتي تسمو عندهم حتى كنت أخالط الإمام أشد الاختلاط ولو أردت قتله لفعلت إلا أني رأيته رجُلاً عاكفاً على الصلاة والسجود والركوع محافظاً على تلاوة القرآن حسن الصورة أبيض الوجه واللحية ورأيت فيه دلائل البركة والفضل والصلاح فلم تطاوعني نفسي على أني ألقى الله بدمه، وأما المطهر فلقد رأيت عليه من الهيبة والجلالة ما كان يرتاع لها عقلي، ويذهل عندها حسّي مع شدة حزمه وتحفّظه من الاختلاط والمنازحة والمداخلة والمواصلة، ومع ذلك أن عنده من الحماة والكفاة والذابين عنه والكالين له طائفة نافعة وعصابة دافعة، فلو رمت منه أمراً لما هممت حتى تؤخذ نفسي على رؤوس السيوف من قبل أن أُحدِّث به حدثاً. وأما شمس الدين فلقد كان يدنو مني دنو الأخ من أخيه، والإبن من أبيه، مع حسن أخلاق وانبساط وإشفاق، فلو رمت قتله لما أعياني ولا فكرت فيه إلا أني رأيت رأياً وهو أني لو قتلته لكان قتله سبباً لقوة مُلك الإمام وذلك لأجل انفراد المطهر بالأوامر، واتحاده على الواقف والسائر، وما دام شمس الدين مقارباً له مخالفاً لرأيه، معارضاً له عند أبيه مع ميل أبيه إليه، واتكاله في جميع الحالات عليه، فبذلك أرجو زوال ملكهم، وانتثار سلكهم، وسوف يبلغكم ما يجري بينهم ويئول إليه أمرهم بواسطة الاختلاف، وعدم الائتلاف، فلما شاموا برقه، علموا صدقه، وبسطوا عذره، وأوسعوا شكره، وصحت فراسة حسن بهلوان، في ذلك الشأن، وكان الأمر كما تفرس فيه.

ثم نرجع إلى ما كنا نقتفيه: ثم أن المطهر توجه إلى ثلا، لما أظهر الصدّ والتقلي، والإمام عاد إلى الجراف، وأظهر عند ذلك الخلاف، ثم أن المطهر غزا حائط الشوكيين في اليون ونهبه، وقضى منه أربه، فوجه الإمام ولده شمس الدين لقتال المطهر بجميع العسكر ولم يبق عنده غير الخواص، وأهل الصدق، والإخلاص، فلما بلغ المطهر خلو الجراف، عن الرماح والأسياف، قال هذا المغنم البارد، والعيش الهني الوارد، فأمر الأمير عبدالله بن أحمد بن الحسين الحمزي والنقيب فرج عجمي وفرحان عبقري وصحبتهم جملة من عسكره من الأروام والعبيد، وانتخب من العرب أهل البأس الشديد، وتقدم الأمير عبدالله ومن انضم إليه، وقال له إذا أخذتم الجراف قهراً، فلا تحدثوا في الإمام أمراً، وصونوا جنابه، وأحسنوا خطابه، وأما من ظفرتم به من أصحابه، وأهل حضرته وجنابه، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. وكتب إلى الرتبة التي بطيبة، وهو جوهر أبكر والقاضي يُنيّان، بأن ينضموا إلى العسكر الواصل من حضرته.

<u>حالة إتفاقية دلت على صلاح النية:</u> وكان من براهين الإمام شرف الدين التي لا تجحد، ولا ينكرها أحد، أن النقيب مبارك شعبان في الليلة التي وجه فيها المطهر لغزو الجراف وصل من حراز بمقدار خمسمائة من أعيان العسكر الرماة المبندقين، ولم يكن قد شعر بذلك المطهر ولا علم بوصول العسكر، فما شعروا في الجراف إلا بوصول العساكر المطهرية، وحدوث تلك البلية، وقد لمعت بوارقهم، وانتشرت بيارقهم، وقد شرعوا في نهب السوق، في أول الشروق، ففزع الناس إلى السلاح، وثار الكفاح، وأقبل مبارك شعبان مغيراً، ومنقذاً ونصيراً، وخرج من في صنعاء من أهلها لأجل الغارة، ودفع تلك الجنود الضارة، فجرت حربٌ بين الفريقين إلى نصف النهار وقتل من أصحاب المطهر عدّة من الشجعان، وذلك على يد مبارك شعبان، وحصل مع الإمام ما ضيّق أعطانه، وأثار أحزانه، وانصرف أصحاب المطهر ولم ينالوا

مرادهم، ولم يحمدوا إيرادهم وإصدارهم، ودعى الإمام لمبارك شعبان وشكره، ولحظه ونظره، وكانت هذه القضية من أعجب ما جرى، وأغرب ما حدث وطرا. وأما شمس الدين فتقدم إلى نجر لقتال أخيه، وأرسل ولده صلاح إلى حصن حضور الشيخ فحط فيه، ومع هذا وهم في معان الخوف من المطهر، ومقاساة الفكر في العشي والبكر، ثم أن المطهر وجه إلى البلاد اليمنية كتباً دونها الكتائب، وأوراقاً جلبت الحتف والمصائب، وعرّفهم خروجه عن طاعة والده، فرقاً من معانده، وحرضهم على عدم الطاعة للإمام وإبعاد ولاته والحكام، فلما وصلتهم كتب المطهر، وعرفوا بأن قد حصل بينه وبين أبيه الشر، وإنما كانوا يرقبون عدواته، ويخشون بطشاته وغزواته، فامتنعت الرعية عن دفع المال، وانحرف تقويمها ومال، وكانت البلاد إلى شمس الدين بن الإمام بعد أن رُفعت يد أخيه منها، وصُرف عنها.

وحدثني شيخي عبدالله بن صلاح بن داعر، قال حدثني القاضي الهادي التوهمي كاتب المطهر بن الإمام أن المطهر الزمه أن يكتب إلى قبائل اليمن في ليلةٍ واحدة ثمانين كتاباً يحثهم على الخلاف، ثم إنهُ كتب كتاباً إلى أويس باشا عقيب وصوله إلى زبيد، وقد كان تقدمه إلى ولاية زبيد شخصٌ يقال له فرهاد باشا أقام في زبيد أياماً وعاد إلى الحضرة، وذكر لي القاضي العلامة أمين الدين بن عبدالعليم الأحمر أن فرهاد باشا المذكور أول من أمر بذكر الحسين على المنبر في الخطبة، وكان كتاب المطهر بن الإمام إلى أويس باشا يحثه على الطلوع، وسدّ تلك الصدوع، وأنه يجيشه ويعضده، ويمدّه ويؤيده، وحسن له أخذ البلاد، وعرفه أن معامليه عن أبيه وأخيه لا يخشى من نزال ولا جلاد، فعند ذلك نهض أويس باشا بتلك العساكر الجرّارة، والبحار الموّارة، وانصرف بحركته اليمن، وتمكن من القلوب الشجن والحزن، وأطبق ليل الفتن، وطوى المراحل طيّاً بكرة وعشيّا، حتى أناخ على مدينة تعز وحاصرها وأطلع صحبته مدافع لم يقدر أحدٌ على إطلاعها سواه، ومع ذلك قد تيقّنت قبائل

اليمن خلاف المطهر على الإمام، وأمنت سطوته التي تحيّر الأفهام، فإنما كان يراقب أهل تلك الجهات جميعها إلا المطهر وكان له في قلوبهم هيبة تغنيه عن سل السيوف، وتجهيز الألوف، فكانت هذه أقوى الأسباب على نصرة السلطنة وظفرها، فوقف الباشا محاصراً لتعز أياماً يسيرة وكان غير واقع على طائل منها وانقطعت عنه الطرقات وفقدت الأزواد حتى كاد يرتفع منها بمن معه، وكان في جبل التعكر عنية من قبل شمس الدين بن الإمام ووالٍ يقال له مرجان الزبيدي اشتد جوره على أهل تلك البلاد وسامهم سوء العذاب، ولم يرفق بهم في هذا الوقت الذي ينبغي لكل عاقل أن يلين فيه ويعامل الرعية بما يسكن فورتها، ويكف سطوتها، لاسيما مع اختلاف الدولتين وقتال العسكرين، وكان جملة الحماة لتعز أهل هذه البلاد التي عمّها الجور المقلق، والظلم المحرق، أهل حُبيش والصوافي وصهبان والعربيين[١] والمخلاف، فخالف أهل التعكر على مرجان الزبيدي وانزلوه من الجبل ولحقوه، ولولا أنه فرّ إلى بعدان لما خلص من أهل تلك البلدان. ولما بلغ أصحابهم الذين في تعز خلافهم في بلادهم خرجوا إلى حضرة الباشا أويساً جميعاً ثم سارت تلك القبائل بعدهم إلى مواجهة السلطنة أفواجاً، وأوضحوا في ذلك منهاجاً، ولم يبق في المدينة من يحرسها من العدو، ويحميها في العشي والغدوّ، ولما فطن لذلك الفقيه يحيى النصيري تحيّز بمن معه من عسكر القبلة الزيديين إلى جبل صَبِر ووقف باقي يومه وهو يوم عيد الأضحى من السنة المذكورة، ودخلها العساكر السلطانية، والجيوش الخاقانية، في ذلك اليوم. ومن أعجب ما جرى أن جنود السلطنة دخلت تعز بكرة عيد الأضحى وبلغ الخبر إلى حضرة الإمام وهو في مصلى العيد خارج باب شعوب تلك اللحظة بنفسها وهي التي دخلت فيها السلطنة تعز المحروسة، وأما الفقيه يحيى النصيري فبقي في جبل صبر حتى اختلط الظلام،

---

(١) العَرابيون: بفتح فسكون فكسر الباء، مركز إداري من مديرية السَّياني وأعمال محافظة إب. يقع في المنطقة المعروفة قديماً باسم: تعمية صَهُبان.

وهدن الأنام، وانسل في ستةٍ من جماعته ورفقته وتفرّق الناس بعده كل يذهب على وجهه إلى غير وجهة وسُلب الناس ولم يبق لأحدٍ ما يستر عورته، ويحجب سوءته، ولم يقتل إلا القليل، بفضل الله الجليل.

فلما بلغ الإمام وشمس الدين استيلاء أويس باشا على تعز واليمن، وأن قد دخل منهم تحت طاعته من شطّ وقطن، سُقط في أيديهم وعلموا أنهم أساءوا بمعاداة المطهر وفرطوا في إيحاشه وعدم إيناسه، وأنهم الذين جنوا على نفوسهم هذه المعضلة، والرزية المقتلة، وكان الرأي ترك المطهر على ما كان عليه، واجراه على ما حسب لديه، واتضح لهم الزلل، وقد سبق السيف العذل، ليقضي الله أمراً كان مفعولا، ثم أن الإمام وأولاده تفاوضوا ما الرأي الأهم، والركن الأعظم، في رقع هذه الخروق، وسد هذه البسوق، وأجمع رأيهم على أن مالها غير المطهر، ولا يقوم بأعبائها سوى ذلك الهمام الأطهر، وقالوا كيف يكون الطريق إلى مراجعته، ومكاتبته، وقد جرّعناه الغصيص، وترقبنا له الفرص، وانتظرنا له الدوائر الراصدة، وفوقنا نحوه سهام المكر القاصدة، أو الرأي في تلك استدعاه، ونقاتل عونه الذي استغاث به واستدعاه.

رأيٌ رآه أهل تلك السمرة من المقربين في تلك الحضرة: فقال بعض الحاضرين للإمام وشمس الدين: إني سأوضح لكم منوالاً، وأضرب فيه مثالاً، اعلموا أن أهل الطب ذكروا في تشريح أعضاء الإنسان، وعلاج الأمزجة المختلفة في الأبدان، أن العليل إذا بلي بعلّتين متغايرتين، علاج أحدهما يضر بالأخرى. عالج الأخطر منهما، وتوخى لأهمهما، وقد عرفتم أن العساكر السلطانية، والأجناد العثمانية، مالها في هذا الوقت حركة إلى هذه الديار، ولا إسراع إلى سكون هذه الدار، وهم في شغل شاغل، من افتتاح الخراج وأخذ المعاقل، فيحسن منكم علاج العلة الخطرة، المهلكة المضرّة، وهو مداواة الخصم القريب، والعدو المريب، الذي جرّعتموه الغيض، وأصليتموه من هجير هجركم القيض، فها هو بمرءا منكم ومسمع، يطلب الوقيعة بكم وكأني به قد

أوقع، فقالوا له نعم ما دللت عليه، وأشرت براجح عقلك إليه، فاستعطفوه بكتابٍ حاوٍ لبديع الخطاب وعرفوه أن عند الشدائد تذهب الأحقاد، وفي الاتفاق والائتلاف قهر الخصم وبلوغ المراد، وأنه لا يؤاخذهم فيما مضى، ولا عتب على الإنسان فيما يسوق القضاء، فعزم ذلك الرسول بمضمون القول والمطهر في ثلا، فلما وصله الرسول وسمع الإملاء، استشهد منشداً، وأعلن مفرداً:

وإذا تكون كريهة أُدعى لها

وإذا يحاس الحيس أدعى جندبُ

الحمد لله الذي قهرهم، وإلى طاعتي اضطرهم، وفي الدخول على ما أقوله جبلهم، وباستماع كلام الخصم أضلهم فأذلهم، ثم أجاب: إني لا أدفع عنكم شراً، ولا أسدّ ثغراً، ولا أقابل حرباً، ولا أقاتل حزباً، ولا أشمر في ذلك ولا أسعى إلا بتسليم صنعاء وجميع الحصون، وما حوته من المخزون والمشحون، والذخائر والسلاح، وآلة الحرب والكفاح، وجميع من يتعلق بالإمام يتأخر في صحبتي، ويجد في خدمتي، ولي فيه إنفاذ الأحكام، في البطش والانتقام، فإذا كان الأمر على هذا المقول، فحي هلا على الوصول، وإن نقص من مشروطي هذا أو قل، فلا ناقة لي في هذا ولا جمل، فاسعدوه إلى مرامه، والدخول في ضمن أحكامه، وسلموا جميع ما قال، من المعاقل والاثقال، ودخلت صنعاء في ملكه، وانتظمت في سلكه، وأخذ على أخوته في الموالات العهود، وخفقت عليه بالإستقلال البنود، وذلك في ذي الحجة الحرام من سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة، ولم يبق مع الإمام وشمس الدين وعلي غير أفراد من الحصون كان فيها الاستثناء وهو كوكبان والعروس[١] لشمس الدين، وعزان بني عشب[٢] وكحلان تاج الدين[٣]

---

(١) العروس: جبل من بني مطر في غربي صنعاء، يحاذي جبل كوكبان من جهة الجنوب.

(٢) عزّان بني عشب: بلدة وحصن في جبل كحلان عفّار، شرقي مدينة حَجّة.

(٣) كحلان تاج الدين: هي كحلان عفار.

وجرع[١] لأولاد الإمام الحسن ورضى الدين، وحصن ذي مرمر وعزان الفُص[٢] لعلي بن الإمام شرف الدين، وسُلمت إلى المطهر الحصون جميعها وبيوت الأموال وجميع البلاد، وكافة الأجناد، وحلف له الناس وبايعوه، وناصروه وشايعوه، وتوجه الإمام إلى كوكبان في سنة ثلاث وخمسين.

ودخلت سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة:

وفيها ضربت السكة باسم المطهر بن الإمام.

ودخلت سنة أربع وخمسين وتسعمائة:

وفي المحرم منها توجه المطهر نحو صنعاء مستقر ملكه وتخته، بعد أن قارن السعد طوالع بخته. ولما استقر بها قبض على أصحاب الإمام، الذين عبثوا بالأنام، واجتاحوا الأموال والذخاير، وكنزوا ما جبته البلاد والبنادر، وهم مكاوش وسلب وصلاح حمزة وقاطن والفقيه غالب، وعرضهم على العذاب والنكال فاستأصل ما كنزوه، وأبرز ما وكزوه، ثم عرّف الإمام بأن يكتب إلى أخيه عز الدين بتسليم حصن الزّاهر، وقد كان عمره وانفق عليه الذخائر، وكذلك أمره بأن يأمر شمس الدين بتسليم سوق دعام والخلق[٣] وفي عمارته قام شمس الدين وقعد، وأبرق وأرعد، فسلموها وفي القلب شجى، وفي العين قذا، وخلت منها الراحة، ولم يسعهم إلا التسليم وفيه راحة.

وفي هذه السنة أخذ علي بن سليمان البدوي صاحب خنفر مدينة عدَن وبها استقر وسكن.

---

(١) جُرَع: بلدة وحصن في مركز بني مَوْهِب، بمديرية كحلان عَفَّار.

(٢) ذي مرمر، والفص: حصنان متجاوران من مديرية بني حِشَيْش وأعمال محافظة صنعاء.

(٣) سوق دعام: منطقة من مديرية الزّاهر وأعمال محافظة الجوف، وقد يُقال له اليوم: سوق أدعام. والخلق: مديرية من مديريات محافظة الجوف. تقع بلدانها غربي مدينة الحَزْم بمسافة ٣٠ كيلاً.

وفيها وثب على زبيد الأمير حيدر، وكان من أصحاب حسن بهلوان، وذلك عقيب قتل الباشا أويس، فبلغ الخبر أزدمر باشا فوجه عليه الأمير موسى وأمره بأن يقبض على كل من سعى في طريق الفساد من الأروام، وينكل بهم ويجرعهم الحمام، فوصل الأمير موسى إلى زبيد أول يوم من شعبان من السنة المذكورة، وقد كان الأمير حيدر لما بلغه قدوم الأمير موسى أراد أن يخرج لحربه وقصده فقبض عليه الأمير موسى وعلى من نهج نهجه ودخل بهم بعد صلاة الجمعة في اليوم المذكور وهم بين يديه مشاة عدتهم ثمانية أنفار: الأمير حيدر والكيخيا صفر ومحمد كاشف بيت الفقيه بن عجيل، وخمسة إليهم، ودخل بهم إلى الدار السلطانية وأمر بنهب بيوت الأمير حيدر ومن يلوذ به. ثم إنه أمر بلزم جماعة ممن نُسِبَ إليهم قتل الباشا أويس فجعل يؤتى بهم إلى أن صاروا أربعة عشر نفراً فأمر بقتل جماعة منهم وقت صلاة المغرب من اليوم المذكور وهم: صاري سنان وعلى بالي وسنان متفرقة وحيدر شاوش، وأشباههم ممن عُرف بالفساد، وسار في طريق العناد، ثم أن الأمر وصل إلى الأمير موسى بقتل الأمير حيدر وصفر كيخيا ومحمد كاشف بيت الفقيه، فقتلوا في يوم الاثنين رابع شهر شعبان من السنة المذكورة. وكانت مدّة تغلب الأمير حيدر على زبيد أربعين يوماً غير اليوم الذي خرج فيه إلى الحيس وهو يوم الخميس بعد العصر آخر يوم من رجب من السنة المذكورة. ثم تجهزت العساكر السلطانية إلى عدن وحصروا على بن سليمان البدوي فيها، وقد كان جرى بينه وبين الفرنج محالفة بأنهم يكونوا على السلطنة يداً واحدة، وما برحت أجناد سلطان الإسلام تجهز على عدن حتى دخلت سنة خمس وخمسين وتسع مائة، ثم أنها جاءتهم غارة ممدّة إليهم من حضرة داود باشا من مصر، وصل بهم القبطان، فأخذت عدن قهراً بالسيف، وقُتل علي بن سليمان البدوي

وأكثر من معه وأُسر الباقون. ولما استولى عسكر السلطنة على تعز وجهات اليمن وبعض حصونها غير التعكر والدُملوه[1] وخدد[2] والخضراء[3] في حبيش وبحرانة[4] في المخلاف، وتغيرت أحوال الرعية وقل خوفهم وظهر منهم ما ظهر من الاضطراب فنزل من أهل إرياب[5] وبني سرحة[6] من نزل إلى السلطنة يجرونهم إلى جهات طريق ما بين بني غصين[7] والكينعي[8] فصالت عليه قبائل تلك الجهة وهم في الحوزة المطهرية وقتلوه ومن معه ووصلوا برأسه إلى المطهر بن الإمام إلى محروس صنعاء، وقال لي من شاهد رأسه بين يدي المطهر أنه كان قد أنتن وتغيّر وهامته صغيرة جداً، فسبحان الحي الذي لايموت، دائم البقاء والثبوت. وسكن في صنعاء اضطراب الناس بعد قتل الباشا وحسن بهلوان، وخالطهم أمان، ولبعض البلغاء بعد قتل الباشا أويس يمدح المطهر ويذكر قتل الباشا من غير قتال، ولا حرب ولا نزال:

للعبد في الله عند الكرب ألف رجا

من عج فيه إليه عجّل الفرجا

---

(١) الدُملّوة: بضم الدال واللام، قلعة منيعة مشهورة تقع فوق قرية المنصورة من جبل الصُلو، على بعد نحو ٦٠ كيلاً جنوب شرق مدينة تعز.

(٢) خَدِد: بفتح فكسر، حصن أثري مشهور بالمنعة، يقع في منطقة العارضة، من جبل حُبَيْش، بشمال مدينة إبّ ومن أعمالها.

(٣) الخضراء: هو جبل خضراء في قمة جبل حُبَيْش.

(٤) بحرانة: حصن في أعلى منطقة السِيَف، بالغرب الشمالي من مديرية ذي سُفال وأعمال محافظة إب. وهو اليوم خرائب وأطلال.

(٥) إرياب: بكسر الهمزة. بلدة من مركز السيف بمديرية ذي السفال.. وهي غير جبل إرياب المطل على نقيل سُمارة.

(٦) بنو سرحة: مركز إداري من مديرية المخادر وأعمال محافظة إب.

(٧) بنو غُصَيْن: بضم ففتح فسكون، مركز إداري من مديرية عُتُمة وأعمال محافظة ذمار. يقع بالقرب من بلدة سَمَاه بني النوّار.

(٨) الكينعي: مركز إداري من مديرية ضُوران آنس وأعمال محافظة ذمار، يقال له اليوم: الكينعه.

مـا نابـه نـائبٌ مـن دهـره فلجـا
إليـه إلا لعـاني دهـره فلجـا
وكلمـا اشـتد أزم الدهـر لاح وجـا
وقـال حـال غيـاث الله لا حرجـا
الحمـد لله حمـداً لا انحصـار لـهُ
حمـداً حزيـلاً جليـلاً طيبـاً أرجـا
إذ بان برهـان صنعـاء المدينـة بـل
قرانـها وزهـا غمـدان وابتـهجا
بقتـل أعظـم ملـك قـاهرٍ خطـرٍ
بالماضيات على الأرواح قـد خرجـا
احنا على الأرض من مصر إلى عدنٍ
ورام بـالرّوم أقمـار السـما هوجـا
وبالمطـهر مَـدَّ اللهُ مدتَـهُ
لا طاش حلماً ولا ذهنـاً ولا اختلجـا
حمـى المـهيمن عنّـا كـل جائحـةٍ
وأيّ كربٍ على الإسـلام مـا فرجـا

نُكْتَةٌ لطيفةٌ: وقد كان جرى في سنة إحدى وخمسين قران الثقليـن فـي المثلّثة النارية في برج القوس الذي دلّ على ملك سـلطان الإسـلام لصنعـاء وبلادها، فسئل السيد صلاح بن شمس الدين بن الإمام شـرف الديـن الفقيـه العلامة افلاطون زمانه، وبطليموس أوانه، صلاح بن محمد العنجور، عن حكم هذا القران، وما يحدث منه في الزمان، فأجاب عليه أن لا بد أن تملك الدولـة

العثمانية الأقطار اليمنية بالسيف والقوة، وتأخذ صنعاء عنوة، فلما خرج أويس باشا ملك اليمن من تعز إلى عدن فطلع إلى صنعاء وقُتِل في الشلالة[١] كما شرحناه وأوضحناه، كتب السيد صلاح بن شمس الدين إلى الفقيه صلاح العنجور: صدق الله وكذب المنجمون، فرد الجواب في غرة الكتاب، وقال فيه: ياسيدي صلاح إذا بلغك أن عاد في محطة الأروام جارية لم تقتل فهي التي تأخذ صنعاء قهراً بالسيف، وتعامل الناس بالحيف. وكان الأمر كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ونرجع إلى ما كنا في ذكره، من ازدمر وخبره، ثم أن ازدمر وقف في ذمار أياماً وتجهز بعد ذلك للطلوع إلى محروسْ صنعاء في شهر جمادي الآخرة من السنة المذكورة، ولما قرب منها رجَّح المطهر بن الإمام خروجه منها وترك فيها من الأعيان ولد أخيه صلاح بن شمس الدين والسيد شرف الدين بن الحسين بن عز الدين والأمير حسن بن الصيّاد والسيد علي بن محمد زيد بن محمد الفقيه وعلي بن همدان الذي كان والياً في قاهرة تعز وغيرهم من الأعيان، وترك معهم من الخيل قدر مائتين وخمسين ومن البنادق ثلاثمائة ومدافع، ثم عزم طيبة وقف فيها ليلة، ودخل أزدمر بمن معه إلى قرب صنعاء فتوجه عليهم المطهر بن الإمام في ليلته تلك مع الصباح، وناوشهم الكفاح، بالقرب من باب المنجل[٢] فجرى بين الفريقين حربٌ عظيمة قُتل فيه من عساكر السلطنة فوق عشرين نفراً، وفي خلال ذلك خرج العسكر المقيمون بصنعاء لقتال من بقي من عسكر السلطنة وقتلوا جماعةً وأخذوا بعض خيامهم، ثم وقف المطهر تلك الليلة في قرية السنينات[٣] ولما كان يوم الخميس ثاني

---

(١) الشلاّلة: قرية في سائلة زُبيد من مديرية عنس وأعمال ذمار.

(٢) باب المَنْجَل: موضع من سهل صنعاء الشمالي الغربي، عند مدخل قرية مذبح، يقابله اليوم الباب الشمالي للجامعة الجديدة القريب من مساكن أساتذة جامعة صنعاء.

(٣) السِنَيْنَات: منطقة في غربي سهل مدينة صنعاء، أسفل جبل عَصُر.

شهر رجب من السنة ضربت مدافع السلطنة على صنعاء من باب السبحة حتى أثّرت في موضع منها فأراد المطهر بن الإمام إرسال خيل تطرش عليهم وبعض الجند يقفون في أماكن حريزة منيعة عزيزة يشغلونهم عن مقاتلة المدينة من غير ملازمة قتال، فعزم صنوه شمس الدين بجماعةٍ من الجند لذلك، ولما شاهدهم مركز السلطنة أقبلوا عليهم قضهم بقضيضهم، فانهزمت تلك الخيل الطاردشة، وولت القلوب طائشة، وقتل من أصحاب المطهر جماعة، فلما شاهد الحال المطهر حمل بنفسه حملة الريبال وحمل من معه وقامت الحربُ على ساق، واشتد الخناق، وحصل من بعض من شهد ذلك اليوم، غدرٌ يقيم عليه اللوم، فانهزم بغير هزيمة، وموجبها الحناتُ القديمة، فانهزم المطهر بن الإمام عقيب ذلك، وسلمه الله من المهالك، مع أنه في أخريات المنهزمين، وعقيب المعلومين. ولما وصل المطهر إلى ضُلاع[1] وإلى نقيله ارتفع، فارقه أخوه شمس الدين إلى كوكبان، وتوجه المطهر إلى ثلا في ذلك الأوان. وأما صنوه علي فإنه لمَّا بلغه وصول الباشا أويس إلى خبان، طلب من أخيه المطهر الطيافة على أولاده في حصن ذي مرمر، ولما استقر فيه كتب إلى عند أخيه المطهر يعتذر من النزول إليه، والمثول بين يديه، لأمر قضاه الله، فسبحان من لا يرد قضاه فيما أمضاه، وبلغ علي بن الإمام ثاني وصوله ذي مرمر قتل الباشا، فقطع بالذي يخشى، ووقَعَتْ معه وحشة من أخيه المطهر نوّعت له الفكر فكتب إلى القبائل وهي كلها تحت طاعة أخيه، يستميلهم إليه، وبذل لهم العطاء.. فوَصَلَ من وَصَلْ، وانْفَصَلَ من انفَصَلْ، وانشقت بينه وبين المطهر العصا، وخالفه وعصا، وكان من أقوى الأسباب في طلوع أزدمر نمار، وهو الذي أدار فلك الفتنة ذلك المدار، فإنه كتب إلى ازدمر يحثه ويستدعيه لأخذ صنعاء وقتال أخيه وشرط له جوامك العسكر سنة إن أثاروا الفتنة على

(١) ضُلاع: بلدة وواد في شمال غرب صنعاء بمسافة نحو ١٠ أكيال، ويقال له: ضلاع همدان لأنه مركز قبيلة همدان صنعاء.

المطهر، وقد كان من عبدالله السريحي أحد العسكر الأمامية الذي ذكر فيما سلف بأنه كان يُهدّي ازدمر في ذلك المنهج المستمر، وصحبه شيخ من خولان يقال له سند بن المهدي من بني سحام[1] فرّ من منازلة الحمام، ومصافحة الحسام، وكان الأشراف الحمزيون ناصر وصنوه عبدالله يظهرون الميل إلى جانب المطهر والوصول إليه للقاء ذلك العسكر، فلما بلغهم الإغاثة، والغارة الحثّاثة، امتنعوا وأرسلوا رسولاً إلى ازدمر من أولادهم ولم يفوا بوعدهم، وقد كان التزموا للسلطنة بأنهم يشغلون عز الدين بن الإمام شرف الدين بنفسه في صعدة، ويباكرونه بالعدّ والعدّة، والجياد المعدّة، وخرج عز الدين إلى جازان وتهامة، وقامت إلى صنعاء القيامة، وترك في صعدة من الأشراف أهل براقش وغيرهم من الجند من عرف كفايته، ونصرته وحمايته، وعزم إلى جازان ونصب على القلعة منجنيقات وعرادين، وكتب إليه والده الإمام شرف الدين أن يعود إلى صعدة في خلال قصد الترك لصنعاء، فوقع منه التراخي، ولما عاد إلى صعدة بلغه ما كان من أمر الاروام في صنعاء. وأما صنعاء فإن الحرب ضايقها، والويل عانقها، وأقام عليها من غرّة رجب إلى يوم الاثنين سابع الشهر المذكور، وجرى بين ازدمر وشخصٍ من الرّحبة[2] يقال له سعاد العنجري، كان رتبه من قبل المطهر بن الإمام في خندق باب شعوب، المساعدة في اطلاع عسكر السلطنة من جهته فما شعر صلاح بن شمس الدين ومن فيها من أجناد المطهر بن الإمام إلا وبيارق السلطنة تخفق في دائرها، وترجف بعساكرها، فدخلوها شروق الشمس ذلك النهار، الذي كان فيه الهلاك والبوار، فجرى بين عسكر المطهر وعسكر السلطنة مناوشة حرب لا تشفي

(١) بنو سَحَام: قبيلة ومنطقة من خولان العالية في شرقي مدينة صنعاء، على بُعد نحو ٣٥ كيلاً.

(٢) الرَّحَبَة: بفتح الراء المشددة وفتح الحاء والباء، قاع فسيح يمتد من الروضة شمال مدينة صنعاء حتى بلد أَرْحَب.

قلياً عقد السائلة وبستان السلطان[1]، ثم انهزم صلاح بن شمس الدين ومن معه وتوجه تلقاء القصر، ودخله من حينه وخرج من باب النصر، بجملة العساكر والخيل ولم يقف أثره أحدٌ من أرباب السلطنة بل شغلوا بالنهب والسلب والقتل، وقتل من صنعاء مقدار إثنى عشر مائة، ونهبت البيوت، وأخذت النساء والبنون، وباعوهن في الأسواق، ومن الناس من زال عقله، ومن النساء من قتلت نفسها. واشتد فيها الخطب، وكثر فيها السلب والضرب، وفقد من أعيان صنعاء عدة، وأناخت عليهم الشدة، إلى نصف نهار ذلك اليوم، وصاح الأمير أزدمر بالأمان والإنصاف، ورفع اللهاذم والأسياف، وأما صلاح بن شمس الدين فإنه لما خرج من صنعاء مهزوماً محزوناً مهموماً ووصل إلى حضرة عمه المطهر بن الإمام، أخبره بذلك الحادث العام، ولما صح لعز الدين بن الإمام أخذ صنعاء بالسيوف، وما أضل بها من الأمر المخوف، تجهّز بعد أيام بمن معه من العساكر، إلى جهات الظاهر[2]، وكان معه من الأشراف أهل الجوف جماعة منهم محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين أخو الأمير ناصر بن أحمد تركه في صعدة هو والسيد شرف الدين الحسين بن عز الدين بن الحسن بن الإمام عز الدين بن المؤيد، وهو من الثبات والشجاعة بمكان، وكان في صنعاء على ما ذكرناه في صحبة صلاح بن شمس الدين في صنعاء وقت المحاصرة ودخول الأتراك إليها، وكان عز الدين بن الإمام كثير الإعجاب بمن معه من ذلك الجيش اللهام، يظهر التنحح بما يفعله من الحركات في الصدام، وكان مضمراً لكراهة المطهر بن الإمام، ومنابذته لو ظفر بالمرام، وأول شيءٍ شعّب صدوعه، ونفى هجوعه، فرار أشراف الجوف بدروعه وخيله، ومفارقتهم له في صبح ليله، ولما وصل بعرمرمه الباهر، بلاد الظاهر، أقدم

(١) بستان السلطان: من أحياء مدينة صنعاء بجوار السائلة.

(٢) الظّاهر: مركز إداري من مديرية خَمِر وأعمال محافظة عمران.. وهناك مناطق أخرى تحمل ذات الإسم.. أنظرها في المعجم.

على قبائله، واشتدت وطأته على مواصله، وأخذ منـهم الرهـائن، وتوعدهـم بالبطش الكائن.

رأيٌ رآه المطهر لعز الدين خالفهُ فكان من الهالكين: وعَرَفَ المطهر بتقدم أخيه عز الدين إلى الظاهر، وفهم من فحواه السكون بها لقتال الخصم القاهر، فكتب إليه كتاباً يقول فيه: إن وقوفك في ذلك المحل لا يليق، ولا يأمن به الصديق، فقد عرفت عيب أهل الظاهر، وأن طاعتهم في الظواهر، ولا آمن عليك أن تستميلهم أشراف الجوف، فيمسّك الخوف، والرأي أن تنهض على اسم الله المبدي المعيد، إلى جبل عيال يزيد[1] واجعل لك تفويضاً في تلك البلاد، وأمدّك بأعظم الأمداد، فإن دَهَمَكَ من الخصم أمرٌ فالغارة إليك من عندي سريعة الوصول، وحيّة المحصول. ومع استقرارك في ذلك المحل النازح، مع العدو المصابح، لا يمكن منّي الغارة عليك، ولا الوصول إليك لبعد الديار، وانتزاح القرار، وقد علمت أني لا آمن على ثلا، من طروق اللأواء، وإن جرى عليك، والعياذ بالله، حادث جسيم، فالخطب عظيم عميم، والفلّ في حدّنا، والقل في عدّنا.

وانت امرءٌ منّا خُلقت لغيرنا　　حياتك لم تنفع وموتك فاجع

فأعاد على المطهر الجواب يقول فيه: ما ذكرت من انتقاليَ إلى جبل عيال يزيد، فمن الله استمد المزيد، وأنا إن شاء الله ظافر بالأروام، وجاعلك في الختام، فأنت رأس الأعادي، الحاضر منهم والبادي. فلما وقف المطهر على جوابه، علم أن الإدبار قد الوى به، وتقدم لقتال عز الدين بن الإمام الأمير ناصر بن أحمد بن محمد بن الحسين ولديهم بضعة من العساكر السلطانية.

---

(١) جبل عيال يزيد: جبل ومديرية في شمال مدينة عمران ومن أعمالها.

ولما علم عز الدين أنهم قاصدوه، وشم من أنفاس القبائل ما ذكره أخوه، كتب إلى الإمام يستمدّه الغوث قبل الهلكة والإجتياح، والإمداد بالعدة والسلاح، وقد كان مال شمس الدين إلى السلطنة وانعزل، واختلط بهم واتصل، على رأي والده الإمام. وأعاد الإمام جواب عز الدين بعدم الإسعاد إلى المراد، فحَنَّ قلب المطهر على أخيه، ورق له مما هو فيه، وكتب إلى عند والده الإمام يطلب منه الإعانة لعز الدين، وأنه يعزم بنفسه هو وصنوه شمس الدين بمن معه من الأجناد، الكماة الأمجاد، فأجاب عليه الإمام بتعذّر ذلك المرام، وأنه لا يكتفي من بقاء شمس الدين عنده بأجناده، وأنصاره وأعضاده، فخشي المطهر أنه إذا عزم بمن معه لنصرة عز الدين خلفه أخوه شمس الدين إلى ثلا لقصد من فيه وإتلافهم، وأخذهم واجتحافهم، فكتب إلى صنوه عز الدين وأوضح له عذره، ولما وصلت عساكر السلطنة بمن معهم من الأشراف، ووقع بينهم وبين عز الدين المصاف، كانت فيها الدائرة على عسكر السلطان ومن معهم، وقد كان جنح بمحطته في موضع يسمى جبل صبح[١] ومعه من قبائل حاشد وبكيل أكثرهم كمرهبة[٢] وبني جبر[٣] والصيَد[٤] وغيره، وأظهروا له محبة القيام معه والجهاد، فأنس إليهم وترك الحزم وعزم لقتال الأروام والأشراف، وقد وهنوا لما أصابهم من الموطنين الأولين، وفي الليلة التي قصدهم عز الدين في صبحها أرسل الأمير ناصر بن أحمد من أرسل إلى قبائل الظاهر على يد

(١) جبل صُبح: من جبال مركز المخلاف، بمديرية الحيمة الخارجية في غربي صنعاء. قريب من منطقة خميس مَذْيُور.

(٢) مَرْهِبَة: قبيلة من بكيل، منازلهم في غرب مدينة ذي بِين وجنوب بني قيس حاشد.

(٣) بنو جُبَر: بضم الجيم وفتح الباء، هم الفرع الثالث من قبيلة خَارِف إحدى قبائل حاشد. من ديارهم ذي بين، والغولة، ودَرْب هِرّان، وغيرها.

(٤) الصَيَد: بفتحتين، أحد فروع قبيلة خَارِف الحاشدية، وديارهم بالشرق من مدينة ريدة في مديرية خارف وأعمال محافظة عمران

رجل من أهل خَمِر[1] يقال له عامر العريجي وذكر لهم: إني إنما أردت مدافعة ولد الإمام بالأروام عنكم وعن جهاتكم وقد عرفتم جوره وما بقي من الغيظ في نفسه عليكم فإن أحببتم قيامنا لكم ومعكم أجتمعت كلمتكم علـــى القيـــام معنـــا والاعانة لنا عليه، وإن لم تفعلوا تركناه وإياكم، وسوف ترون منه ما تكرهـــون وتطلبون منا بعد ذلك مالا تجدون. فمالت قلوبهم إلى كلامه مع ما كان يخشونه من فتك عز الدين بن الإمام، فأحكموا الأمر بينهم في الليل، ولما عـــزم عـــز الدين على ملاقاة عساكر السلطنة الأشراف بمن معه لم يترك في محطته أحـــداً من أجناده وحفظته، وأمِنَ القبائل عليها فوصلت غوائر القبائل في صورة أنـــهم ممدّون لهُ، فلما خالطوا محطته ووصلوها وهوَ في قتال قائم على ساق بينـــه وبين عساكر السلطنة لم يشعر إلا بوثوب القبائل على محطته ونهب ما فيـــها من الآلات والخيام، فلم يلتفت إلا وأعاليها أسافلها فانهزم هو ومن معه لا يلوي على شيءٍ ولا يطلب غير النجاة بنفسه ومن معه من العبيد، إلى أن دخل إلـــى حصن حجر ظفار[2]، وكان له فيه شحنةٍ وعدّة محفوظة معدّة، ولما بلغ ازدمر انحصاره في حجر ظفار خرج من صنعاء لحينـــه ووقتـــه مبـــادراً قـــاصداً لمحاصرته، وأخرج معه المدافع، فلما علم بذلك عز الديـــن داخلـــه الفـــزع، وخامره الجزع، ووصل ازدمر إلى تحت ظفار، وأراد عز الدين أن يخرج في صورة امرأة من بعض شرط ظفار، فبينما هو يدبّر ذلك الفعال ويفكر في ذلـــك الحال إذ بصارخ من رأس القَفْلَة[3] لا يعلم من هو يقول: يا ذاك فـــي محطـــة الأروام عز الدين بن الإمام خارج من الحصن في صورة امـــرأة، فـــاحفظوا

---

(١) خَمِر: بفتح فكسر فسكون، مدينة مشهورة من بلاد حاشد، تقع في شمال مدينة عمران بمســـافة ٤٠ كيلاً.

(٢) حجر ظَفَار: قصر في سفح جبل ظفار ذِيْبِين ما بينه وبين حصن القاهرة. كان مقراً للإمام عبدالله بـــن حمزة ومن بعده أولاده، وهو اليوم خراب.

(٣) القفلة: بفتح فسكون ففتح، مدينة في وادي البَطَنة من بلاد حَاشِد، تستوطنها قبيلة عِذَر ولذلك يقال لها: قفلة عِذَر. والمدينة في مرتفع يحيط بها حصن التّواش وحصن وجبل عَيْشَان.

الطرقات، فرجع وقد أيس من الخروج إلى غير يد ازدمر، فجرى بينه وبين ازدمر الخطاب بالمواجهة إلى يده بواسطة أشراف الجوف، وقد كان الأمير ناصر بن أحمد وأصحابه أخذوا القفلة، ولما واجه عز الدين ازدمر قبضه وعاد به من حينه أسيراً إلى محروس صنعاء ووقع في الأمر الذي حَذَّره به أخوه المطهر، فسبحان من لا تصيبه الغير ولا يتغير. ولما صار عز الدين في يد ازدمر أسيراً، خاسئاً حسيراً، تحسَّا ازدمر من خمرة التيه، وتبختر في ناديه، واستفحل أمره وعظم خطره وزادت هيبته في قلب الخاص والعام، ونفر من بأسه عن المُقل المنام، وكتب إلى المطهر بن الإمام كتباً متعدّدة يطلب منه تسليم ما في يده من المعاقل والعدد، والخروج عن ذلك العدد، وإلا تسليم خمسين ألفاً من النقد، ووقعت المراجعة بينهم وبينه على يد رجل من الأروام يقال له إبراهيم شلبي، فأجابهم المطهر إلى تسليم ما طلبوه من النقد، ولما أجابهم إلى ذلك ظنوا أن ذلك عن عجز منه عن مدافعتهم ومصادمتهم فأضربوا عن ذلك المقصود، وقصدوه بالجنود، وجرّوا المدافع الهائلة، والزبرطانات الصائلة، إلى ثلا وقد كان تفرّق الناس عن المطهر ولم يبق معه غير عسكره الذين في بابه، وجنب أعتابه، ووصلوا إلى محل يقال له المايدة[1] قبلي الناصرة الملاصقة لحصن ثلا، وقد كان مرادهم أخذ الناصرة وفيها عدة من الحماة وجماعة من الجند الرماة، فحمي الوطيس بينهم وبين عسكر المطهر ووجّهوا جميع المدافع إلى الناصرة حتى أخذت دوائرها، وحطت عمائرها، ولم يبق لها دائر غير الرجال، الكفاة الأبطال، وحملوا عليها حملات المغضب الجسور، بعد انهدام تلك الجسور، فأخذتهم البنادق أخذاً أضعف قواهم، وهون هواهم، وضاقت أحوالهم، وانعكست آمالهم، وهلك بالسيف من عسكر السلطنة فوق مائتين من محاسنهم وشجعانهم وأخذ من الخيل عدة، وما

---

(١) المايدة: تُنطق بالياء، وأصلها المائدة. وهي منطقة شمال مدينة ثلا في أسفل حصن الناصرة.

ذاك إلا أن حملتهم بعد خراب دائر الناصرة أطمعهم في الدخول إليها، والاستيلاء عليها، وقد كان المطهر ضاعف فيها الحرس، وأمرهم باليقظة في النهار، والغلس، وظن عسكر السلطنة أن قد نال منهم السهر والتعب، وأغفلهم طول المراقبة والنّصب، فحملوا الحملة التي ذكرناها فأثرت فيهم البنادق، وفي وقت الهزيمة وتقويض الصفوف، تبعتهم السيوف، فأخذ ذلك المقدار الذي ذكرناه، وكان مدّة القتال بينهم وبين المطهر بن الإمام أربعين يوماً، ولما علم الناس أن المطهر أردّ من نفسه، وكان يومه في النصر كأمسه، جاءت إليه أفواجاً وكثرت الغارات على عسكر السلطنة من كل فجٍ عميق، ومحلٍ سحيق، فآل أمرهم إلى الحصار والاقتصار في ذلك الحصار، وأمد عسكر السلطنة القاهرة شمس الدين بن الإمام بالإمداد من الطعام، وغيره، مدّة وقوفهم في ذلك المخيم، وكان والده الإمام شرف الدين يومئذٍ معه في حصن كوكبان. وكانت هذه الإعانة لعساكر السلطنة والمواصلة بأمر الإمام وبرأيه، ولما تيقن عسكر السلطنة أن أمرهم إلى ذهاب وهلاك، ووقوع في حبائل الاشراك، طلبوا الأمان من المطهر بن الإمام ويعودون إلى صنعاء، فأجاب عليهم ألا بُدّ مما ينزل من مقامه اثنان من ذوي الحجا لأخذ العهود والمواثيق الغلاظ التي يكون في نكثها من الله الإحباط، فأجابوه إلى ذلك، ونزل السيد عماد الدين يحيى بن الحسن المؤيّدي والفقيه صلاح الدين صلاحُ بن داود بن داعر[1] وكان يحدّث قال: لما وصلنا إلى المايدة محط ازدمر وجدناهم في ضيق وشدة فقابلنا ازدمر أحسن قبول، وكان من ذوي الرجاحة والعقول، واصطفت الأجناد العثمانية لوصولنا صفين، فلما أخرج السيد يحيى المصحف كان كلما قال لهُ: قل والله العظيم قال ازدمر والله العظيم وقالت تلك العساكر جميعها والله العظيم، فلما أكمل أخذ العهود والأيمان، فارقوه في الآن، وقوّض أطنابه وخيامه، ولم يطل

(١) صلاح بن داود بن علي بن داعر: مما يُذكر عنه أنه كتب سيرة حياة الإمام المتوكل شرف الدين (هجر العلم ١٣٢٦/٣).

بعدهم مقامه، ومما عرف به ازدمر باشا وفاء المطهر أنه قال لما نهضنا من ذلك المحل، ما ارتفعنا إلا بالوجل والفشل، فلو لازمنا المطهر بالقتال، وقت اشتغالنا بالمدافع، والأثقال، لم يبق فينا ولا عقال، وبذلك أشار بعض أصحاب المطهر عليه، وقال الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود فقال له قد بذلنا لهم الأمان، ونكثه من خلاف الإيمان، ورجعوا إلى صنعاء آسفين على عدم إتمام ما جرى بينهم وبين المطهر، من قبض ذلك النقد الذي بذله ليطفي به الشر، وظنوا أنه من عجزه وضعفه وحوزه.

ولما علم شمس الدين بن الإمام، بما جرى بين أخيه والأروام، من الصلح العام، ألمت به المخافة، وراقب وقوع الآفة، وأرسل ولده محمد بن شمس الدين إلى أخيه يطلب صلحه، ويدمل بالتودد جرحه، وقد كان أرسل بعض أولاده إلى عند ازدمر لما بلغه المخاطبة بينه وبين المطهر، فلما علم أن قد أبرم ازدمر الصلح وانفذه عاد ولده إليه، وأخبره بما بنى ازدمر عليه، فأرسل ولده محمد إلى المطهر كما تقدم ذكره فأجابه إلى مراده، وعاد إلى شفقته ووداده، وجعلت بين المطهر بن الإمام وازدمر قواعد وضمن في تمامها عظماء الأروام، من أهل النقض والإبرام، والأشراف أهل الجوف، ولم يلبث ازدمر حتى دخلت سنة خمسٍ وخمسين وتسعمائة:

فنقض ذلك الميثاق، وجنح إلى قول أهل الشقاق، وجمع جموعه من الأروام وأشراف الجوف، وكان رئيس أشراف الجوف ذلك اليوم الأمير محمد بن الحسين في مائتي فارس من محاسن الأشراف وأصحابهم، فلقيهم المطهر إلى البون، فاقتتلوا قتلاً ألان الحديد، وأضعف قوة الباسل الشديد، وآل فيه المصاف، إلى انكشاف الأروام والأشراف، وجرت فيهم مقتلةٌ عظيمة، واستكفل المطهر المحطة بما فيها، وأحاط بما يحويها، وفي ذلك يقول بعض البلغاء:

وسَلِ البَـــوْنَ عنـــه يُنْبِئُــكَ البـــو
نُ شَــفاهاً بصـــادق الأنبـــاءِ
من أبـــاد الأعـــداءَ منـــه بســـيفين
مـــن المرهفـــات والارآءِ
وسما بـــالخميس يقتحـــم المـــوت
زُءامـــاً بليلـــة الأربعـــاء
قـــد نضـــا كفُّـــهُ عقيقـــة ســـيفٍ
لامع كالشـــهاب فـــي الظلمـــاءِ
لـــو نضـــاهُ بكربـــلا لجـــلا كـــر
باً لآل الرســـول فـــي كربـــلاءِ
وأقام الصلاة فـــي حومـــةِ الحـــر
ب مُنيبـــاً للهِ تحـــت لـــواءِ
يمَّـــمَ الخـــدّ بـــالتراب خضوعـــاً
لجـــلال العزيـــز ذي الكبريـــاء
وجنـــود الســـماء تعلـــن بالثّـــأ
ميـــن إذْ مَـــدَّ كفَّـــهُ للدعـــاءِ
وانثنى والرؤوس في البيد تـــدرى
قد ســـقاها بديمـــة مـــن دمـــاءِ
أيَّـــدَ اللهُ بـــالملائك اســـما
مَلِـــكٍ شـــاد ملّـــة الحنفـــاءِ

نجل يحيى المطهر الطاهر الذيـــل

حُبـــا المســـنتين فـــي الـــــلاواءِ

وهي طويلةٌ اقتصرت منها على هذا المقدار.. ولما حصلت الهزيمة عـــادَ المطهر إلى ثُلا مؤيداً منصوراً، ورجع ازدمر وعساكر الســلطنة والأشــراف إلى محروس صنعاء فلم تَسْمُ لهم بعد ذلك نفس إلى قتاله، ولا تســوق عقيــب فعلته في البون طرفاً إلى نزاله، وأما عز الدين بن الإمام فأرسل بـــه ازدمـــر باشا إلى الأبواب العالية صحبة رجلٍ يقال له سقل أحمد كان عنده سفر الـــروم كمن يعزم إلى تعز لا يأخذ له أُهبة، ولا يراقب تعسف الريح بالحلبة، فعزم بـــه في شوال سنة أربع وخمسين وتسعمائة. ولما وصل يَنبُع مرض عز الدين بـــها وفاجأه أجلهُ، وانقطع عن الحياة أملهُ، ومات شهيداً غريباً، لم يشهد مقتلهُ قريبٌ ولا حبيب. ثم أن سقل أحمد توجه على رسله، وانفذ أمر مرسله، ولما وصـــل إلى الحضرة استصرخ بالجنود، وأثار النار ذات الوقود، ثم أن شـــمس الديـــن داخلته من أخيه وحشة نفرت نفسه، وأذهبت أنسه، فعاد إلى مـــوالاة الســلطنة ونزل بنفسه إلى صنعاء إلى حضرة ازدمر وجدَّ في نكاية أخيه واجتهد وســعى في قطع مراده، وأخذ بلاده، وطلب عسكراً للوقوف مـــع أولاده فـــي شـــبام ورجّح لهم عمارة عمران وتقويتها برتبة قوية.

ودَخَلت سنة ستٍ وخمسين وتسعمائة:

وفيها جرَّ شمس الدين بن الإمام ازدمر بجيوشه لحصار بيت عز[1] وهـــو حصنٌ قريب من كوكبان بينهما قدر ثلاثة أميال وفيه جماعـــة مـــن عســـاكر المطهر بن الإمام فأحاط بهم ازدمر إحاطة الهالة بالبدور، والقلائد بـــالنحور،

---

(١) بيت عِزّ: بكسر العين، بلدة وحصن في ضُلاع الأعلى بالشمال الغربي من مدينة شِبَام كوكبان ومـــن أعمالها.

ونصبَ عليهم المدافع، فصبروا صبراً أبان عن جلدهم وإخلاص جهدهم، ولما عيل صبرهم، وثبت أجرهم، وحل الحصار أودهم، سلّموا قودهم وهم زهاء ثمانين نفراً ما بين حرٍّ وعبد، وهرب من جانب الحصن جماعة، ولما مثّلوا بين يدي ازدمر أمرَ بضرب أعناقهم عن آخرهم، وأَخْرَبَ بيت عز وعاد إلى صنعاء. وما برح ازدمر يتردّد إلى جهاتِ الظاهر، ويتربص بالمطهر الدوائر، ويهاب التقدّم عليه إلى خيسه، ومحل تعريسه، ولا قرار على زارٍ من الأسد. ثم أن ازدمر عاد إلى جهات كوكبان مناصراً لشمس الدين فوصل ازدمر الضلع ورام قصد شمات[1] وكانت نصفين: نصف للمطهر ونصف لشمس الدين، فأرسل أصحاب المطهر أهل شمات رسولاً يطلبون منه رتبة من عينة عسكره وعرفوه أنهم في قوة وعدّة وأنه لا يخاف عليهم بادرة من بوادر عسكر السلطنة، فأرسل إليهم عسكراً صحبة رجل يقال لهُ علي بن داعر المُلصي فوصل شمات، وقد شنّت عليها من الأروام الغارات، وجرّوا المدافع وقصدها الجيش أجمع. فلما عرف المطهر بقرب الأروام من شمات خرج من محروس ثلا بجنوده وأسوده وألويته وبنوده، وكان بعض أجناده في محروس الطويلة[2] صحبة الفقيه يحيى بن إبراهيم النصيري، فأرسل إليه المطهر بأن يتأهب للقائه بمن معه لحرب عسكر السلطنة، فالتقى المطهر بعسكر السلطنة قرب شمات ووقع بينهم حربٌ شديدة ما وقع مثلها، فيما قبلها، من مواطن القتال، ومعارك النزال، قُتل فيها من عسكر السلطنة فوق المائة وجملة عديدة من الخيل، وقتل من جند المطهر دون من قُتِل من عساكر السلطان لمعرفتهم بمواطن القتال في تلك البلاد، وفرّق الليل بين الفريقين، وعاد المطهر إلى ثلا في ليلته تلك، وداخل أهل شمات عقيب عزمه فشل وضعف فواجهوا عساكر

---

(١) شمات: سبقت الإشارة إليه، وأنه من حصون بلاد الطويلة في المحويت، ويُعرف اليوم باسم المخيّر.

(٢) الطويلة: مدينة في سفح جبل القَرانع من بلاد المحويت. تبعد غرباً عن مدينة شِبام كوكبان بمسافة ٣٥ كيلاً.

السلطنة على قواعد وضعوها لهم وأمان، ولما استولوا عليهم نهبوا شمات ولزموا من وجدوه فيها، وكان في فعلهم بأهل شمات قوة للمطهر فإن قبائل جبل تيس والحيمة قد كانوا على نية المواجهة فلما فعل ازدمر بأهل شمات مافعل هابته القبائل وخافت من اختلافه في موضوعاته، ثم أن المطهر توجّه عليهم مرّة أخرى وانضمت إليه أكثر القبائل، فحصل مع ازدمر الذعر والخوف وعلم أنه ما يجري حرب مثل الحرب الأولة في شمات إلاّ وكانت الدائرة عليه فكان غاية مرامه جر المدفع الذي كان على شمات وساروا به غير الطريق التي أتوا به منها وهي طريق عسرة يقال لها نقيل المذوب[١] فقاسوا من جَرِّه نصباً وتعباً، وكل ذلك فرقاً من وصول المطهر وملازمته للقتال، ثم أن المدفع قتل عدة في جرّه من عسكر السلطنة، وما برحوا يعانونه حتى خلصوه من ذلك المحل الصعب وجرّوه إلى المُنَقّب وعادوا صنعاء. وفي أيام حرب شمات، يقول بعض البلغاء من أبيات:

لولا دفاع الله عنّا بالذي
لولاه لم يطلع لِهدي كوكبُ

فخر الهدى سيف الإله المُنتضى
عَضُدُ الفخار ورأسه والمنكبُ

الماجدُ الملك المطهر غوثنا
حامي حما الدين الأعزُّ الأغلبُ

بذل النفوس مع النفائس في رضا
ربّ العباد لكي يعزّ المذهبُ

(١) المذوب: جبل في غربي مدينة الطويلة.

في حالـــةٍ عـــدم المعيـــن وخانـــهُ
فيـــها الأبـــاعد والأقـــارب والأبُ
وتجمعت زمـــر الأعـــادي نحـــوهُ
يبغـــون عليـــا والمـــهيمن أغلـــبُ
وتشـــعّبت آراؤهـــم وظنونـــهم
فيه تشـــعّب فيـــه قدمـــاً أشـــعبُ
فلقـــت فيالقـــهم هزبـــراً باســـلاً
يرجو الإلـــه وللعـــدى لا يرهـــبُ
فتمزّقـــوا بســـيوفه أيـــدي ســـبا
ورأوا من الأهوال مالم يحســـبوا
في كـــل معركـــة كـــأن كُماتـــهم
فيها بُغـــاثٌ وهـــو بـــازٌ أشـــهبُ
وتكـــرّرت فتكاتـــهُ فبمشـــرقٍ
حيناً وحيناً في الجـــهات مغـــرّبُ

وهي طويلةٌ تركتها لما تقدّم من الإعتذار، في الإختصار.

ودخلت سنة سبعٍ وخمسين وتسعمائة:

وما برح فيها القتال بين المطهر وعسكر السلطنة حتى سئمت النفـــوس، ودامت الحرب الضروس، وحقرت عند تلك الأيام أيام عَبْس وذَبْيان والبَسُوس.

ودخلت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة:

وفيها خرج ازدمر لقتال المطهر بن الإمام، فجرّ المدافع عليه لعشرٍ بقين من المحرم الحرام من السنة المذكورة، وحط في المُنَقّب وعَمر هناك قبةً هي باقية فيها إلى اليوم على بركة الماء التي تشرب منها أنعام أهل المنقب، ولم يجر بينهما قتال، ولا قيل ولا قال، بل كل واحد منهما حافظ أطرافه، مغمد أسيافه.

وفيها وقع في حصن محروس الطويلة عيب من شريف من أشرافها يقال له الشريف صلاح بن أحمد، وقد كان اجتمعت كلمته في ذلك هو وجماعة من قرية قريب الطويلة يقال لها مرابض[١] وعدّة من القُرى القريبة إليه، وكانت أُناساً من بلاد لاعة[٢] وظن أن المطهر قد شُغل عن افتقاد الطويلة بمقابلة العساكر السلطانية وأنه إذا تمكن من حصنه وحَصَّنَهُ عجز المطهر عن أخذه واسترجاعه، فخلبته بروق أطماعه، التي هي للعقول مصارع، وللخير موانع، فرَقَى حصن الطويلة من شرقيه على غفلة من الذين فيه من الولاة، وتسلم القفلة هو ومن والاه، ووصلوا إلى النوبة التي فيها أحد الحرس، وكان بها رجل من بني العبّاس[٣] يقال له براز فأخذوه وطرحوه من ذلك المحل فهلك، ثم نادى أهل الحصن لما استقر في أعلاه وأشعرهم بارتقاه، فلما ظهر خبرهم عند أهل الطويلة اجتمعوا وانضموا إلى تحت الحصن وكتبوا إلى المطهر بن الإمام بذلك، فلما وقف على الكتاب قام بنفسه مبادراً وركب وتوجّه نحو الشريف المذكور، وكان المطهر لا يستخف بالعدوّ وإن ضعف، ولا يأمنه وإن تجنب وطرف، فما شعر أهل الطويلة إلاّ بوصول المطهر فتلقوه، وقربُ إلى

---

(١) مرابض: قرية عِدَادها من مركز القصبة، بمديرية الطويلة، وأعمال محافظة المحويت. وهي بجوار القنعة.

(٢) لاَعَة: بفتحتين، مركز إداري من مديرية الطويلة. يقع في جنوب جبل "مَسْوَر المنتاب" وكان في السابق من أعماله.

(٣) بنو العَبَّاس: بلدة ومركز إداري من مديرية ثُلا.

الحصن ووقف في محل قريب منه يقال له أحران الأهرام. والشريف لما عاين ذلك الجيش الكثيف، عضّ على كفيه، وصفق براحتيه، وفر من جماعة الشريف واحدٌ قريب من رأس القفلة وكاد ينجو فأتبعه بعض الحرس بحجر أصابت رأسه فقتله، وأقام الشريف محصوراً في القفلة مقدار ساعة هو وزمرته ثم طلب النزول على حكم المطهر، فنزل ونزل معهُ أصحابه، فلما نزل ومُثّل بين يدي المطهر لامه على تهجمه، وتهوّره وتقدّمه في ذلك وتصوّره، ثم التفت على الذين والوه وناصروه، وطلعوا معه الحصن، وقال لهم: ما حملكم على شيءٍ لا تنالوه ولا تدركوه، فلم يخبروا جواباً، ولا أتوا خطاباً، فأمر بهم فربطت أرجلهم إلى جمالٍ وسحبوا على وجوههم فتمزقت أجسادهم، وذهب سوادهم، وركب من حينه والزم بإركاب الشريف المذكور على بغلة وأراد العزم به إلى ثلا فلما أدنوه من البغلة تلكأ عن الركوب وتحيّر وأبى فأشار المطهر إلى رجُلٍ من العسكر يقال له محمد الخيّاطي بأن تضرب عنقه فضربه ثلاث ضربات فلم يعمل فيه السيف شيئاً فتقدم عبدٌ من عبيد ركاب المطهر وضربه ضربةً أبان فيها رأسه، ثم أمر المطهر بأن لا يقبر، وعاد إلى ثلا في وقته وقد قرّر قواعد الحصن وحَصّنَهُ. ورأيتُ قبر هذا الشريف بإزاء عرم خرابة ملصقاً إلى ذلك العرم على غير هيئة القبور، فسألتُ رجُلاً من ذوي الأسنان يقال له محمد رفيق الله فقال أنا الذي قبرته على هذه الكيفية أنا وشخصٌ آخر بعد أن عزم المطهر من هذا المحل وألزم بعدم قبره فجمعت أحجاراً وسترت جيفته بها فها هو كما ترى من ذلك الزمان، إلى هذا الأوان، فتعجّبت من لعب الليالي بأهلها، وانخداعهم بلامع إلّها، وتفكرت في ذلك الشريف، وتهوّره على الأمر المخيف، طَمعاً في الرئاسة، وهلعاً على أن يحوز في تلك البلاد السياسة، فأذهب رأسه، وفارق أهلهُ وناسه، وكان يكفيه من ذلك الماء مصّه، ولا يتجرع تلك الغصة، أسأل الله أن يجعل عقولنا غالبةً لا هوية نفوسنا ويجنّبنا النقائص، ويكفينا من كيد الشيطان الناكص.

وفي هذه السنة أخذت الفرنج الحبشة واستولوا على بلاد المسلمين فيها.

وفيها وجَّه سلطان الإسلام سليمان خان بن سليم رحمه الله بعد أن وصل صنقل أحمد إلى سترته العالية، وتكراره للعود إليها في المرة الثانية، الباشا مصطفى المعروف بِنَشّار[1]، وبه صنقل أحمد عرّض وأشار، ثم أن مصطفى باشا لبس للمطهر أثواب المخادعة وأظهر لما وصل تهامة أنه ما خرج إلا لأجل الهدنة والموادعة، والسكون والدعة، وأن سلطان الإسلام نصره الله أمره بذلك وهيّأه لما هنالك، وأمره أن يرفع جميع من في اليمن من الأروام إلى بلاد الحبشة لقتال الفرنج المتغلّبين عليها، ووجّه السلطان مع الباشا مصطفى برسالة إلى المطهر يطلب منه الطاعة، والدخول في الجماعة، وأن السلطان أصحبه له نسخة وخلعاً وأمر من كان في محطة المنقب مع ازدمر بالاقتصار عن الحرب، وطلب مصطفى باشا جماعة من أعيان المطهر ليودعهم ما أودعه السلطان رحمه الله من الأمور، ففطن المطهر أن هذه الأمور مكائد، ومراصد مصائد، فهو ممن لا تقرع له العصا. وأجاب جواباً فيه إجمالٌ صحبة الرسول الواصل من حضرة مصطفى باشا بالكتب.

ثم أن مصطفى باشا وصل إلى مدينة تعز وأرسل رُسُلاً معهم مرسوم سلطان الإسلام رحمه الله إلى المطهر بن الإمام وذكر انه يرسل إليه بمن أحب من أعيان دولته، وأهل مودّته، لمعرفة ما عنده، فوجّه المطهر بن الإمام الفقيه صلاح بن داعر والأمير الحسن بن محمد من بني الهادي وأصحبهما كتاباً إلى الباشا المذكور وجواب مرسوم السلطان رحمه الله. ولما وصلا إليه إلى تعز أعزّهما وقابلهما بالإكرام والإجلال والإفضال وخلع عليهما قفطانين نفيسين وأظهر المسرّة بذلك وأمر بتزيين المدينة والضرب بالمدافع قدر أربعة أيام، وحقق لرسل المطهر ما في نفسه من محبّة الصلاح للمطهر وارتفاع رتبته

---

(١) مصطفى باشا نشار: هو المتولي العثماني الذي جاء خلفاً للأمير أزدمر باشا.

بإظهار الطاعة، وأرسل معهما رسولاً من جماعته، ولما وصلوا إلى محطة ازدمر باشا إلى المنقّب منع رسول مصطفى باشا عن النفوذ إلى مقام المطهر، وقد كان أرسل مصطفى باشا مع رسل المطهر رجلاً من أعيان علماء الشافعية يقال له أحمد بن عثمان العمودي يسمع كلام المطهر ويعرف ما عنده من إظهار الطاعة وعدمها، فمنعه أيضاً ازدمر وقال له: ستطلع على حقيقة الأمر، وقد كان وعد مصطفى باشا بخروجه من تعز في نصف شعبان من السنة المذكورة. وكان سبب تأخر مصطفى باشا إلى هذا الأوان لسبب تحصيل الجمال، ثم خرج من تعز قاصداً صنعاء وكتب إلى المطهر بن الإمام كتاباً يشعر بخروجه فيه وتوجهه، وأن المطهر يرسل إليه بعض أولاده يلقاه إلى ذمار، فلم يستحسن ذلك قبل عرفان حقيقة أمره وتحقيق ما هو عليه من الصدق وعدمه، ولما وصل إلى ذمار لقيه ازدمر إليها وأوقع في نفسه عدم موافقة المطهر على الصلح وحرّضه على الفتنة وفتح الحرب على المطهر، فأرسل مصطفى باشا رسولاً آخر يستنهض وصول ولد من أولاد المطهر، فأرسل مع رسول الباشا رسولاً وكتاباً إلى الباشتين، وأخبرهما أن الموضوع بينه وبينهما لا يكون إلاَّ بعد الاتفاق وتقرير قواعد الصلح وتسليم ما وصلا به من سلطان الإسلام من الخلع والتحف، ولما وقف البَاشتَان على الجواب علما أن حيلتهما لم تنفذ في المطهر فأرسلا للمدفع الذي كان في تعز وأتى به صحبته. ولما استقر ركاب الباشتين في المنقب، بذلك الجيش الكثيف الأغلب أرسلا إلى شمس الدين بن الإمام، وكان يومئذٍ بقرية العروس[1] فسار إليهما واجتمع بهما، وتخابروا، ثم أنها تعقبت مراجعة في الإصلاح ما بين المطهر والباشتين على يد بعض أعوان السلطنة. ثم أن ناظر السلطنة بهرام دفتر دار سار إلى مدينة ثلا لتمام القواعد، وكان رجُلاً عظيماً شهماً عدلاً قريباً إلى الخير

---

(١) العروس: جبل من بني مطر في غربي صنعاء يحاذي جبل كوكبان من جهة الجنوب.

حسن السياسة، عظيم الرئاسة، له همة عالية، ونفسٌ سامية، فلما وصل قرب مدينة ثلا إلى محل يقال له الصُرُوم[1] وفيه حفظة من قبل المطهر فعرفوه بذلك فظن أنه من قبل المنع له والصد عن المرور في طريقه التي أرادها، وما عرف المقصود، وأن ذلك التوقيف عام لجملة الوفود، فانصرف ذاهباً، وانثنى مغاضياً، ليقضي الله أمره، وينفذ قدرته. وعاد إلى حضرة الباشتين وأخبرهما أنه منع عن الطلوع، فبادر بالرجوع، وليس الأمر كما ذكر، فنهضا من حينهما وأمرا بجر المدافع ورفع الخيام، والتقدم بذلك العسكر اللهام، إلى محل يقال له مَنْكِل[2] وخيموا به، وتكررت المراسلات بين المطهر وبينهم في أمر الصلح والهدنة فكاد الأمر يقع، ثم تعقب من أحد الباشتين الخلاف، وعدم الائتلاف.

ودخلت سنة تسعٍ وخمسين وتسعمائة:

في غرّة المحرم منها نهض مصطفى باشا بأصحابه واستقل في محل يقال له رأس المعينين لم يلقه أحد من أجناد المطهر ولو قابله منهم أحدٌ كان أصابه الوهن العظيم، والخطب الجسيم، وما ذاك إلا أن الباشا ازدمر قد كان مال إلى الهدنة، وإطفاء نار الفتنة، بعد أن أثارها، وأظهر نارها. فلما علم الباشا ازدمر بصعود مصطفى باشا وأن لم يجر في جنابه مكروه، تبع في أثره، بجموعه وعسكره، فأقاما بالخيام، في ذلك المقام، أربعة أيام، فوجّه المطهر بن الإمام لمقابلتهم ولد أخيه صلاح بن شمس الدين في عسكر عظيم إلى المشهد القريب من مدينة ثلا، ووقع بين العسكرين حروب شديدة تريب الأريب، وتذهل مهجة اللبيب، وثبت جند المطهر ثباتاً لم يعهد مثله في الأمم الماضية، والقرون الخالية، مع كثرة أجناد السلطنة وشدّة بأسهم وكثرة المدافع

---

(١) الصُرُوم: جبل صغير أسفل مدينة ثلا من جهة الجنوب، وينطقه العامة: الصُرْم بضم فسكون.

(٢) مَنْكِل: بفتح فسكون فكسر الكاف، قرية من مركز جُشَم، بمديرية همدان صنعاء. تقع يمين الطريق الذاهبة إلى مدينة شبام كوكبان.

معهم والزبرطانات، وجعل جند المطهر لأنفسهم أخاديد في الأرض وكانوا يصطلون بنار تلك المدافع والبنادق، ويستظلون من هجيرها بأفياء البيارق. واشتد التقارب بين الفريقين، وكاد يختلط الفيلقان، ولم يذكر في تاريخ من التواريخ أن جيشاً ثبت ذلك الثبات، وقتل من أعيان عسكر المطهر عدة معدودة، وأمة حميدة مفقودة، منهم السيد الماجد الهمام المقدام شرف الدين الحسين بن عز الدين المؤيدي، وقع فيه صوب فأطلع إلى حصن ثلا وتوفى به ودفن في مقدمة حصن ثلا وقبره إلى الآن مشهود مزور، واستشهد من أعيان أصحاب المطهر الشيخ محمد بن عبدالله العبيدي. ولما اشتد أوار الحرب وعبس، وأطبق حندسه وعسعس، وطال الجلاد، وثبت الأمجاد، وقع خلال تلك المصابرة، والمبارزة والمهاصرة، صوب في الفقيه عماد الدين يحيى النصيري، وعنده عدّة من قبائل الظاهر، فلما عاينوا ما أصابه ولّوا مدبرين، وانصرفوا منهزمين، فحصل من ذلك الفشل، وأجفل بقية الجحفل، وكانوا في محل يقال له مَحْلِق[1] فلما خلى ذلك المكان، من حماته توجهت إليه فرقة من عساكر السلطنة فما شعر جند المطهر وهم آمنون في محاجيهم إلا والسيف عامل فيهم وقد خلفتهم عسكر السلطنة من وراء ظهورهم، ومحل أمنهم، فانهزموا، وكان المطهر في محل في المدينة يقال له باب المحاميت[2] فلما عاين انهزام عساكره وجند السلطنة في أثرهم قد أخذوا المدينة عنوة طلع من حينه الحصن فوجد الباب قد غصّ بالرجال، والبنين من الرجال والأطفال، وقد صاروا في قلق عظيم، وخوف عميم، وأمر يُذهل المرضعة عما أرضعت، وأصواتهم قد علت وارتفعت، فلم يتأت له الدخول من الباب لكثرة الزحام، واجتماع الانام، فرقى على الأعناق، وقد ألتفت الساق بالساق، ومات في الزحم

---

(١) مَحْلِق: بفتح فسكون فكسر اللام. منطقة في شرقي مدينة ثلا فيما يلي باب المحاميت.

(٢) باب المَحَامِيت: أحد أبواب سور مدينة ثلا من جهة الشرق، بجواره تتفرع الطريقان الإسفلتيان الحديثان الذاهبة إحداها إلى جبل مَسْوَر المُنتاب، والأخرى إلى مدينة عمران.

عدة من الرجال، والنساء والأطفال، وكان يوماً عبوساً قمطريرا، شاب منه الصغير، وذهلت أجناد السلطنة بالنهب في المدينة عن لحاق الهاربين إلى حيز الحصن. وكان من ألطاف الله الخفية غفلتهم عن منع أهلها من الذهاب في البلاد، والتشريد في الأنجاد، فإنهم أقاموا ليلة على تلك الحال، والضعف والإنحال، فأمر المطهر بأنهم يرحلون من وقتهم وساعتهم قبل أن تفطن بهم الأجناد السلطانية فيصدونهم عن المرور إلى حيث شاءوا ويتمكن الخلل بذلك على المحصورين إذا اجتمع في الحصن ذلك الجم الغفير، والعدد الكثير، فساروا في نجاة وسلامة، ولم يبق عند المطهر إلاَّ من يعتمد عليه، ويفتقر في القتال إليه. ثم أنه جعل في الناصرة ابن أخيه صلاح بن شمس الدين في أعيان عسكره وكثرة جنوده، وأحاطت جنود السلطنة بحصن ثلا إحاطة الـهالات بالأقمار، والأكمام بالأثمار، واشتد أوار الحرب واستعر، وطال الخطب واستمر، وجرى بين الفريقين حروب يقصر عن وصفها الواصفون، ويعجز عن رقمها الكاتبون، ودبروا في أخذ الحصن المكائد والحيل، فما تم لهم أمر ولا حصل، فمن ذلك أنهم نقبوا نقباً من محل نازح بقرب الناصرة وما برحوا في حفره وتوسيع فتحه حتى انتهوا إلى قرب وسط الناصرة، وكانوا يعملون في الليل دون النهار، ففطن لهم بعض الحرس وسمع في السحر وقع الفأس في الحجر، فرفع الخبر إلى صلاح بن شمس الدين فتقدّم به إلى أبيه المطهر فأمر المطهر أن يحفر أمام ذلك النقر المحسوس، حتى يطلع على سرّ ذلك البوس، ففعلوا وأفضوا إلى سرداب قد اتسع مجاله وساحته، وابتهقت للمكر والخدع باحته، وفيه الآلات والأدولت، فجعل وسطه المطهر كميناً من شجعان العسكر، وطلعت رتبة السلطنة إليه على العادة، وإتمام تلك الإرادة، فما استقرت أقدامهم إلا والسيوف تلمع عليهم في ظلمة ذلك الغار المثغور، والكهف المستور، فنجى من نجى وهلك من هلك، واستولى أصحاب المطهر على جميع ما قد كان أودعوه ذلك المكان، فلما طالت الشدّة، وأمدَّت في القتال المدّة، عَرَّض ازدمر

بالصلح، ومداواة ذلك القرح، وكان من النوادر الغريبة أنه كان في مقامه الشيخ العلامة المحقق الإمام بقراط الزمن الحكيم الطبيب الأستاذ عبدالرحيم بن محمد التبريزي[١] وكان لا يفارق حضرة ازدمر باشا في مدّة تلك المحاصرة، والمقابلة والمناصرة، فقال له في خلوة: هل نظفر بالمطهر؟ فقال لا. فقال: فهل يملك اليمن مرّة أخرى؟ فقال له: آخذ الطالع، وانظر المطالع، ولا أرد الجواب حتى آخذ الارتفاع بالاسطرلاب، وآتيك بالجواب. فلما أخذ الارتفاع وجد الطالع لذلك الوقت برج العقرب والشمس في ذلك اليوم في ثمانية وعشرين درجة من برج الأسد في بيتها وقوتها وعزتها وهي في العاشر من الطالع فقال: نعم يملك اليمن جميعه سنتين ونصف، فقال: من أين أخذت ذلك، وثمّا إليك ما هنالك، فقال: الشمس في العاشر في بيتها وقوتها وإذا كانت كذلك دلّ على أن المسئول عنه رجل عظيم القدر بعيد الصيت، ولكونها في بيتها وقوتها دل على أنه يملك أكثر القطر اليماني، فقال: من أين علمت المدّة ؟ فقال: الباقي للشمس في برج الأسد درجتان ونصف والبرج ثابتٌ دليل السنتين فعلمت من جهة التسيير أن لكل درجة سنة وبقى نصف درجة فقلت نصف سنة فبذلك علمتُ أنه سيملك اليمن إلى عدن هذه المدة. فسكت ازدمر باشا ولم يجر جواباً، وكان الأمر كما ذكر القاضي عبدالرحيم التبريزي فإن المطهر ملك اليمن سنتين ونصف كما سنذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

وكان في مدّة حصار ازدمر لحصن ثلا حصن حضور الشيخ بيد المطهر وفيه عساكر نافعة وفيه الأمير صالح بن الأمير ناصر قائم بالمنابذة والمعاونة مع المطهر، وجرت بينه وبين عساكر السلطنة حروب عديدة أبانت عن ثباته، وصدق عزمه في وثباته، وكاتب المطهر الأشراف آل المنصور وأمرهم

---

(١) عبد الرحيم بن محمد التبريزي: كان من رجال الباشا ازدمر وكان لا يفارقه، وهو الذي أهدى للمطهر ابن الإمام شرف الدين كتاب ((الأسباب والعلامات)) في الطب، وشرحهُ بخط مصنفه عوض بن نصر المصري. وقد كانت وفاته سنة ٩٦٥هـ باليمن.

بالتقدم إلى ذِيْبِين [1] ليكون فيه شغلاً لأزدمر باشا، فتقدم أكثرهم، وفطن لذلك ازدمر فأرسل عسكراً صحبة رجل يقال له إبراهيم آغا لحفظ تلك الجهات. ولما سئم كلا الفريقين القتال، واستمر الحطاط على ثلا وطال، مع عدم حصول الطائل وبقاء المصابرة للقتال، في الضحى والآصال، جنح ازدمر باشا إلى الصلح والهدنة وترك القتال والفتنة، وأرسل إلى الأمير ناصر بن أحمد الحمزي يطلب منه التوسط فيما بينه وبين المطهر بن الإمام، فتوسط في ذلك ووقع الصلح على أن المطهر بن الإمام يسلم للسلطنة الطويلة وحصونها وبلادها وله حصونه جميعها وبلاده جميعها. ثم أن ازدمر باشا عقد للمطهر بن الإمام لواءً شريفاً وطلع به صحبته إلى عارضة ثلا وصحبه شمس الدين بن الإمام، واجتمع بالمطهر، ولما اتفقا تعانق المطهر وازدمر باشا فقال شمس الدين في المقام، يالكما من جبلين اصدما، وبحرين التطما، وعمل لهم المطهر ضيافة حضر فيها جميع أنواع المأكول، وأنواع الفواكه، فعجب ازدمر باشا مَن ذلك الحال مع طول الحصار وحلف كل واحدٍ لصاحبه، ثم دخل عقيب ازدمر باشا مصطفى باشا ولم يحصل بينه وبين المطهر مثل ما حصل بينه وبين ازدمر من الأنس والمقابلة، فأقام بقية ذلك النهار وخرج وتوجه ازدمر ومصطفى باشا من عشيتهما تلك وأمرا بجر المدافع وحمل الأثقال والخيام إلى محروس صنعاء، وقد كان خالفت البلاد على المطهر وقت اشتغاله بقتال السلطنة ولم يبق في يده إلاَّ المعاقل فخرج من ثلا بعد عزم ازدمر من ثلا في ذلك الحين وتوجه لفتح بلاده، وطي أقطاره وانجاده، ولما استقر فيها عزم مصطفى باشا إلى الحضرة العالية حضرة سلطان الإسلام، وتوجه عقيبه ازدمر باشا إلى بلاد اليمن فاستفتحها جميعها وبلغ في سفرته إلى جازان.

---

(١) ذِيْبِيْن: مدينة شرقي خَمِر وشمال رَيْدة بمسافة ٢٠ كيلاً تقوم بين هضبتين كبيرتين حيث تُطبق عليها الجبال مَن مختلف الجوانب.

ودخلت سنة ستين وتسعمائة:

فعاد فيها وفتح ريمة الريمي وعُتمة وجهات وصاب وجهات سَمّاه بني النوّار، وهو في خلال ذلك يكاتب المطهر ويلاطفه ويهاديه، ولما عاد ازدمر إلى صنعاء فتح الحرب على الأشراف آل المنصور، أشراف الجوف، واسترجع الظواهر منهم، وتوجه إلى صعدة ففتحها سلماً من غير قتال بطاعة من أهلها، فسلمت من النهب والمعرة، والهلاك والمضرّة، وكانت في يد الأمير ناصر بن أحمد، وكان فتحها في جمادي الآخرة من السنة المذكورة.

وفيها استتم فتح المطهر للبلاد، وضبط من عُرف من تلك القبائل بالخلاف والفساد، وتصفيده في القيود، والحاقه بساكن اللحود، وبعد إياب ازدمر من صعدة إلى صنعاء عزم مسرعاً إلى جهات خَنْفَر[1] لإصلاح طريق عدن.

ودخلت سنة إحدى وستين وتسعمائة:

وفيها عزل ازدمر باشا من اليمن، وكان قد بلغه عزله عن قطر اليمن فأسرّ ذلك في نفسه، فلما تقرر وصول مصطفى باشا المعروف بنشار عزم بنفسه وتوجه جيشه.

ودخلت سنة اثنتين وستين وتسعمائة:

وكان عزمه في المحرم من السنة المذكورة.

وفيها وصل مصطفى باشا إلى تعز، وصادف غلاء الأسعار، وحصول القحط العام لجميع الأقطار، ومات من الجوع خلق كثير، وجم غفير، واستمر

---

(١) خَنْفَر: جبل يقع وسط سهل أبْيَن، فيما بين وادي بنا ووادي حسان، وكان في سفحه مدينة قديمة كانت تحمل ذات الاسم اشتهرت في التاريخ إلاّ أنها اليوم خرائب وأطلال.

ذلك إلى دخول سنة ثلاث وستين وتسعمائة:

ووصلت من الباشا مصطفى بشائر وصول مراسيم إلى المطهر يعلمه بقدومه إلى قطر اليمن متولياً من قبل سلطان الإسلام[١] وطلب من شمس الدين بن الإمام الوصول إليه كما جرت به عادته إلى جهات تهامة، فأرسل ولده محمد بن شمس الدين، لقيه إلى بيت الفقيه بن حُشَيْبِر[٢] ووقف بتعز أياماً يسيرة وعرف من أحواله وأموره ما غير خاطره وأدخل الوحشة في قلبه، ورجع إلى والده إلى كوكبان وافهمه بما شاهد من فلتات لسان مصطفى باشا وصفحات وجهه، ورأى رأياً لوالده وهو التحوج إلى مصالحة المطهر والميل إلى جنابه والدخول في طاعته، والامتثال لإرادته. فأرسل إلى عند صنوه صلاح بن شمس الدين وهو في محروس ثلا، فسعى بين عمه المطهر ووالده شمس الدين، وكان المطهر في تلك الأيام في محروس الرغيل[٣] وذلك بعد فتحه لمسور ولاعة وقراضة[٤]، وما إليها، وانتقل شمس الدين ببعض عياله إلى الرغيل وأقام عند صنوه أياماً ثم نزل إلى بلاده وما برح يتنقل فيها حتى وصل إلى محل يقال له براش[٥] من أعمال الطويلة فمرض فيه. وأما الباشا مصطفى نشار فأصابه ألمٌ حرمه المنام، وخلد في جسمه وأقام، حتى ضعفت قوته، وسقطت شهوته، فحملوه في العمارية إلى زبيد ومات فيها في شهر

---

(١) قال زبارة أنه وجّه إلى المطهر بن شرف الدين رسالة مطولة يحثه على الدخول في طاعته ويحذره من مخالفته، وقد أثبتها مع جواب المطهر عليها صاحب كتاب "سلافة العصر" المطبوع بمصر (أئمة اليمن، ج١، ص٤٤١).

(٢) بيت الفقيه بن حُشَيْبِر: هي المدينة المشهورة في تهامة، وتقع بالجنوب الشرقي من الحديدة بمسافة ٦٧ كيلاً. وقد يقال لها بيت الفقيه عمر بن محمد بن حامد بن عجيل، وهو من الفقهاء آل حُشَيْبِر المنتمين إلى قبائل صِلّيل من علكّ.

(٣) الرُغَيْل: بضمة ففتح فسكون، مركز إداري من مديرية "مَسْوَر المنتاب" وأعمال محافظة عمران.

(٤) قراضة: بلدة في جبل مَسْوَر المنتاب.

(٥) براش: حصن وقرية في منطقة الضلاع الأسفل من مديرية الطويلة وأعمال محافظة المحويت. يبعد عن الطويلة جنوباً بمسافة ٣٤ كيلاً.

رجب من السنة المذكورة.

ودخلت سنة ثلاث وستين وتسعمائة:

وفي صفر منها توفي شمس الدين بن الإمام في حصن براش وحمل إلى محروس كوكبان ودفن فيه وكُتم موته عن والده الإمام شرف الدين ولم يشعر به إلى الممات. وفيها خرج مصطفى باشا، المعروف بمصطفى عزّت، فحصلت فتنة بين العساكر العثمانية في صنعاء وزبيد وقتل من الأروام عدة. وخرج في هذه السنة عجائب سماوية وأرضية، منها أنها خرجت في بلاد صنعاء ذئابٌ أكلت خلقاً كثيراً، وظهر كوكب الذنب ذو الذوابة سريع المسير، ودخل مصطفى باشا صنعاء في شهر شعبان من السنة المذكورة.

ودخلت سنة أربع وستين وتسعمائة:

في ربيع الآخر منها أمر الباشا مصطفى بحذف حي على خير العمل من أذان الصلاة.

ودخلت سنة خمس وستين وتسعمائة:

وفيها اجتمعت العبيد، على محمد بن شمس الدين، وهاجوا هيجان الشيطان المريد، وراموه بالرمي والتناوش من مكان بعيد، وكان في قرب الرُّجُمُ في محل يقال له الحادات، وحصروه في البيت الذي هو فيه وهمّوا بقتل النقيب مبارك شعبان، وكاد الأمر يتفاقم، ففزع إلى جناب الخليفة المطهر بن الإمام وكان في الرغيل، وأرسل إليه بكتاب خفي ورفع إليه حصار العبيد وما صاروا إليه من خلع الطاعة. فكتب إليه الخليفة كتاباً يقول فيه: إنك جعلتهم بطانتك، واستفرغت منهم عنايتك، واغربت عن العرب، وظننت أن المعروف

يفيد فيهم، ويثمر لديهم، واللئيم لا يزيده البر إلا طغيان، ولا يكافي بالإحسان إلاّ عصيان، فتنبّه بعد اليوم، واستيقظ من سنة هذا النوم، ووجّه بفرقة من عسكر نافعة، وعصابة للشرّ دافعة، فما شعر السودان إلا بهجوم العساكر المطهرية قد خالطتهم فتشرّعوا للصدام، وأجفلوا لِمَا جرى إجفال النعام، فتخطفتهم الأيادي، وأذهبت سورتهم تلك الأسود العوادي، واستظهر محمد بن شمس الدين ولا استظهار مروان على أهل المرج، وسكن ذلك الهرج، ومحى الله آثار آية الليل، وكف عنّا ذلك السيل، وإلى ذلك يشير السيد العلامة فخر الدين المطهر بن محمد بن تاج الدين[1] من قصيدة يهنئ فيها محمد بن شمس الدين:

وَحَمَاهُ من حَامٍ وقد حاموا لَهُ
بحماة سود ليس هم بحمات
حاشى المبارك انه مثل اسمه
قولاً وفعلاً من أولي البركات

ومنها يحرّض محمد بن شمس الدين بأنه يترك النصرة بالعبيد، ويحلهم بالمنزل القاصي البعيد:

ما كنت متخذ المضلين العدى
عَضُداً ولو كانوا ذوي سطوات

(١) المطهر بن محمد بن تاج الدين: من الحمزات اهل ذَيْفَان، وكان عالماً أديباً شاعراً، توفي بعارضة كوكبان سنة ٩٨٣هـ.

وعليك بالسادات من أبنــــاء حيــدرةٍ
بنـــــاة المجـــــــــد أيّ بُنـــــاةِ
وكذا ســـــراة مــن بكيــل وحاشــدٍ
بل مدحــــج البيضـــاء أيَّ ســـراةِ
جند الوصيّ أبيــك يــوم صفوفــهم
فكأنـــها صفّيــن فـــي الروعـــاتِ

ثم أنّ محمد بن شمس الدين نفى النقض وخامر البغض.

تم الجزء الأول من **روح الروح** بحمد الله ومنّه وفضله وإحسانه. والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، وصلـــى الله وســلم على محمد وآله وصحبه الطاهرين.



الجزء الثاني



بسم الله الرحمن الرحيم

ودخلت سنة ست وستين وتسعمائة:

ولم يحدث فيها ما يوجب الرقم، والإثبات بالرسم.

ودخلت سنة سبع وستين وتسعمائة:

وفي شوال منها توجه مصطفى باشا إلى الأبواب العالية. وذلك لما بلغه العزل بمحمود باشا [١].

ودخلت سنة ثمان وستين وتسعمائة:

ودخل محمود باشا صنعاء في العشر الوسطى من جمادي الآخرة، وجرت بينه وبين المطهر بن الإمام المراسلة في الصلح على ما وضعه من قبله من الباشات الكرام، وأرسل إلى حضرة المطهر رجُلاً من القضاة أهل النباهة والكمال والصلاح، ليعرفوا قواعد الإصلاح، والسلوك في طريق النجاح، فأجاب المطهر إلى ذلك وخلع على القاضي خلعة نفيسة وأعطاه عطية هنية، ثم أن الباشا جهّز لأخذ حصن حب وكان فيه الفقيه علي بن عبدالرحمن النظاري، بالعساكر السلطانية، على مقدمتها الأمير الاسكندر بن حسام الكردي.

(١) قال زباره: كان مصطفى عزت باشا عادلاً بالنظر إلى غيره من نواب السلطنة. وقد جاء من بعده محمود باشا، وكان جباراً سفاكاً للدماء، وأول ما كان منه فتكه بالفقيه عبدالملك اليمني أمير دار الضرب، واستولى على جميع أمواله وقتل معه الكيخيا كيوان بسبب ما كان منهما من غش السكة الفضة بالنحاس، وجعل على عهده كيوان كيخيا مراد الذي صار فيما بعد نائبه على اليمن الأسفل. (أئمة اليمن. ج١، ص٤٥٣).

ودخلت سنة تسعٍ وستين وتسعمائة:

وفي المحرم منها تبعه الباشا من محروس صنعاء قاصداً لقتال النظاري وأخذ بلاده، فالتقى الأمير الاسكندر عسكر النظاري في جبل الشِّعِر[1] ووقعت الحرب فيما بينهم فانهزمت العساكر النظارية، من العساكر السلطانية، إلى حصن حب[2] وتقدم الباشا محمود إلى ميدان السبران غربي حصن حب، وخيّم به، وانحاز الفقيه على النظاري ومن معه من عساكره، وكان ذلك من شؤم طائره، فإنه ملأ حصنه من اللفيف والعدد الكثيف، الذي ليس فيه غير تسلاف للشحون، وإتفاق المصون، ولو وُفق لما ترك في حصنه غير من يحميه، ويقوم به ويكفيه، وأحاطت عساكر السلطنة بحصن حبّ من كل جانب، وحاصروه حصاراً منع الذاهب والآيب، ورموه بالمدافع، وسال سائل بعذاب واقع، وقلّ على من في الحصن المأكول، وحل بهم الخطب المهول، وبلغت الدجاجة مائة درهم، ولازمهم الاحتياج والهم، وتعقب ذلك قلة الماء وشح السماء، مع كثرة من فيه من العوالم، ومن آوى إليه فزعاً من تلك الملاحم، فلما عرف الفقيه علي النظاري عجزه، وأن بقاءه على حاله يذهب مجده وعزّه، طلب الأمان من الباشا محمود على أكيد المواثيق والعهود وأن يخرج بأهله وأولاده، ورفقته وأهل وداده. إلى حصن فند، ويتخذه محلاً للنفس والولد، وكانت المخالطة والمراجعة، في التسليم والموادعة، على يد الأمير محمد بن عبدالله بن جعفر اليامي الإسماعيلي، وكان رجُلاً غادراً، سفاكاً ماكراً، ختوراً خاتلاً، خئوناً خاذلاً، فأجابه الباشا إلى مطلبه، وحسن له قبول مأربه، فأرسل الفقيه علي النظاري بعض ولده لأخذ عهده فكساه الباشا وعاهده وبالإنصاف واعده، ونزل الفقيه علي النظاري ثاني نزول ولده ولديه جماعة من عبيده

---

(١) الشِّعِر: بفتح فكسر، مديرية من أعمال محافظة إب، تبعد عن مركز العاصمة بمسافة نحو ٤٥ كيلاً. وتتوسط ثلاثُ مديريات هي: بَعْدَان والنَّادرة ودَمْت.

(٢) حصن حَبّ: من جبال بَعْدَان.

وحفدته وأرباب حضرته، فلما مُثّل في الديوان أمر بضرب عنقه وعنق ولده في الآن، وقتل الذين نزلوا معه عن آخرهم، وشلت عنهم يد قابرهم، وانتهبت السلطنة حصن حب، وعصف فيه ريح الادبار وهب، وكان مملوءاً من الأموال النفيسة، والخزائن الرئيسة، وسبت حريم النظاري وأولاده، وانحرف عليه الدهر فكاده، وبيعت جواريه في الأسواق، وقاست حريمه أنواع المشاق، وجعل محمود باشا لنفسه بِعَيْبِهِ في النظاري، سبّة عند الإمّة وعند البلري، لا يذهب ذكرها، وخطيئة لا يضمحل وزرها، وكان عاقبة الأمير محمد بن عبدالله أسوأ عاقبة، وناله الله في الدنيا والآخرة المعاقبة، وسيأتي ذكر خبره وخُبْره، وما آلت إليه عاقبة أمره، وكان قتل النظاري والفتك به، والإحاطة بأحبائه وحِيه، في شهر رجبِ من السنة المذكورة، ولله در الشاعر حيث يقول:

وكذاك الزّمَان يذهَبُ بالنَّاسِ ويبقى الحديثُ والأخبارُ

ودخلت سنة سبعين وتسعمائة:

ولم يحدث فيها نكتة طريفة، ولا قصة ظريفة.

ودخلت سنة إحدى وسبعين وتسعمائة:

وفيها وصل من باب السلطان أميرٌ يقال له القرماني، ذكر أنه متولٍ من الحضرة صنعاء، وأن معه بذلك مرسوماً وارعا، فحصل بينه وبين واليها من قبل الباشا إيجاشٍ، وهو الأمير محمد بن حسن قُزُل باش[1] فآل أمر القرماني، وسولت له الأطماع والأماني، تحيّزه في دار الجامع، وأنه يأخذ من المدينة بالمجامع، فحاصره الأمير محمد فيها، وحماه عن ناديها، وكان في بعض أيام

(١) في أئمة اليمن: الأمير محمد بن حسن قربل باشن.

الانحصار، ولاح وجهه في منظرة الدار، وكأنه أراد التقصير، ففتح الروشان ليضيء المكان وينير، فتطفل له بعض العسكر الرماة، وحقق شخصه ورماه، فخر لغير السجود، واستلقى لغير هجود، ولقي الإله المعبود.

وفي شهر جمادي الآخرة مات صلاح بن شمس الدين[١] في حصن ثلا، وكان له مع عمه المطهر غاية الجهاد والإبلاء، وتعب عليه المطهر تعباً باهراً، وحزن حزناً ظاهراً.

وفيها وقعت هجوة[٢] عظيمة، وديمةٌ مستديمة، خربت منها الدور، وانشقت القصور، وأماتت ناسها، وأمدت عبوسها، فقاسى العباد غمماً وأقامت ديمتها الوطفاء شهراً، لا تكشف للشمس نوراً، ولا ترفع قطراً.

وفيها قتل الباشا محمود الأمير أسكندر بن حسام الكردي[٣] وكان عيناً من أعيان الأمراء السلطانية صاحب عقل وتدبير ورأى، عمر السُّبُل والمناهل، في المقاطع والمراحل، ولما بلغ المطهر بن الإمام قتله تعب عليه وقال: والله انه يُضاق على الرجل العاقل ولو كان من جانب الغير.

وفيها توفي الأمير ناصر بن أحمد صاحب الجوف في شهر القعدة بمضر الزّاهر[٤]، وتوفي ولده الأمير صالح بن ناصر، أحد أنصار المطهر بن الإمام، في رابع الشهر المذكور في السجن في الدار الحمراء[٥] وكان هذا من عجائب الاتفاق، وظرائف الأوراق.

---

(١) صلاح بن شمس الدين بن شرف الدين: كان من أعوان عَمِّه المطهر بن شرف الدين. وكان قد استوطن مدينة ثلا واستقر بها.

(٢) هجوة: سحابة.

(٣) راجع عنه: أئمة اليمن، ج١، ص٤٥٥.

(٤) الزّاهر: مدينة وحصن في الجوف.

(٥) الدار الحمراء: كانت قائمة بقصر صنعاء المعروف اليوم بإسم قصر السلاح وقديماً قصر غُمدان.

ودخلت سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة:

وفيها في رجب عزم الباشا محمود إلى الأبواب العالية، والسدّة السلطانية.

ودخلت سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة:

وفي شهر ربيع الآخر منها توفى السيد العلامة، الفطن الفهّامة، صاحب التأليف، ومظهر التصانيف، ورافع قواعد العلم الشريف، فخر الدين عبدالله بن الإمام شرف الدين[1] بمحروس مدينة ثلا.

وفيها مات الأمير بهرام الذي كان حاكماً لمدينة صعدة في أيام مصطفى باشا وأيام محمود باشا، وكان أميراً سريّاً، مقداماً ثابتاً جريئاً، وعظم شأنه حتى أنه كان قريباً من باشه، وهو الذي عمر الدار العظيمة، واسعة الفنا، رفيعة البناء، قرب دار الزينة التي أخربها الوزير سنان الأعظم، لما عمل الزحّافة على كوكبان.

وفيها وصل رضوان باشا بن مصطفى باشا تهامة ثم تقدم إلى صنعاء ووصلها في شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، ووقع في ذلك اليوم الذي دخل فيه صنعاء خسوف قمريٌ عظيم في برج الثور الذي هو طالع صنعاء، ولذلك بقدرة الله كانت أموره منهارةً، لم تسكن فيها الغارة، ولا أطفأ المريخ ناره. ودخل صنعاء في زيٍ عظيم، وناموسٍ جسيم، وأبّهةٍ ملكية، وصورة ملكية، وعساكر جرّارة، وجنود مختارة، فلبس من الزهو جلباباً، وارتدى من التيه ثياباً، وسولت له خواطر نفسه، وأعانه جليس أنسه، على أخذ المطهر وبلاده، وتصفيده في أقياده، وغفل عن إيقاظ الفتن، وما ورد في ذلك عن النبي المؤتمن، فأرسل إلى المطهر عقيب وصوله رسولاً، ولم يدر بينهما في

---

(١) عبدالله بن شرف الدين يحيى بن شمس الدين: ترجمه القاضي إسماعيل الأكوع فقال: عالمٌ أديبٌ، شاعرٌ، مبرزٌ في علم اللغة، له مشاركةٌ قوية في كثير من العلوم، انقطع للعلم، فلم يتقلد أي منصب زهداً وورعاً. من آثاره: الدراري المشرقات في بواهر المخلوقات، وشرح نظام الغريب في اللغة، وفتح العلي الحق في شرح قصص الحق، وغير ذلك (هجر العلم، ١/٢٦٦).

الموادعة قول ولا رفع مقول، وكان عادات من وصل من الباشات إلى صنعاء، يبادر بالمكاتبة ويصون ويرعى. ثم أنه بعد ذلك اختار للرِّسالة، وانفصال المقالة، إلى المطهر بن الإمام القاضي صالح الكوزاني، وكان هذا القاضي اخص الخواص بالباشا رضوان لا يجالسه ولا يخالطه سواه، وله عنده الرتبة العالية، والمنزلة السامية، وكان ذكيًّا فطناً متضلعاً في علوم جمة كالنحو والتصريف والمعاني والبيان والمنطق والأصول وغير ذلك، وكان فيه الإعجاب بنفسه، والتيه على قيسه وقُسه، ولما أزمع الباشا رضوان على إرسال القاضي صالح في تقرير الإصلاح بينه وبين المطهر على غير مقتضى ما سلف من الباشات الأولين، والأعيان الأكرمين، فعرف المطهر بن الإمام بذلك فأجاب بأنه لا يأتي إلى سوحه حتى يمر على أخيه علي بن الإمام إلى محروس ذي مرمر، فلما جد عزم القاضي المذكور، أصبح إلى ذي مرمر في البكور، فدخل ذي مرمر، فأعظمه علي بن الإمام، وأعزّه ووفَّر، وجرت بينهما مباحث علمية، ومواقف أدبية، ولما رام المسير إلى حضرة المطهر قال له علي بن الإمام قبل أن يودّعه: قد علمت أيها القاضي أن من حق الصحبة والأخوة والصداقة حُسن النصيح في المشورة، ومنصحة الصديق بالخير مأثورة، وأنت عازمٌ على الكرامة والسلامة إلى محل هذا الإنسان العظيم، والرئيس الكريم، وحاله مخالف لحال من تعرفهم، وفي المجالسة تألفهم، فإياك أن تعامله بالإدلال، وتسترسل لديه في المقال، بل لا تجري معه إلاَّ على سنن الأدب والاحتشام، والتواضع في المخاطبة والكلام، وعليك بحفظ لسانك من الهفوات، وحراستها من السقطات، ولست بجاهلٍ لحال الملوك، والتمييز بينهم وبين الصعلوك، وإيّاك أن تجعل به القياس علينا، فليست الحال كما رأيت منا وشهدت فينا، وأما نحن وأنت فقد رفع الأنس والصفا فيما بيننا ستر التحرّز والمحافظة، وأجرى ينابيع المودة كثرة المذاكرة والمفاوضة، للمناسبة التي كانت بواسطة العلم والمعرفة، وستصل إلى المعيّ يفهم خفيّ أحوالك في مجمل

مقالك، ويعرف ما انطوى عليه ضمير جنانك، في بوادر لسانك، لا تغريه الكنايات، ولا تخفى عليه الإشارات، بصيرٌ بالأمور، يفهم بأدنى تلويح ما تكنه الصدور، وقد نصحتُ لك نصحي، وأوريت في المشورة قدحي. ثم ودّعه عقيب تلك الحال، وتمام المقال، ولما قرب القاضي صالح من ثـلا، ولجهام ربعها اجتلا، أمر المطهر بن الإمام بتوقيفه حتى يؤذن لهُ في المثول، ويستقبله بعض الجند للوصول، فوصل إلى مقام المطهر وقد حشد له الجنود، وعم بها تلك الآفاق والنجود، والناس على باب وطاقة صفين، ورفع باب الخيمة حتى يشهد المطهر الجمعين، ودنى منه القاضي والذين في صحبته من أصحاب الباشا وقبلوا يده ولديهم القفاطين التي أرسل بها الباشا رضوان. ثم أن المطهر خلع على القاضي ومن معه خلعاً من القفاطين الغالية، والملابس الباهية، ونقلوا إلى خيام قد ضُربت لهم قريب من سرداق المطهر، وجلب إليهم كل ما يحتاجوه من منقول وغيره، وتابع عليهم واردات إحسانه وبرّه.

وبعد ثلاث طلب القاضي المذكور في الخلوة وسأله عن موجب قدومه، وما أفهمه الباشا في مفهومه، وقال له إن كان ذلك من قبل إتمام القواعد على ما مضى، وذهب في الصلاح وانقضى، فهو المراد والمطلوب، والحاجة التي في نفس يعقوب، وإن كان وله مرام خارج عن ذلك الموضوع، أبديته ولنا فيه الإقدام والرجوع. فطلب أموراً لا تليق بجانب المطهر، ولا ممن هو أهون منه وأصغر، وعرفه أنه إذا لم يسعد إلى ذلك المراد، كان فيه الاجتحاف لجميع بلاده حاضرها والباد، ففرط في كلامه، وأفرط في ملامه، فكان جواب المطهر عليه، وهو واقف بين يديه: إن لم يتم الصلح على تلك القواعد والاصلاح المحررة فقد علمت يا قاضي إنما غرضكم إلا الفتنة، وإثارة الرزيّة والمحنة، والبغي مصرعه وخيم، وعذابه أليم، فإن تعاملوني بالحيف، فما عندي غير السيف، فقم في وقتك إلى ديارك، وبادر بالعود إلى قرارك، ولا تحسن لصاحبك نقض الإصلاح، فتجانب محجة النجاح والفلاح؛ فلما وصل إلى الباشا

رضوان أخبره أن المطهر مائل إلى العصيان، وكذب في قوله ومـان، ولما سأله عن حاله، وما رآه من خصاله، فقال: شكيلٌ ماله في المخيلة نظير، وكلامٌ مهيبٌ كأنه زئير. ثم أنه أشار على الباشا بنقض الإصلاح، وشهر السيوف بمواطن الكفاح، وأن يجهز على المطهر العساكر، ويغشونه بالقتال بالعشيات والبواكر، ولا يفتقرون في حربه إلى نصب المدافع، وانتظار المبادي والمراجع، وقال له إن لدينا من العساكر السلطانية، والجموع الخاقانية، ما لا يظهر في زمن ازدمر ونشار، ولا يأتي لأحدٍ ممن أحرب تلك الديار، فلو كان لديهم ما لدينا، أو عندهم ما عندنا، ما أقالوا للمطهر عثرة، ولا أمهلوه إلى هذه الفترة، فانخدع الباشا لقوله، واتكل على قوّته وحوله. وحدَّثني بعض المتعلقين بملازمة المطهر بن الإمام قال: كنت اختلف إلى صنعاء في تلك الأيام، وأنا كأحد الأنام، لا نوبة لي، ولا يُعرف منزلي، لاجتناب الناس، وعدم اختلاطي بغير الأجناس، لكنها جرت لي المعرفة بالقاضي صالح، وجرّتني إليه بعض المصالح، وكان له ميل إلى العلوم وأصحابها، وأولي الأدب وأربابها، ولم قد حصل من الباشا إلى جانب المطهر خلاف، ولا تنكر وانحراف، فنمَّ إلى الباشا بعض الأعادي، وأوهمه بأن صنعاء غير بلادي، وأن إقامتي فيها لعلة، وخبط ذهنه بأقوالٍ مضلة، فلم أشعر إلا برسول مبادر، ومستعجل زاجر، من مقام الباشا رضوان، وذلك بعد انقضاء الديوان، فلما وصلتُ مقامه، وقد جعل كيخيته أمامه، فقال لي دسّك المطهر في هذه البلدة عيناً، وجعلك جاسوساً علينا، لترفع إليه الأخبار، وتهدي إلى مسامعه ما كان وصار. فقلت: والذي شرّف قدرك، وأعلى ذكرك، ما أنا من أهل هذه البضاعة، ولا أرباب هذه الصناعة، وإن كان وللمطهر عيون، تطلعه على حركاتكم والسكون، فهو في حيّز الإضمار، والتنكر والاستتار، ومولانا أيده الله لا يجهل مثل ذلك، وهو أعرف الناس بمن سلك هذه المسالك. فقال: أيظن المطهر الغافل، أني أتركه ولدي هذه الصواهل، والعواسل والجحافل، أو يظن أني أتناول دياره بالمدافع،

أو أتربص له الوقائع، وأمد أطناب الحصار كما فعل ازدمر ونشـــار، والله لا أخذت ذراه إلاَّ بالسيوف، ولا فتحت قطره إلا بالألوف. فقلت لـــهُ: أمـدك الله بالظفر. وفي خلال مراجعتي، وأثناء منافحتي وصل القاضي صالح الكوزاني، ومثل في ذلك المقام ورآني، وعرف ما جرى بيني وبين الباشا رضوان، فـي البحث عن ذلك الشأن، فقال: يا مولانا هذا بمعزل عما توهمتموه، فلا تـأخذوه بزور ولا تظلموه. وأوضح أحوالي، في وقفتي وارتحالي: فلما سـمع كـلام القاضي، رأيت في محيَّاه دلائل العفو والتغاضي، وخرجتُ وقد لفظني الأسـد من لهواته، وسلمني الله من سطواته. ولما تغيرت من رضوان النية، اشـتدت وطأته على جهات الإسماعيلية[1] ففروا بأجمعهم، ونزحوا عن مربعهم، إلـى جانب المطهر، وتفيئوا ظلاله من هجير ذلك الحر، وكان وادي السر[2] إلـى علي بن الإمام، وهو داخلٌ في ضمن صلحهم العام، فوجه إليه الباشا كاشـفاً عاد منه بآل علي كاسفاً، فجرد عليه جماعة قتلوه في تلك الساعة، فوجه الباشا رضوان في ذلك الأوان، شعبة من تلك الفيالق، علـى مقدمتـها ثلاثـةٌ مـن الصناجق[3]، وذلك خامس شهر الحجة الحرام من السنة المذكورة.

---

(١) الإسماعلية: هم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه. وتسكن إسماعيلية اليمن في جبـل حراز، وهم المكارمة، ويخضعون لزعامة سلطان البُهْرَة في الهند.

(٢) وادي السر: بتشديد السين المكسورة، بلدة وواد في منطقة الشَرَفة من مديرية بني حِشَيْش، بالشـرق الشمالي من مدينة صنعاء بمسافة ٢٣ كيلاً ومن أعمالها.

(٣) قال قطب الدين النهرواني في كتابه "البرق اليماني" لما رفع رضوان باشا إلى مسامع السلطان ما كـان عليه الباشا الأول من قبح السيرة في اليمن لم يزل محمود يذكر لوزراء السلطان ويتوسل بهم أن اليمن قطر لا يكفي في ولايته سلطة الباشا الواحد، حتى أثر كلامه، فبعث السلطان إلى اليمن الباشا مراد وجعل إليـه نصف ولاية اليمن (أئمة اليمن، ج١، ص٤٥٨).

ودخلت سنة أربع وسبعين وتسعمائة:

وفيها توفى سلطان الإسلام والمسلمين سيف الله المسلول على أعناق الظالمين، سليمان بن سليم، قابله الله بالرحمة والتكريم، وأسكنه في جنات النعيم، وكان تاريخ وفاته نظماً لمامية الإنقشاري هذا المصراع، وهو من البيوت التي شهدت له بالإبداع:

((مات سليمان بن سلطان سليم)).

ولما بلغ المطهر توجه من سمينا إلى بلاد أخيه، أعرض عن تراخيه، وشن الغارات والكتائب، وكتب إلى جملة القبائل ففعلت كتبه العجائب، وزحف بعسكره إلى معسكره. ووجه ابن أخيه الحسين بن شمس الدين ببعض العسكر إلى بلاد الظاهر، فسكن في محل يقال له سكن[1] ففارق طرف الباشا الوسن، ومسه الشجن، خوفاً على صعدة، من شمول الشدّة، فانتخب ذوابة جحافله، وسابقات صواهله، واسترجع العسكر الذي وجّههُ إلى جهات ذي مرمر، وتقدّمت تلك السريّة، والاجناد الجريّة، لقصد الحسين، وتجريعه من أمره الحين، وطلعت العساكر السلطانية، الجبل علانية، وقتل عصابة من عساكر المطهر، تقوّى بها السردار واستظهر، فاستقبلهم الحسين وقد استعَدَّ للشهادة، أو الظفر والسعادة، وأصدق فيهم الكرّة، فانقشعت تلك الكثرة، واسترجعت من عساكر السلطان رؤوس القتلى، وضمّت إلى تلك الأشلاء. ولما بلغ الباشا خبر هزيمتهم، وانتقاض عزيمتهم، أمرهم بالدخول إلى عمران، حتى يسعده القران، ثم أن المطهر كتب إلى السيد احمد بن حسين المُؤيدي، وإلى الأمير محمد بن ناصر الحمزي، وأمرهما بالتقدّم لحصار صعدة ومن فيها من الأروام، وإخراجهم إن طلبوا الذمام، وكان فيها الأمير المعروف بشيخ علي، وهو من ذوي المقدار العلي، مشهورٌ بالشجاعة والفراسة، والنباهة والسياسة، فخرج

(١) الظاهر: مركز من مديرية خَمِرْ وأعمال محافظة عمران. والقرية المذكورة يُقال لها اليوم: الباشه.

منها بعهود وأيمان، ومواثيق وأمان، وتوجَّه إلى الجوف، وانزاح عن قلبه الخوف، ووصل إلى صنعاء بتوابعه، بعد النجاة من مصارعه، وتعقب ذلك خروج عسكر من صنعاء إلى جبل بيت خولان[1] فأمر المطهر محمد بن شمس الدين لقصدهم إلى ذلك المكان فباكرهم بحزبه، وصابحهم بحربه، فانكشفوا عن آخرهم، وآيسوا من ناصرهم، ولبعض البلغاء من أبيات يذكر فعلة الحسين في نقيل عُجيب[2]، وفعلة محمد بن شمس الدين في بيت شعيب:

أوما سمعت عجايباً بعجيبهم
وبسفح بيت شعيبهم وقتاله
بقليعة فعلوا وبيت شعيبهم
ظلت دِمَاؤُهُمْ على أطلاله

وعقيب هذين الخبرين نقل المطهر إلى الشدنة، ومنها امتدّت في جميع البلاد الفتنة، وأمر محمد بن شمس الدين بتجهيز عسكر إلى جهات حراز، واستفتاح تلك المعاقل والحواز، وكان فيها جماعة من عساكر السلطان، فارقوها بالأمان، ولما خالفت البلاد على الباشا رضوان، واشتعلت في الفتنة النيران، وانضربت عليه الدنيا انضراب الأرشية في الطوى البعيدة، علِمَ أن آراء القاضي صالح الكوزاني غير حميدة، وقد كان القاضي المذكور أطلع على ما سيكون من فحل رفيق، وطلب الإذن من الباشا قبل أن يشتد المضيق، ويطبق عليه غيم ذلك الحادث، ويكلمه بنابه ضيغم الخطب الكارث، ففارق

---

(١) بيت خولان: موضع في رأس جبل حَضُور المعروف اليوم بجبل شُعيب في غربي صنعاء.

(٢) نقيل عَجيب: بفتح العين فكسر فسكون. منطقة من أعمال مديرية ريدة، وقد يقال لها: نقيل غولة عجيب لقربها من الغُولة.

ولي أمره، بعد أن أوقعه في شباك عسيرة، وليس ذلك من شيم الصديق، أن يشهد مع خليله النعمة والسعة، ويفارقه في المشقة والضيق، وبذل المطهر الأموال، وأجزل العطاء والنوال، فيمن يأتيه بالقاضي صالح أسيراً، ويتحفه به موثقاً حسيراً، ليريه يوماً عبوساً قمطريرا، وينكل به إلى الغاية، ويجعله لمن خلفه آية، فهو الذي قدح زند الفتن، وآثارها في قطر اليمن، بتصوراته الفاسدة، واعتباراته الكاسدة، فطلب الباشا من المطهر المراجعة، والصلح والموادعة، فأجابه إلى ذلك على تسليم شيءٍ من البلاد، خارجاً عما استولى عليه يوم الحرب والجلاد، وذلك على يد كيخيته المسيح، وكان معروفاً بالعقل الراجح الصحيح، فتم الصلح على بلاد نِهْم وخولان والحَدَاء وقائفة وجميع بلاد ذي مرمر، والخشب والظواهر وحراز وحفاش ومِلحان، وخروج رهائنهم من قصر غمدان، وكذلك عمران. وتم الصلح في شهر رجب من السنة المذكورة، وكان أمد الصلح إلى عزم الباشا رضوان من صنعاء إلى الحضرة.

فلما مرت تلك الفتن وجدّ عزم الباشا رضوان وعزله عن البلاد، وخلفه عليها الباشا مراد، تحرّك المطهر ورجف، وامتد غيم جنوده وزَحَفْ، وخرج الباشا من صنعاء يوم خامس ذي القعدة الحرام، وقد كان قبل خروج الباشا رضوان من صنعاء تفرّق من الدعاة جمعا، وتشعب صدعا، فمال آل اليامي[1] في الباطن إلى المطهر، ولم ينكشف سرّهم ولم يظهر، وأراد الأمير محمد بن عبدالله اليامي الذي كان أحد أعوان محمود باشا على النظاري أن يفر إلى ثلا، ويتحول إلى ذلك الملأ، وما برح بين تقدّم وتأخُّر، وتكتم وتستّر، فلم يتمّ لهُ ما رامه بسرعة، ولا أكثر النجعة، لكثرة أمواله، وتعدد أثقاله، فشف سرّه لخصمه وعدوّه، ومراصده في يقظته وهدوّه، الأمير محمد بن إسمعاعيل الداعي، فعند ذلك سعى في مشعر مكره، وسبَّع المساعي، ودَسَّ إلى الباشا رضوان بما

(١) آل اليامي: من قبائل حاشد ثم من همدان الكبرى. مواطنهم القديمة في جبل يام الواقع بين بلاد نِـهْم ومنطقة السِحْل في الجوف. أما مساكنهم الحالية فهي: نَجْران. ومنهم طائفة في جبل حراز.

أراده الأمير محمد بن عبدالله اليامي من العيب والعصيان، فقبض الباشا عليه، وأخذ ما لديه، وكانت ذخائره تنوء بالعصبة، وتبهج بالنصبة، وأودعه السجن في الدار الحمراء، وكابد بعد المسرة الضرّاء، ولما جد عزم الباشا وصحّ وخرج إلى ريمة، واستقرَّت لهُ بها الخيمة، خاف الأمير محمد بن اسماعيل الداعي من خروج الأمير محمد بن عبدالله اليامي عقيب عزم الباشا، وقطع بأنه إذا تركه حياً وخرج فعل به ما يروم ويشاء، فتبع الباشا إلى ريمة مسرعاً، وأتاه حزيناً موجعاً، وعَرَّفَهُ أن بقاء الأمير محمد بن عبدالله اليامي في قيد السلامة والحياة مع ما قد جرى منه من الخيانة، وعدم المراعاة والصيانة، ومكافأته للسلطنة بالعقوق، لمَّا رام بعدوها اللحوق، لا يليق بمن عرف التحقيق، فاستظهر ما كمن من غيظ الباشا رضوان، وقدح في أحشائه زند الأشجان، وأصحبه شاوشاً قد أودعه إنفاذ الأمير محمد بن عبدالله لِخَنْقِهِ، وإيراد النشط بحلقه، فدخل عليه إلى الدار، ونقله إلى دار القرار، وأراه الله عاقبة مكره بالنظاري، وجازاه في الدنيا والآخرة خالقه المصور الباري، وكان قتله في العشر الأولى من ذي القعدة الحرام سنة أربع وسبعين وتسعمائة. وبين مقتله ومقتل النظاري خمسة أعوام، كأنها غفوة منام، أو طيف أحلام. وكان بين قتل الأمير محمد بن عبدالله اليامي وقبض المطهر بن الإمام للأمير محمد بن إسماعيل الداعي خمسة أشهر، وكان بين موت الأمير محمد بن إسماعيل وقتل عدوّه الأمير محمد بن عبدالله اليامي خمس سنين، كمثل ما بينه وبين النظاري، فبُعداً لهذه الدار التي ما برحت تلعب بأبنائها، وتنوّع فيهم أحاديث أنبائها، وتدير عليهم صروف صروفها، وتذهب عقولهم بخمار حتوفها. نسأل الله النجاة، والفوز بحسن الخاتمة والسعادة في الحياة.

ولما قتل الأمير محمد بن عبدالله اليامي، وفوقت إليه أيامه المرامي، تحيّر أخوته ورفقته بأموالهم وأثقالهم إلى جانب المطهر بن الإمام، واستقبلهم بالمعروف العام، وتوجّهوا صحبة ركابه لأخذ صنعاء، وحسن لهم في تلك

المدّة ماؤها والمرعى، وكان الباشا رضوان جميلاً وسيماً نبيلاً عظيماً، جواداً كريماً، عارفاً ذكياً، فطناً المعيّا، إلا أنه سمع أقوال الكوزاني في تلك الحروب، لتنفيذ القضاء المكتوب.

وفيها نقل المطهر إلى ريْعان الخيام[١] وقدم محمد بن شمس الدين إلى جبل بيت خولان، ليحط في ذلك المكان، وأوجه المطهر جميع بلاد الحيمة والمخلاف وبني مطر، ووافاه أهل المدر والوبر، والبدو والحضر. ثم انتقل المطهر إلى جبل عصر في ذي الحجة. وفي هذا الشهر وقعت صاعقة من السماء في حصن عفّار وأصابت دار العروس، وكانت في محل مرتفع من الحصن وهي مملوءة من الباروت والكبريت والرصاص فأحرقت الصاعقة الباروت وارتفعت الدار في الهواء كما هي وأعين الناس تنظرها وهي على كيفيتها، فلمَّا مالت عن سمت الحصن احترقت أخشابها، وتفرقت أحجارها، وصارت في الهواء بدداً، وكانت هذه آيةً باهرة، فسبحان رب كل شيءٍ، وخالق كل شيء.

واتضحت للمطهر في الفتوحات المحجّة، وكان في المدينة، مدينة صنعاء، ستة عشر أميراً، وخلفت الباشات فيها عسكراً كثيراً، وأحاط بهم المطهر إحاطة الجفون بالأحداق، والقلائد بالأعناق، ووجه إلى ريمة بني حُمَيد أخاه علياً، وأمره بحفظ الطريق بكرة وعشيًّا، ووجّه الأمير أحمد البعداني إلى جهات خُبَان، بجماعةٍ من عساكره الأعيان.

وبلغ الباشا مراد حصار صنعاء ومن فيها، فشمَّر عن ساق عزمته في تلافيها، ووصل إلى ذمار بعسكر جرار، وقدّم أمامه أميراً، يقال له أحمد محبوب وأقواتاً وعدداً وعدد، فوجّه المطهر للقاه الحسين بن شمس الدين، في عسكر متتابع مكين، فالتقى الفريقان، وتقابل الجمعان، في وقت الضحى، من

---

(١) رَيْعَان: بفتح فسكون ففتح، قرية وواد في غربي مدينة صنعاء، فيما يلي جبل عَصُر والصُّبَاحة، ويسيل الوادي إلى منطقة حَجَر سعيد من بلاد هَمْدَان.

يوم عيد الأضحى، وحمل عليهم الحسين حملة حملتهم كالريح العاصفة، وغارت الطيور عليهم عاكفة وآنفة، وقتل الأمير أحمد واحتز رأسه، ونهبت وأجماله وأثقاله وتفرقت بأسه، ولما بلغ أهل اليمن قتل الأمير أحمد في الذراع[١]، وظهر الخبر في ديارهم وذاع، أعلنوا بذكر المطهر على منابرهم، ورسموا اسمه في الخطبة بمحابرهم، ووثبوا على من في إب وجبلة من الأروام، وحكموا فيهم الحسام.

وبلغ الأمير عيلى، حاكم مدينة زبيد، حدوث ذلك القتل البديد، فجمع جموعه، وفارق ربوعه، ووصل إلى الحُجرية، لدفع تلك الرزية، فلم يشرق في ليلها صبحه، ولم يتم له نجحه، وانقطع الباشا مراد في ذمار، عن المخبر والمار، والوت به الفتنة، وغازلته مقلة المحنة، فترك أثقاله، وخلف أحماله، ولم يصحب معه إلا ما خفّ من الخزائن، وراق في طرف المعاين[٢]، وسار في ليله، مصاحباً لخيله.

فتقدّم الأمير أحمد البعداني الذي كان أرسله المطهر بتلك العسكر إلى تلك الربوع والمغاني، فأجرى في طريق الباشا الخيل، واستصرخ القبائل، فأقبلوا كآتي السيل، ولازموه بالحرب في الشلالة[٣]، وعسر على خيله قتال الرجالة، لتلك الحماة اللازبة، والطينة التي للماء شاربة، فأخذتهم تلك السباع المفزعة، وقتلوه ومن معه، واستولى الأمير أحمد على خزائنه وذخائره، وعلى أسلحة عساكره.

(١) الذراع: قرية في جبل الدّامغ من مديرية السياني وأعمال محافظة إب.
(٢) المَعَاين: نبع ماء جارٍ وقرية في غربي مدينة إب، فيما بين جبل بَعْدَان وجبل الشوافي.
(٣) الشَلالَة: قرية في سائلة زَبَيْد من مديرية عَنْس وأعمال محافظة ذَمَار.

ودخلت سنة خمس وسبعين وتسعمائة:

وفي المحرم منها وصل رسول صاحب مضرح[1] والأمير أحمد برأس الباشا وبمده والعدد فأرسل المطهر بالرأس إلى المحصورين بصنعاء غروب ذلك اليوم، فلما عرفوه فارقهم النوم وطلبوا الأمان، واليد بالمواثيق والأيمان، وأن تصان أموالهم، وأحوالهم، وترعى مناصبهم، وتحترم مصاحبهم. فأجابهم المطهر إلى مرادهم، وجنح إلى إسعادهم، وأنه موف لهم بتلك الرعاية، ما لم تظهر منهم مكيدة أو جناية. ثم أسعد بخروجهم، وحشر جنوده في موضع خروجهم، وخرجوا في عسكر يملأ الربع، وجيوش تثير النقع، ولما مثلوا في مقامه، وضربت لهم الخيام بين خيامه، خلع على الأمراء وأرباب المناصب ورؤوس الأبلاق في تلك الكتائب، وأخرج الخزائن من النقد، وأمر كتاب الدولة العثمانية بالعد، على قواعدهم في الديوان، ومراتبهم في موضوعات السلطان، وأُخذت منهم العهود الأكيدة، والمواثيق الشديدة، ثم انصرفوا راجعين إلى صنعاء بتلك الجنود، والألوية والبنود، وكان جملة الأمراء والأغوات والأعيان المواجهين، في ذلك الوقت والحين، من يأتي عدّهم، ويذكر سردهم: الأمير محمد بن حسن قزل باش، وهو السردار، والأمير قراحوز، والأمير شيخ على بيه، والي صعدة، والأمير حسن، والأمير جعفر، والأمير حمزة، والأمير يوسف، والأمير الناظر، والأمير الفايق المعروف بفايق تعز، والأمير الفايق المعروف بفايق صنعاء، والأمير كيوان، والأمير محمود، والأمير سنان الأعرج، والأمير علي طويل، والأمير عبدالله الجعوي أبو حسين أغا الموجود، والأمير محمد بن إسماعيل الداعي أبو الأمير حسن وولده حسن الموجود الآن، وأخوه عبدالله. ومن الأغوات الكتاب داوود أغا وصار في آخر أيامه أميراً، وهمدم أغا وصار بعد ذلك أميراً، وعلي طويل قتله مراد باشا في دولته،

---

(١) مَضْرح: حصن في أعلى جبل منقير المُطّل على وادي بَنّا، من بلاد العَوْد في النادرة.

وجعفر أغا قتله كذلك مراد باشا كما سيأتي ذكره، وغيرهم من الأغوات. وكان جملة الخيل في صنعاء خمسمائة عنان، والعسكر من العرب والأروام زهاء الفين خارجاً عن توابع الأمراء والأغوات، وكان خروجهم لمواجهة المطهر إلى جبل عصُر في العشر الأول من شهر صفر المظفر من السنة المذكورة، وقبض المطهر قبل دخوله صنعاء على الأمير محمد بن إسماعيل الداعي وعلى ولده الأمير حسن وعلى أخيه عبدالله، وقريبتهم المطلب، وقدمهم إلى السجن بصنعاء. ودخل صنعاء في يوم عشرين من صفر من السنة المذكورة في زيٍّ عظيم، وجيش عميم، وحملت على رأسه جميع الصناجق، وحفّت به بيارقها والفيالق، وتوجّه بفرد رأسه وأهل ركابه، وخاصة أصحابه، إلى الجامع المقدّس فصلى فيه ركعات، وقرأ من كتاب الله بعض آيات، وتوجهت تلك الجموع صحبة أولاده إلى القصر، وأقيم الموكب والعرض للجند إلى العصر، واستجابت بعد ذلك للمطهر البلاد بالفتح والنصر، وقبض على الأمير عبدالله الجعفري عقيب دخوله صنعاء وجعل عليه رسماً وحشماً فأقام أسيراً ستين يوماً، ودعَاه الداعي فاستعجله، وفاجأه في محبسه أجله، وقبض على ولده صبر وهو صغير، ولم ينله تعسير، ثم وجّه المطهر الأمير علي بن الشويع لولاية تعز وبلادها، وعقد لولده لطف الله على حب وبلاده وإب وبلادها وجبلة وبلادها والسحول وذي السفال والمخلاف، ثم وجه لأخذ عدن الأمير قاسم بن الشويع ففتحها وأطاعته مخاليفها، ثم فتحت ريمة ووصاب وبُرع، وأمر بأن يعمر الأمير قاسم في عدن مدرسة وصومعة، تكون للأذان مسمعة، ثم فتح جازان، وجزيرة في البحر يقال لها فرَسان، ثم بيت الفقيه بن حُشيبر على يد الشريف عيسى بن المهدي، وأطلع الشريف المذكور بعد أن ظفر بالأروام الذين في بيت الفقيه البنادق والزبرطانات، وأمر المطهر بجر بعض المدافع من جازان بما دعت الحاجة إليه، وواجه الشريف عيسى بن المهدي وأكثر أهل التهائم. وقصدت مقامه العوالم.

وفيها خرج الباشا حسن المعروف بارس حسن إلى زبيد لولاية اليمن، فتأخر في زبيد حائر الفكرة، ظاهر الحسرة، لا يطمع في أخذ البلاد، ولا تجهيز الأجناد، ولما علم أن ماله قوة بمقابلة المطهر، وقد كان لما وصل إلى زبيد وبها استقر، وقد مر بيت الفقيه بن حشيبر عدّة من عسكر السلطان الذين أخذ سلاحهم، وسلمت أرواحهم، فهاله ما أبصر، وكتب إلى الحضرة واستغاث واستنصر.

وفيها قُتل محمود باشا الذي فتح حصن حَبّ، رمي بالبندق، رماه بعض عسكر مصر، وفي تاريخ قتله يقول بعض الشعراء:

إنَّ محمود بغيه قتله كان موعظه
قيل أرّختَ قتله قلتُ تاريخه عظه

ودخلت سنة ست وسبعين وتسعمائة:

وفيها أمر المطهر الأمير علي بن الشويع أن يتقدّم بمن لديه وينازل زبيد، ويتابع عليها القتال الشديد، فتقدّم بجيش كأنه الغمامة، إلى مكان يقال له السلامة[١] فوقع بين الأمير علي بن الشويع وبين العسكر الذين في حَيْس[٢] حروب، ومصابرة وخطوب، وكان فيها أمير يقال له أمر الله، فلما اشتدت المنازلة، ودامت المناصلة، أرسل حسن باشا الأمير قيروز مدداً، وقرن به عدّاً وعدداً، ثم كثرت جنود بن الشويع، فانهزم جند السلطنة الجميع، وأخذت منهم خيل ورؤوس، وكان يوماً مكفهرّاً عبوس، وكان عدة الخيل التي أخذت أربعين

(١) السلامة: قرية ومركز إداري من أعمال مديرية زبيد، في الشمال الشرقي منها. كما تحمل ذات الاسم قرية أخرى في شرقي مدينة حَيْس.
(٢) حَيْس: بفتح فسكون، مدينة مشهورة جنوب زبيد بمسافة ٣٥ كيلاً.

عناناً، وأُخذت حيس قسراً لا أماناً، وأخذت العساكر المطهرية حيساً، وأنــــووا بها إقامة وتعريساً. ودخلت العساكر السلطانية زبيد، وانضموا إليها بعد ذلـــك التشريد، وأمره المطهر بن الإمام بأن يتخذ حَيْساً وطنـــاً، ويجعلـــها مسـكناً، ويحسم المواد عن مدينة زبيد، ويقطع من مسالكها الأوداج والوريـــد، ويقـــف مركزاً للوافد والقادم، ويتصدر لمن يواجهه من أهل التهائم.

خلافٌ حدث من الأمير علي: فانحط ناموسه العلي، فخالف ما أمـــر بـــه المطهر، وظن أن نجم الظفر قد أشرق وظهر، فتقدّم على زبيد ومن فيها وشَنَّ الغارة عليها.

رأي سديد حَسَنْ: حصّله الباشا حسن، فعلم حسن باشا أن وقوف العساكر المتفرقة في التهائم لا نجح فيه ولا فلاح، وأن جمعهم لديه أقـــوى للمبـــارزة والكفاح، فحشد الجنود، وألَّف شمل تلك الأسود، وخرج بالسرية لقتال العســاكر المطهرية، وجرى بين الفريقين قتالٌ يذهل العقل ويشغل العين، وأنزل الصـــبر عليهما، وقام سوق الموت بين صفيهما، وما برحت السيوف ترعف، وطيـــور الأرواح تسف حتى أغمد سيفهم الليل، وانقطعت عن الطراد الخيل، فعاد كـــل منهما إلى أهله، وآوى إلى محله. ولما اسفرت شمس اليوم الثـــاني، وأمـــدَّت أشعتها على الربوع والمغاني، خرجت العساكر السلطانية بعد اجتماع شـــملها، واتصال فرعها بأصلها، وخرج ذلك الجمع المهول الـــذي لا يفـــوت ســـيوفه الدخول، فانهزم الأمير علي بن الشويع بجموعه، وأفل نجم سعده بعد طلوعـــه، وقتل من عسكر المطهر ثلاثمائة إنسان، وتبعهم عسكر السلطان، وقتل تحـــت الأمير علي حصانه، ولصق بالأرض جرانه، فرجع إليه بعض أصحابه بفرس جواد، نجا عليه وقد كاد، وانتهبت عساكر السلطنة خيامه وخزائنه وجُبَّخَانَتِـــه وآلاته، ودخل حيساً وفارقها من حينه، ورجع إلى تعز يتبـــع أنينـــه بحنينـــه. وحسن باشا عاد إلى زبيد في يوم كأنه يوم عيد.

وفي يوم الأربعاء تاسع وعشرين شهر ربيع الآخر وقـــع فـــي الشـــمس

كسوفٌ عظيم طلعت من المشرق وهي منكسفة، وكان حادث ذلك هذه الأمور المختلفة، والألوان المؤلفة، وذكر أهل الحكمة أن حادث الشمس يكون في السنين، وهذه السنة حدث تأثيره بسرعة والسبب في ذلك انكسافها تحت الأرض وطلع منخسفاً كان حادثه قد مضى وتقدم، فسبحان من له الحكم والأمر.

وكتب الباشا عقيب ذلك إلى الحضرة العالية يستنهض الغارة، ويستعجل الفرسان الكرّارة، فأجاشه بعثمان باشا ازدمر بألوف وسيوف، وجنود لا تفر عند الزحوف، ووصل إلى بيت الفقيه ثم دخل زبيد في السنة المذكورة في العشر الوسطى من جمادي الآخرة. ثم أنها وجدت على الأمراء الذين كانوا في صنعاء من الأمراء السلطانية كُتُبٌ إلى الباشتين يستصرخون فيها بالنصر والإغاثة، وإدراكهم بالغارات الحثاثة، وكانت الطرق محفوظة، ومسالكها غير مرفوضة، فلما أطلعهم المطهر على مضمونها، وعرفهم بانكشاف سرهم من مكنونها، قال لهم: خالفتم الشروط، فوقع المشروط. وقبض عليهم في الحال، وأودعهم الاعتقال، وقد كان نمى إلى المطهر تجهيز العساكر السلطانية، والسناجق الخاقانية، من مصر إلى اليمن، وعلم أن سلطان الإسلام لا يتركه مظهراً للفتن، وكانت له عيون تغلغل في تلك الجهات، وجواسيس تطلعه على خفيّ الكائنات، فأظهر سره، وملك أمره، وفي خلال ذلك وصلت كتب من الأمير علي بن الشويع من تعز، يستصرخ الغارة، ويستفز، وأخبر المطهر أن عثمان باشا قد قصده بكافة من معه من عساكر السلطان. ثم أن المطهر جمع الألوف، وشحذ السيوف، وجنّد الأجناد، وانتخب الخيل الجياد، وجعل عليها رئيساً مقدماً، وناقضاً ومبرماً، محمد بن شمس الدين، وجهّزه بالأموال والجيش المكين، وشرعت الحجرية تضطرب، وتشتعل فتنتها وتلتهب، فأمر المطهر بقبض أمير الحجرية الأمير أحمد بن عبدالوهاب الحجري في جماعة واطلعوا إلى محروس صنعاء، وتراخى محمد بن شمس الدين في المسير، ووصل

عثمان باشا إلى تعز ودخلها عنوة لما عَزَّ النصير، وذلك في شعبان من السنة المذكورة، وانضمت عساكر المطهر إلى القاهرة لما حلّت بتعز تلك الأزمة الفاقرة، وكان محمد بن شمس الدين شجاعاً لا رأي له، ومقداماً يقنع بالصدمة الأوّلة. وخرج الأمير علي بن الشويع منها قبل دخول الباشا إليها لذلك السبب الذي قدّمناه، والموجب الذي شرحناه، ولما علم المطهر بن الإمام بهذه الحادثة العظيمة، والكادحة الجسيمة، شن الغارات، من جميع الجهات، واستصرخ العرب، وانتخب للقتال كلّ بيهس أغلب، وضمّهم إلى محمد بن شمس الدين ومن لديه، وكان في جملة تلك الجنود لطف الله والهادي، وحفظ الله وصلاح وسليمان أبناء المطهر، وعبدالله بن شمس الدين، وغيرهم من ذوي البصائر، وكرام العساكر، ولما اجتمعت تلك الجيوش في ذلك النادي، لبى نداء المطهر الحاضر والبادي، من جميع البلاد الشافعية، والقبائل اليمنية، فزحف محمد بن شمس الدين بعرمرم كسيل العرم، أو التيار الملتطم، وجعل محل العسكر في الجبل الأغبر[١] وتطيّر الناس من اسم هذا الموضع، ووقع منه في القلوب ما وقع، فاستشرف على تعز من ذلك المكان، وعثمان باشا يشعل نار الحرب على قاهرتها في كل أوان، ولما بلغ عثمان باشا وقوف محمد بن شمس الدين في الجبل، واتصل به خبر ذلك الجحفل، داخلته المخافة، وكف عن رمي القاهرة بالمدافع الزحّافة، ولما آن وقت المساء اجتمع عند محمد بن شمس الدين الرؤساء، وأشاروا عليه ان يوجه الأمير علي إلى المداجر[٢]، ويصحبه بعض العساكر، ويوجه من جبل صَبِر[٣] أحد أولاد المطهر، لتعان القاهرة

---

(١) الجبل الأغبر: موضع من الجَنَديّة العليا، بمديرية تعز، في شمال مدينة تعز قريب من قرية الخنسر، وقد يقال له الغبراء.

(٢) المداجر: أكمة جبل من الشعبانية السفلى في الغرب الجنوبي من مدينة تعز، هي اليوم من أحياء المدينة وكان بها بابٌ قديم في سور مدينة تعز هو باب المداجر، وقد هُدم من مدة قريبة نتيجة الزحف العمراني، وموقعه أعلى وادي العرش، وقريب من منطقة الحقالي.

(٣) جبل صَبِر: بفتح فكسر، جبل مشهور تقع في سفح منحدره الشمالي مدينة تعز.

وتنصر، ويوجه مع من عرف من جهة القصيّة جُنداً، ويتأخر في مخيمه حتى يكون للجميع ناصراً وممداً. وكان محمد بن شمس الدين، ليس له في الرأي بصيرة، ولا تمكين، ولا خدعة إذا اشتد النزال، ولا تدبير في القتال، يستقل بآرائه ويتّبع هواه، وكان من أسباب خذلانه، وضعف شأنه، أن الخزائن التي أودعه المطهر، وأعدّها لجملة ذلك العسكر، ظن عليها صفده، وشحت بها يده، وحبس عن الناس العطاء، وسلك بذلك منهج الخطأ، فأضمر من معه الخديعة إذا رجفت الصفوف، وتجالد الأقران بالسيوف.

هفوة: كان بها انحال القوة، ثم أنه خالف تلك المشورة التي اجتمع عليها أرباب العقول والبصيرة، ولو فعلها لظُفر، وعلى خصمه نُصر، لكن الأقدار غالية، والحيل مع قضاء الله ذاهبة، فاقتضى نظره توجيه الأمير علي بن الشويع إلى الجبل الحبشي[1]، وليس عليه حربٌ في صبح ولا في عشي، وتوجه إلى دخول القاهرة[2]، فلما وصلها بعض تلك الجنود الغامرة، وفطن عثمان باشا بذلك، علم أن محمد بن شمس الدين قد صار في قبضة المهالك، فجمع عسكره وخيله، واشتد بحيله وحوله، وأخرج فرساناً من أعيان الاروام، الممارسين القتال والصدام، ولديهم جماعة من أهل البنادق، قد عرفوا بالصبر في شدة المضائق، فما شعر محمد بن شمس الدين، إلا بهزيمة من في الحصن من عساكر الزيدية بعد أن قتل منهم عدة في تلك العزمة، وأول الصدمة، وخالف عليه أهل جبل صبر، ورُمي بيوم نحسٍ مستمر، وحالت العساكر السلطانية بينه وبين مسلكه، ورام الخروج من القاهرة إلى محطته فعاين مصارعَ مهلكه، وأحاط به الباشا عثمان من كل جانب ومكان، ولُفتت المدافع

---

(١) الجبل الحبشي: هو جبل حَبَشِي بدون ألف ولام التعريف: ويقع في غربي جبل صبر، حيث يفصل بينهما وادي الضَّباب. واسمه قديماً "ذَخِر" ويشكل في أعماله مديرية من مديريات محافظة تعز.

(٢) القاهرة: قلعة حصينة تشرف على مدينة تعز، وموقعها على جبل صغير اسفل جبل صبر من الجهة الغربية.

كلها إلى القاهرة، وأحدقت بهم فإذا هم بالساهرة، واجتمع إليه أعيان من لديه، وقالوا له هذا عاقبة الإستبداد، ومخالفة رأي الكملة الأمجاد، والآن لم يبق لنا طريق غير المخاطرة بالأرواح، وخوض هذا الجم ولو ذهبت أرواحنا على أطراف السيوف وأسنّة الأرماح، لأنا إن بقينا إلى إختلاط الغياهب، وظهور الكواكب، ثبت علينا الحصار، وصرنا في خبر صار، فلا اهيأ من سلوك الجادة، طلباً للسعادة والشهادة، خير من الوقوع في الأسر، والقود إلى الهوان بالقسر. فخرج بذلك الخميس، يقطع غاية ذلك الخميس، واشتد بين الفريقين القتال وحمى الوطيس، وذلك في غروب الشمس، قبل أن يلحق اليوم بأمس، فما فاز بالسلامة إلا بعد اللتيا، وهيّأ الله له من النجاة ما هيأ، ولم يبق في القاهرة غير أرباب ولايتها والموكلين. وفي خلال ذلك والوزير سنان، قد عمّ البسيطة بعساكر كأنهم الجان، من كماة الفرسان، وأعيان الشجعان، وخزائن قارونية، وأبهة سليمانية، وجمال تملأ الفضاء، وتترك ما مرت عليه كأمس الذي مضى، وخرج إلى اليمن في زيٍ وجمعٍ لم يعهد مثله في الإسلام، ولا خرج إلى اليمن نظيره ممن سبق حكمه على إقليم اليمن في الملوك الأعلام، لا في الدولة الأموية ولا العباسية، ولا الدولة العلوية، ولا في الملوك المصرية، فإن جملة جماله تربو على ستين ألف جمل، ومن الجنود ألوف غير الحشم والخول، ولما امتد ذلك الغمامُ انبسط، وعلى آفاق تعز اشتمل وحط، وقد كان انضم إليه حسن باشا، وصحبته ركابه مشَى.

<u>رأي رآه المطهر لمحمد بن شمس الدين:</u> خالفه فوقع في الخذلان المبين، ولما بلغ المطهر تقدّم الوزير، بذلك العارض الذي يهتز لبطشه يلملم وثبير[1]، وتحقق وصوله زبيد، بجمعه العديد، كتب إلى محمد بن شمس الدين يأمره بالانتقال إلى التعكر، على وجه التحرّز لا الذهاب والفر، وأفهمه ألاّ طاقة لديه

---

(١) يَلَمْلَم وثَبِير: من الجبال المشهورة عند العرب المذكورة في أشعارهم.. وكلاهما بالقرب من مكة المكرمة.

بمقاتلة هذه الجنود العظيمة، والمملكة الجسيمة، وأشار عليه بذلك الرأي السديد عدّة من أهل الكمال والشفقة والمودّة، فما أطاعه طبعه، ولفظ هذه المشورة سمعه.

ولما كان اليوم الرابع عشر من شهر القعدة الحرام من السنة المذكورة، اختار الوزير سنان الأعظم لمنابذة محمد بن شمس الدين الباشا عثمان، وانتخب معه رؤوس المقاتلة وأعيان الشجعان، فلما تقابل الجيشان، وأمطر سحاب الحرب الشنّان، شدّت العساكر السلطانية، والأبلاق الخاقانية، على محمد بن شمس الدين وجنوده، شدةً مزقتهم في حدوده ونجوده، فولوا منهزمين، وأعرضوا مدبرين، لا يحمون جريحاً، ولا يحملون طريحاً، واستولوا على خيامه بعده، وعطلوا عن تلك الذخائر يده، ووجدوا في المحطّة من المجاريح والمرضى عدّة وافرة، وأمّة قاصرة، ضُربت أعناقهم، وحُسمت عن الحياة أرزاقهم، ووقف الوزير، بذلك الهجير، وانتقل محمد بن شمس الدين بجملة العسكر، إلى النجد الأحمر[1] من أعمال التعكر. ثم أن الوزير رام من أهل القاهرة التسليم، فطلب عثمان باشا قتلهم فلم يساعده الوزير، وعرّفه أن نقض العهد من مسخطات الخبير البصير، فطلب ذلك غاية الطلب، وخامره الغيظ والغضب. والسبب في هذه الحقود، وطلبه لنقض العهود، شدّة ماقاساه منهم أيام قتالهم، وأوقات نزالهم، فإنهم قتلوا عدّة من رجاله، وجماعة من أبطاله، فلم يساعده الوزير إلى مرامه، ولا نفذ في قتلهم محكم أحكامه، ففارقه ذاهباً، وذَهَبَ مغاضباً، ولم تصحبه غير خواصه، ورفقة اختصاصه، وتأخر عنه من خرج معه من العساكر السلطانية، والجنود الخاقانية. ثم أن المطهر لما بلغه انتقال محمد بن شمس الدين إلى النجد الأحمر، بجملة العسكر، كتب إلى ولده لطف الله بن المطهر بأن ينتقل إلى الشماحي[2] ولا يسمع في ذلك ناصحاً

---

(١) النجد الأحمر: مرتفع جبلي جنوب مدينة إب بمسافة يسير منه خط الطريق الذاهبة إلى تعز.

(٢) الشَمَاحي: قرية في وادي الحار من مديرية عنس وأعمال محافظة ذَمَار.

ولا لاحي. ثم أن الوزير الأعظم زحف بصناجقه، وأبلاقه وبيارقه، فانتقل محمد بن شمس الدين من مكانه، بعسكره وإخوانه، إلى صُهْبّان[1]. فقدم الوزير قبله حسن باشا إلى قرب ذلك المكان، وانتقل الوزير إلى وادي ميتم[2]. فلما بلغ محمد بن شمس الدين انتقال الوزير نهض من ذلك المخيم، إلى جبل الشماحي في الآن، فتبعه الوزير والباشا إلى شبان، وحصر الوزير جماعة من أصحاب المطهر في تلك الأماكن. ووجه عليهم أميراً يُقال لهُ الأمير حمزة، وعسكر الصدى الواصل والضّاعن، فتقدم لطف الله بن المطهر إلى محمد بن شمس الدين وعرّفه بأن يزيد معه زيادة إلى عسكره الذي لديه، ويتقدم بهم بين يديه لينقذ أصحاب أبيه، ويخلّصهم مما حصلوا فيه، فقال نحن أنضاء أسفار، ولا طاقة لنا في هذه الساعة على الانتصار، فما هم بأحسن ممن قد ذهب ومضى، فاصبر لحكم القضاء، فأجاب عليه لطف الله: إني لا أطعم الماء البارد حتى أرد هذه الموارد، وأخلص تلك العصابة، وأطلب من الله الظفر والإصابة. فتقدم بأصحابه، وقابل القتال برفقته وأحزابه، فدارت عليه رحى الحروب من وقت الزوال إلى قبيل الغروب، وهزم ذلك العسكر، وقتل الأمير حمزة، رَمَاه بيده لأنه ترجل للقتال وانتصر، وخلص أصحاب أبيه، مما وقعوا فيه، ورجع إلى مخيمه منصوراً لم يفتقر إلى نصير، ولا فَلَّهُ تأخير المغير.

وفي شهر الحجة الحرام، وجه الوزير الأعظم أميراً وعسكراً لأخذ عدن، فانحاز الأمير قاسم بن الشويع في بعض حصونها، وبه وقف وسكن، وملكت العساكر السلطانية المدينة والبندر، وخطب لسلطان الإسلام على ذلك المنبر، وخرج الأمير قاسم بن الشويع بالأمان إلى يد ذلك الأمير، فضرب عنقه وجميع من معه، وصارت أجسامهم في بطون الوحوش مودعة.

---

(١) صُهْبَان: بضم فسكون ففتح، منطقة في جنوب مدينة إب بجوار جِبْلَة.

(٢) وادي مَيْتَم: سبق الإشارة إليه وأنه في شرقي مدينة إب بسفح جبل بَعْدَان.

ودخلت سنة سبع وسبعين وتسعمائة:

وفي المحرم منها وجَّه المطهر أخاهُ علي بن الإمام من مدينة صنعاء في عسكر إلى حصن حبّ السيري، وأمره أن ينتخب من العسكر كل ماجدٍ سرى. ثم أن الوزير الأعظم عقد الويته، وشمّر همته، وقصد بذلك العديد الأكثر، والجيش الكثيف الأكبر، محمد بن شمس الدين[1] إلى الشماحي، وتوجه لأخذ تلك النواحي، وبثّ الحرب عليهم من الجهات الأربع، وأتاهم الآتي الهائل فدفع، فما وسع محمد بن شمس الدين ومن معه من الجنود، غير الفرار من تلك النجود، وبرقت عليهم خيل الوزير السوابق، واصدفت الحملة فيهم بنات لاحق، فتولوا مزمعين، وفروا مسرعين. وذلك في اليوم الثالث عشر من السنة المذكورة، ووصل إلى مقام المطهر إلى صنعاء، لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعا، ولما حضر بين يديه للمثول، قابله بأحسن قبول، ولم يعاتبه على سوء فعله، وتهوره في موبقات جهله، وأمر المطهر بجر المدافع والزبرطانات إلى الحصون، وحمل السلاح والجبخانات وأصحب مع ذلك كل مظنون مصون، واستخدم من أهل صنعاء خمسمائة جعل لهم السلاح والجامكية، وخرج من صنعاء في غرّة شهر صفر من السنة المذكورة، ولم يمنع أهل صنعاء عن مواجهة الوزير كما فعل لما حاصرها أزدمر فنالها الخطب العسير، وكان المطهر يقول: لي في الزمان ثلاث هفوات، لا أبرح منها حليف الحسرات، فقيل له في شأنهن، وما هن ؟ فقال: الأولى حربي لوالدي رحمه اللهُ تعالى، والثانية عمارتي لطيبة وإنفاقي فيها نفائس الأموال، والثالثة منعي أهل صنعاء عن مواجهة أزدمر باشا، فهذه الثلاث الخلال التي لا أعرف لنفسي هفوات سواها، اسأل الله أن يهون جواها، ويغفر خطاها.

---

(١) محمد بن شمس الدين: هو ابن أخي المطهر بن الإمام شرف الدين، وقد تولى له – كما يحكي المؤلف – قيادة جيشه للاستيلاء على مدينة تعز، وَلكنه لم يكن حازماً، كما وصفه المؤلف. وقد كانت وفاته في رمضان سنة ٩٩٢هـ.

وتقدم الوزير الأعظم إلى ذمار، بجيشه الجرّار، ووصل عقيب خروج المطهر من صنعاء مرسوم كريمٌ من الوزير الأعظم فيه أمان لأهل المدينة، سكنت بذلك نفوسهم الحزينة، واختاروا للقائه مائة رجل منهم، فأكرمهم وأجلهم، ودخل صحبتهم شاوش يمنع العساكر عن دخول البيوت، والبحث عن العلف والقوت.

ووصل الوزير الأعظم إلى صنعاء ثامن شهر صفر من السنة المذكورة، وحطَّ غربي المدينة، بتلك الجنود والزينة، وقد كان المطهر قبل أن يخرج من صنعاء عقد لولده لطف الله بولاية ذي مَرْمَر وبلاده، واصحبه عدّةً من أجناده، فلما وصل الوزير إلى صنعاء وجَّه الباشا حسن في عسكر إلى وادي السِر فحاربتهم بنو يزيد[1] فكثر عليهم ذلك العد الشديد، فدخلوا عليهم بالسيف، وأذاقوهم مرارة الحيف، وقُتل جماعة من أهل صنعاء الذين كانوا في السِر منهم الفقيه أحمد بن الفقيه صلاح العنجور الحكيم، وسبيت الأولاد والحريم، ومن سَلِم من الرجال من ذلك الخطب العميم، أرسلوا به إلى السيب أسيراً، لا يملك موتاً ولا حياةً ولانشورا، وتقدم الوزير سنان لحرب ثلا وكوكبان سادس وعشرين شهر صفر من السنة المذكورة، ووجه الأمير عبدالله بن محمد الداعي ذلك اليوم بعسكر إلى الحيمة والمغارب فواجهته جميع البلاد، الحاضر والباد، ولما وصل الوزير بعسكره إلى حَوْشان حمل بعسكره عنوة إلى شبام، فأخذها عنوة بالسيف، ومروا عليها كسحابة الصيف، وكان تاريخ دخول عسكر السلطنة إليها، واستيلائهم عليها، هذه اللفظة: دخل شبام.

فإذا حسبت ذلك بالجمل كان تاريخ البلد على التمام، ولما انهزم منْ في المدينة صعد إلى العارضة[2] والأجناد لهم معارضة، فلما عرف المطهر بذلك

---

(١) بنو يزيد: بلدة وقبيلة من عِيَال مَالِك، بمديرية بني حِشَيْش في شمال شرق صنعاء ومن أعمالها.

(٢) العارضة: قرية صغيرة في عرض جبل كوكبان، أعلى مدينة شبام.

وجه فرقةً من عسكره وكانت طريقهم تحت الضلع[1] فلم يشعر جند الوزير الذين تشرعوا العارضة إلا بالسيوف فيهم، وأصحاب المطهر قد ألوت بهم، فانهزموا منها، وانصرفوا عنها، وكل عاد إلى مكانه، وشغل بأموره وشأنه، وبقيت شبام تحت حكم الوزير، لا مانع لها ولا نصير، ثم أن الوزير وجه حسن باشا في عصابة فعّالة، وسيوف قتالة، وأمره أن يطلع بمن أصحبه من العساكر من جهة جبل تيس ويقصد محمد بن شمس الدين من بني الخياط[2] ويطلع الضلع ويحفظها ويحتاط، فعزم من وقته ودخل تلك الجهات، وواجهوه على اختلاف الحالات، ولا ناله حرب، ولا قابله حزب، فلقيهم محمد بن شمس الدين، بمن جمع، إلى جبل الضلع، فجرى بينه وبين جند الوزير حروبٌ في محل يقال له جروف السمعي، قتل فيه عدة من أصحاب الوزير، وأخذت رؤوسهم وأسلحتهم وأرسل بها محمد بن شمس الدين إلى مقام المطهر بن الإمام. فلما قرب حسن باشا من بني الخياط، بتلك الجموع والمحاط، قصده محمد بن شمس الدين والأمير علي بن شمس الدين في زمرةٍ نافعة من الفرسان، واستخلف على حصن كوكبان صنوه الحسين بن شمس الدين، وقد كان شرعت في الحسين علّتُه التي أفنت مهجتَه، وأذهبت بهجته، فالتقى عسكر الباشا حَسَنْ في محل يقال له صَيْعَان[3] وفيه كان الجلاد والطعان، وأصيب في ذلك اليوم محمد بن رضى الدين بن الإمام شرف الدين، وقع فيه بندق أرداه، وأعدمه الحياة، فحمل إلى الطويلة ودفن تحتها، وعليه قبة معمورة، مشهورة مزورة، وما برح القتال بين محمد بن شمس الدين وحسن باشا ثلاثة أيام، ثبت فيها القتال واستقام، ثم آل الأمر إلى انهزام محمد بن شمس الدين وجنده، وترك باقي محطته وعدّته ونقده، وقتل من عسكره جماعة موفورة، وعصابة

---

(١) الضلع: هو الجبل الذي تقوم في ذروته الشرقية مدينة كوكبان.

(٢) بنو الخَيَّاط: مركز إداري من مديرية الطويلة، وأعمال محافظة المحويت.

(٣) صَيْعَان: من قرى بني الخياط، ويقال لها: لكَمَة صَيعَان.

مشهورة، وانخزل عنه علي بن الشويع إلى بُكُر[١] وهو في يد المطهر بن الإمام، وتوجّه محمد بن شمس الدين إلى كوكبان صحبة سبعة أنفار، ودخل كوكبان بهذه العصابة التي صحبته في الفرار، وعزمت جميع خيله وجنوده إلى حضرة المطهر بن الإمام، وقبضت لهم الخيام، وقام بهم أتم قيام.

وزحف الباشا حسن على كوكبان بجمعه ومدافعه، وأمن من رادعه ودافعه، وحينئذٍ وقع انحصار كوكبان، وأحاط به من كل مكان، ولما صحّ حصاره، وبَعدت أنصاره، أمر الحسين بن شمس الدين بإخراج الأمراء الذين كانوا محابيس في حصن كوكبان، وهم: الأمير يوسف، والأمير قزل باش، والأمير الناظر، والأمير علي شيخ، والأمير حسن، والأمير قراجوز. فخرجوا إلى محطة الأروام، فأكرم الوزير مثواهم، وعين مأواهم، وخلع عليهم الخلع، وشرّفهم ورفع.

وفي شهر شعبان من هذه السنة توفي الحسين بن شمس الدين، وكان سيّداً هماماً، ماجداً مقداماً، كثير الصلوات، كثير العبادات حليف المحراب، كثير التلاوة للكتاب، وكان وفاته في الحصار المذكور، وقام المطهر في حماية كوكبان وقعد، وأبرق وأرعد، وبذل الأموال للداخل والخارج، ومنح المتطفل الوالج، وكان يجعل لمن دخل عشرة دنانير ذهباً أحمراً، ولمن خرج كذلك، وكل أمرٍ يحتاجوه يرسل به رسله بالليل، ويجعله صحبة من يحسن التلطف ويدرك الحيل.

وفي آخر جمادي الأولى ظهر نجم من النيازك ذوات الأذناب فيما بين المغرب والشمال كان يُرى بعد المغرب مرتفعاً مقدار منزلتين.

ثم إن الحرب دامت على ثلا وكوكبان، لما قرب حسن باشا من ذلك المكان، وكان ناظر العساكر السلطانية والجنود الخاقانية، رجُلاً لبيباً، كاملاً

---

(١) بُكُر: بضم أوله وثانيه، حصن يحاذي جبل كوكبان، لا يتم الصعود إليه إلا عبر طريق واحدة للمشي على الأقدام.

أديباً أريباً، حافظاً ذكيًّاً، فصيحاً المعيّا، جعل في الحرب التي جرت بين المطهر والوزير تاريخاً في الحجم الصغير وجعله منظوماً منقحاً مفهوماً، وذكر صورة خروجهم إلى اليمن، وما لاقوه من الحروب والفتن، وأن جملة ما جرى بينهم وبين العساكر المطهرية في قاع حَوْشان، ومدة محاصرة كوكبان ثلاث وثمانون وقعة، ثم أن المطهر بن الإمام أمر قائفة والحدا[1]، والشيخ قطران السحامي، والشيخ علي بشير، والشيخ مصدر صاحب قَرْوى[2] بشن الغارات على الأطراف، وتخطف المار في تلك الأكناف، فانقطعت الطرق عن محطة الوزير، وغلت فيها أسعار البر والذرة والشعير، وقل العلف على تلك الخيل الواسعة، والجمال التي حطمت برعيها البلاد الشاسعة.

وفي أثناء ذلك كتب المطهر بن الإمام إلى أخيه عليّ إلى حَبّ بأن يكاتب في اليمن القبائل ويعلمهم باستقلال الوزير بحربه وأنه عن حربهم في شغل شاغل، فاجتمعوا إليه عن آخرهم، وشدوا لحرب الأمير القبائل مناطق مآزرهم، وتواطئوا على يوم يبدأ فيه عليٌّ القتال، ويباكر الأمير بالنزال، وكان الأمير يقال له خضر القبطان، في ثمانمائة من أعيان الشجعان، فلما ناوشهم بالحرب، وبادأهم بالضرب، مالت عليهم قبائل اليمن، وشملهم ذلك الجمع وشن، فأخذوهم واستأصلوهم، وقتل الأمير خضر وجميع من شهد الحرب معه من عسكره، ونما إلى الوزير الخبر، وشاع في الناس وظهر، فعظم عليه، وخشي من تفاقم الحال لديه، وكان قبل أن يجري هذا الحال مع القبطان تقدمت عيّنة من عسكر ذي مَرْمَر، صحبتها النقيب بلال نظاري والشيخ علي بن بشير والشيخ قطران وعدة من عسكر ذي مرمر وقبائل خولان، وقطعت رؤوسهم وجلعت على جملين وحُملت إلى محطة الوزير.

---

(١) قائفة والحدا: قبيلتان مشهورتان من قبائل مذحج، منازل الأولى في شمال شرق رداع، والثانية في جنوب شرق مدينة ذمار.. انظر المعجم.

(٢) قَرْوى: منطقة وقبيلة من خولان العالية ثم من بني جَبر.

ووصل إليه البشير، فأظهر الفرح والسرور، وأمر بالتنوير، ثم تعقبها فعلة القبطان ففتت في عضده، ونقصت من عدده، ثم أن الأمير قراجوز توجه لقتال عسكر المطهر في الرياشي[١] فقُتل في حباب[٢] قتلهُ الأمير أحمد البعداني، وكان في عنية من أصحاب الخليفة المطهر، وحمل رأسه إلى عند لطف الله بن المطهر فأرسل به إلى حضرة أبيه إلى ثلا، ولم يلنهم الحرب والقتال، في الغدوّ والآصال، وحدث بين الفريقين معارك، أوردت الشجعان المهالك، وفشى الموت في المواشي والخيل، وتخطفتهم الذعار في الليل، واشتعلت نيران الحروب، وشنّت الغارات من الشمال والدبور والجنوب، وقد كان محمد بن شمس الدين ضاق صدره، وعيّل صبره من شدة الحصار، ومناجمة الحرب في العشي والأبكار، فأشار على الوزير الأمير عبدالله بن محمد الداعي بصلح محمد بن شمس الدين، ومكاتبته في الحين، فكتب إليه يعرفه بذلك، ويحببه إلى ما هنالك، فجنح إلى الصلح، وتم له النجح، ولم يشعر المطهر إلاَّ بظهور الشعار في كوكبان للسلطان، وقد كان راجعه المطهر لمَّا أحس بعجزه عن الحرب، وخوفه من الغلب، وقال له اصبر عليَّ شهراً، وكابد فيه صبراً، فيسفر صُبْحُك، ويلوح نجحك، فما رعى مقاله، ولا أمهله ولا أقاله، ولما تيقن المطهر من محمد بن شمس الدين الميل إلى الدعة، والسكون والموادعة، حَشَّد جنوده على العادة، ورام في الحرب الإعادة، ولما تمت الإصلاح بين الوزير ومحمد بن شمس الدين، وأعلن باسم سلطان الإسلام والمسلمين، شد الباشا حسن من محطته بليله، ورحل عنها بجموعه وخيله، فأضحت في المُنقب تلوح خيمه، ويخفق علمه، ولم يجر بينهم وبين المطهر حرب ولا قتال، وسكنت الهيجاء وأغمدت النصال، ولا تعقب ذلك خبير، ولا دار بين الوزير والمطهر في الصلح نبأ ولا ظهر، وظن محمد بن شمس الدين

---

(١) الرياشي: هي الرياشية، مقاطعة من أعمال رَدَاع.

(٢) حَبَاب: بفتحات، وادٍ في بلاد جَهَم من خولان العالية، يقع بالقرب من صرواح.

أن الوزير يعيد الحرب على المطهر في ذلك الحين، وما عرف أن ما طلب صلحه لطول المدّة، في تلك الحروب والشدّة، وكان الوزير يظن أن محمد بن شمس الدين مستقل بحكمه، لا يدخله المطهر تحت رسمه، حتى أن المطهر رأى رأياً بلغ به في الحذق الغاية، وجاوز في الدهاء النهاية، وما ذاك إلاّ أنه علم أن رسل الوزير في كوكبان، وأن بقاءهم حتى تتم القواعد على شروط شرطها الوزير سنان، وهي تسليم العروس ومسار، وبلاد حضور، عوضاً عن الطويلة وبلادها، وأن يجعل عبدالقدّوس بن شمس الدين رهينة في صنعاء.

ثم أن الوزير عقد لواءاً شريفاً لمحمد بن شمس الدين، فما شعر محمد بن شمس الدين عقيب هذه الحال، وإبرام المشورة في ذلك المقال، إلاّ بهجوم المطهر في خواصه، وذوي اختصاصه، فلما عاينهم الوالي عزم في الحين، إلى محمد بن شمس الدين، وقال له: والدك المطهر وصل في رفقته، وأرباب حضرته، ولم نعلم نجعل لهُ التنصير أو للسلطان، فداخلت محمد بن شمس الدين دهشة، وخالطته رعشة، وقال اعلنوا باسمه، ولا تخالفوا قواعد رسمه، وتلقاه إلى الباب، وتبعه بعد ذلك الجيش العباب، ولما دنا محمد بن شمس الدين من المطهر بن الإمام، أنشد المطهر في ذلك المقام:

زرناكم لا نُبَاليكم بجفوَتِكم   إنَّ المُحِبَّ إذا لم يُستزر زارا

ورمي في كوكبان لدخوله بالمدفع والزبرطانات واشتعلت النيران، وسأل الوزير عن الخبر، فعرفوه أن المطهر في كوكبان استقر، فقال: تيقنت أن الكل في قبضته، والجميع تحت بسطته، وكتب إلى محمد كتاباً يعرض فيه بوساطة الصلح بينه وبين المطهر، فأجابه أن ذلك يتأتّى بعد أن يضعن من المنقب للسفر، على شروط شرطها عليه، وأفضى بها إليه، وكان محمد بن شمس الدين

صالحه هو والوزير سنان في شهر القعدة الحرام من السنة المذكورة.

ووصل الباشا بهرام، بولاية اليمن في تلك الأيام، واليمن على حاله في انضراب، وفتن والتهاب، فتوجّه الأمير محمود بعسكر لضبط اليمن، وإطفاء نار الفتن، فوصل إلى فرضة قيضان[١] والتقاه المواجهون، وفرّ عنه المسيئون، فوصل البشير بذلك إلى الوزير، وكان انتقال الوزير من المُنقب سابع وعشرين شهر ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة.

ودخلت سنة ثمان وسبعين وتسعمائة:

وفيها توجه الباشا حسن بالعساكر لحرب ذي مرمر، وفيه لطف الله بن المطهر، فأمده والده بالغارة، وجرَّ إليه العساكر الجرَّارة، واتصلت العسكر بعد العسكر، من ثلا إلى ذي مرمر، ولم قد يتم بين الوزير والمطهر صلح، ولا لاح نجح، وأقام الباشا على ذي مرمر بقية شهر المحرم، وكتب إليه الوزير يعلمه بانتقاله من المنقب فارتفع بالمحطة عن ذي مرمر ورجع لقي الوزير إلى ضُلاع، ثم جرت المكاتبة بين الوزير والمطهر في الصلح والهدنة، وعدم القتال والفتنة، وانتقل الوزير إلى عدني صنعاء وتمشى بالعساكر إلى المناظر، ودخل المدينة من باب شعوب فحيّر الناظر، تيهاً بذلك الزيّ الباهر، وذلك في شهر صفر من السنة المذكورة.

ثم أن الوزير جهّز الباشا حسن إعانة للباشا بهرام، فإن اليمن كما تقدّم ذكره، قد ماج بالفتن بحره، وخلعت قبائله الطاعة على السلطنة، وقُتل القبطان، وعلي بن الإمام واسطة ذلك الشأن، فلما وصل الباشا حسن إلى إرياب[٢]،

---

(١) قَيضان: بفتح فسكون ففتح، حصن خارب في جبل بني الحارث من بلاد يريم. يقع بجوار منار بعدان. وهو حصن عالٍ مُنيف وله منعة وسيطرة على الطريق المؤدية إلى حقل قَتاب للمجتازين من بعدان.

(٢) إرياب: بكَسر الهمزة، سبق الإشارة إليه وأنه جبل يُطِلُّ على نقيل سُمَارة الواقع جنوب مدينة يريم بمسافة ٢٠ كيلاً.

واجهه من واجهه وارتاب من ارتاب، واتفق الباشتان في جبل بَعْدان، وحصر علي بن الإمام وجرت بينه وبينهم حروب متوالية، ورموا دائر حصن حَبّ بالمدافع فلم تبق فيه باقية، ورحل الوزير من صنعاء في شهر جمادي الأولى من السنة المذكورة، وتمت بينه وبين المطهر الإصلاح في ذمار في شهر شعبان من السنة المذكورة، نزل من حضرة المطهر السيد العلامة شمس الدين بن جحّاف فكان الصلح على أن بلاد الظاهر وصعدة وبلادها وخولان وذي مرمر وبلاده وكافة نِهْم وجميع بلاد المطهر إليه، وأن يجعل في قصور صعدة رتبة يجعل لهم الجامكية والسيّار من البلاد، وأن الهارب من كلا الجانبين يرجع، وتمت الإصلاح والقواعد على هذا، وكان ذلك بحضرة الباشا بهرام والباشا حسن وجملة الأمراء، ورجع السيد شمس الدين بن جحاف إلى حضرة المطهر بن الإمام.

واستخلف على صنعاء الأمير محمود، ولم يبرح الحصار على حصن حبّ إلى شهر رجب من السنة المذكورة، وكان رجل من أصحاب علي بن الإمام يقال له بن عَرْجَله واصل بعض الأجناد المحاصرين وجرى بينه وبينهم خطاب برسالة من الباشا بهرام، على أنه يسمّ علي بن الإمام، فأجاب عليهم بالثابت وأعطى سفرجلة مسمومة، وربما أنه كان يظهر لعلي بن الإمام أنه يترسّس على الباشا ويتطفل على أخذ أخباره، واستنباط أسراره، فعاد في بعض الأوقات، إلى علي بن الإمام، وكان شديد الشغف بالقات، فسأله عن طارفة خبر أو معرفة نبأ، فقال: لم أطلع اليوم على شيءٍ من الأنباء، فقال له: هل أخذت على وجه الخفية شيئاً من القات، لتريحنا في هذه الأوقات؟ فقال: والله ما حصّلت غير هذا المشموم وهذه السفرجلة، ونبذها إليه بالعجلة، وخرج من ذلك المقام، وقد فوّق إليه رواشق الحمام، وكان عند علي بن الإمام فقيه من بني الحشيري ومملوك رومي خادمٌ خازن، فشمّ علي بن الإمام السفرجلة وكثر في شمّها، ثم تناولها الشيخ الحشيري وقسمها وأكل بعضها وأعطى

المملوك أكثرها، فأكلها، فأمّا المملوك فمات لوقته وأما الحشيري فأقام يتضرب بقية يومه وليلته، وأصبح في قبضة ميتته، وأما علي بن الإمام فأخذه عطاسٌ تتابع دفعُه، وتعذَّر منعه، وأمر بقبض عرجله، على إسراع وعجلة، فقبضوه، وفي السجن أودعوه، وبقي علي بن الإمام، يعاني سكرات الحمام، ثلاثة أيام، وقبضه اللهُ إليه شهيداً حميداً، مفقوداً سعيداً، وكان عالماً نبيلاً، ماجداً جليلاً، مطلعاً على العلوم العقلية والنقلية، والفقهية والنحوية، وكان قوياً شديد البدن، وهو حنفي الفروع معتزلي الأصول، رحمه الله رحمةً واسعة[1]. ولما صحت وفاته، وانقضت أوقاته، نزل بعض خواصه على ابن عرجله إلى حبسه، فقتله وأودعه طيّ رمسه، وخسر الدنيا والآخرة، وخرّب بالفانية العامرة، وحصل مع أصحاب علي بن الإمام خور وجزع وخيفة، وكتموا موت علي بن الإمام عن تلك الأجناد المخيفة، فخاطبوا بالصلح والتسليم بشرط السلامة، والخيرة بين العزم والإقامة، فبذل لهم ذلك الباشا بهرام، لكنّه ما وفى لهم بالذمام، فإنهم لما راموا الرحيل من مقامه إلى ذمار، لحق لهم لعرضهم على الحسام البتار، إلا من فرّ بنفسه، وطار في تلك الأقطار، وكان تسليم حبّ في شهر شعبان من السنة المذكورة، ووفاة علي بن الإمام في شهر رجب من السنة المذكورة.

وفي شهر رمضان عزم الوزير سنان الأعظم من زبيد وحجَّ تلك السنة وتصدّق بصدقاتٍ واسعة، ووصل الفُضلاء بصلاتٍ نافعة.

وفيها اختط بهرام باشا المدينة التي خارج ذمار وسماها ملحظ واسمها بعدد تاريخ عمارتها. ثم أن بهرام باشا شهر سيفه على قبائل اليمن، وأظهر ما في صدره عليهم من الضغائن والإحن، وقتلهم غيلة وخفية قتلاً جاوز الحد،

(١) علي بن الإمام شرف الدين: ترجمه زبارة فقال: كان من أكابر العلماء الأعلام، والأمراء القادة الكرام، وقد كان والده الإمام جعله خليفة في الإمامة العظمى بعد وفاته ثم لم يتم ذلك.. كما كان إيضاح القضية في ترجمته بكتاب "شرح ذيل أجود الأحاديث المسلسلة المطبوع بصنعاء في سنة ١٣٦٤هـ. ومن مؤلفاته " تخريج أحاديث كتاب أصول الأحكام " للإمام أحمد بن سليمان، وغيره (أئمة اليمن) ج١، ص٤٧٣).

ونقص العد، وكان يبعث بأعيانهم إلى هِرّان[١]، وفيه بئر معطلة من الماء والسكان، فتضرب أعناقهم، وتطرح في ذلك القليب أجسادهم، وقبض السلاح من جميع أهل تلك البلاد، واستقصى عليه حتى مع الشذاذ الأفراد، وحطّ على سماه وفيها الشيخ أحمد النواري، وجرّ عليها المدافع ثم تسلّمها وأمّن صاحبها المذكور وعزل عن صنعاء الأمير محمود الذي كان ولاّه الوزير سنان، وجعل عليها دلي خضر.

ودخلت سنة تسعٍ وسبعين وتسعمائة:

وفي شهر شوال من هذه السنة مات أمير همدان، المشار إليه فيهم بالبنان، محمد بن إسماعيل الداعي، في سجن المطهر بن الإمام، وقد كان تقدم خبر قبضه في وقت أخذ المطهر لمدينة صنعاء، وكان في نفس المطهر عليه لأمور صدرت إلى جناب المطهر منه في وقت الحرب بينه وبين السلطنة أوغرت صدره، وأذهبت عفوه وصبره، وللشيخ المفلق البليغ حسن بن إدريس بن الأنف الداعي[٢] يذكر موت الأمير محمد بن إسماعيل في سجن المطهر ويرثيه بأبيات طويلة، من قصيدةٍ جليلة:

ما بالنا نتمنّى فسحة الأمد

وما لنا فيه غير السهم والكمد

(١) هِرَّان: جبل بركاني أسود بالقرب من مدينة ذمار، على يمين طريق السيارات الذاهبة إلى صنعاء، وأمام مباني جامعة ذمار.

(٢) حسن بن إدريس بن الأنف: من علماء الإسماعيلية وشعرائها. وكذلك كان والده عالماً كبيراً.. ترك تراثاً هاماً في مجال الأدب والتاريخ، من ذلك كتاب: عيون الأخبار.. في سبعة مجلدات.

في كل يوم نرى دمعاً يجول على
خدٍّ ونايحةٍ تبكي لمفتقد

ولم يبرح يتفجّع من الدهر ويتوجع، ويذكر بطش المطهر وقهره لمن ناوأه، وخالفه وعاداه، ويعرّض بقساوة قلبه، ودوام حبيبه، حتى قال:

وإنني كنت اسلو في الخطوب لما
عرفت من طبع دهرٍ غير مُفتئد
حتى سمعت نشيجاً من مفجّعةٍ
تبكي على الملك المقرون في صَفَد
أغتاله يومه في كفّ مقتدرٍ
مسلط بجميع الخلق مضطهد
لو كان قاتل عمرو غير قاتله
مازلت أبكي عليه دائم الأبد
لكن قاتله من لا يعابُ به
وكان يُدعى قديماً بيضة البلد
لو كان كفواً لكان العفو شيمته
إذ كان يسطو بعين الواحد الصمد
لكن كفواً عنيداً ليس يرحم من
في أسره لا ولا يغضي على ضمد

مـاذا نظـن بمـن الـوى بوالـده
حتـى أقـرَّ لـهُ بـالطوع والقـود
وحـاز إخوتـهُ قـهراً فـأوردهم
ببطشـه مـورد الأحـزان والنكـد
نعـم وأولاده فـي السـجن خلّدهـم
لمَّا طوى قلبه القاسـي علـى الجلـدِ
وكل أمـلاك هـذا القطـر دمَّرهـم
وصال في الكل منهم صولـة الأسـد

وهي طويلة طنّانة، اختصرتها للإيجاز والصيانة.

ودخلت سنة ثمانين وتسعمائة:

وفيها ظهر نجم من مجرى بنات نعش الصغرى مما يلي المشرق، أكبر من الزّهرة، وتحدّث الناس أن ذلك لموت المطهر بن الإمام، وأن ظهور مثله لا يكون إلاَّ لموتِ ملكٍ من الملوك الجسام، أو رئيس عظيم، في ذلك الإقليم.

وفي ربيع الأول منها خالف في بلاد الأهنوم[1] سيّدٌ من بني جحّاف[2]

---

(١) الأهنوم: سلسلة جبلية في بلاد حاشد، تشكل في أعمالها اليوم مديريتين من أعمال محافظة عمران، هما: مديرية المدان ومديرية شهارة.

(٢) آل جَحَّاف: من أعيان جبل حُبُور، ينحدرون من سلالة محمد بن الحن إبن الأمير ذي الشرفين محمد بن جعفر بن الإمام القاسم بن علي العِيَاني بن عبدالله بن محمد بن الإمام القاسم الرّسي الحسني. وأما علي بن إبراهيم جحاف المذكور، فقد كان عالماً مشاركاً في فنون كثيرة، تولى أعمال بلاد الأهنوم وظُليمة وعِذَر للمطهر بن شرف الدين، وكان متولياً لها من عهد الوالي العثماني أزدمر باشا، ثم خالف على المطهر– حسبما يروي المؤلفان – ونزع يده عن طاعته، فأرسل عليه حملة حتى تمكن من أسره وسجنه، ومالبث إلا قليلاً حتى توفي في السجن في السنة نفسها (معجم البلدان، هجر العلم ج١، ص٤١٥). (أئمة اليمن ج١، ص٤٧٥).

يقال له علي بن إبراهيم، كان متولياً لتلك البلاد جميعها للمطهر بن الإمام من مدّة الحرب بين المطهر وازدمر لم يرفع المطهر عنها يده إلى هذه السنة المذكورة، فأظهر السيد المذكور الخلاف والاستقلال، والتغلب على حصونها والجبال، وكان عنده عدّة من عساكر الأروام، الذين جعلهم المطهر رتبة في ذلك المقام، وانضم إليه من العسكر من كان حواليهم، وقد كان سأل من يدرك الخفيّة، ويعرف المواقع الفلكية، فعرفوه أن المطهر يموت في تلك السنة المعيّنة، فاستعجل زوال نعمته، واستطال عمر مدّته، فخلع طاعة المطهر، وأعلن الخلاف وأظهر، وانتمى إلى سلطان الإسلام، وذكر أن المعين له على ذلك الباشا بهرام، فبلغ الباشا مقاله، ورفع إليه ما قاله، فتبرأ منه وتبرّم، وحلف وأقسم، وكتب إلى المطهر كتاباً يبري ساحته، ويخلي عن نصرة السيد راحته، وذكر في كتابه: وإن أدَّت الحاجة إلى عسكر من الأجناد السلطانية إعانة للمطهر أرسل بمقدار كاف، ونصاب واف. فأجاب عليه المطهر وشكره، وعن العسكر عذره، وحشر على السيد المذكور الجنود والألوف، وشهر لقتاله السيوف، وجعل سردار تلك العسكر الأمير علي بن الشويع، وما برح يتابع الغارات، ثم أنه الزم ولده غوث الدين بأن يتوجه بعد وصول الأمير علي إلى تلك الجهة، فخرج من عَفّار بعسكره وما مرَّ أربعة أيام من خروجهم من ثلا إلا والأهنوم ترجف بتلك الجموع، وتتزلزل من أصواتهم ووجباتهم أركانه والربوع، وتسنموا داره في لمح البصر، وفر السيد بمن لديه وانحصر في محل يقال له الطاهرة، وأحاطت به العساكر القاهرة، وانحزلت إلى العساكر المطهرية عساكر الأروام، الذين كانوا محوّلين في ذلك المقام، وندم السيد علي على هفوته، ووقع من البغي في حفرته، وانصدع من الخوف جنانُهُ، وانهدمت أركانه، وطلب الأمان على حكم المطهر فأمّنه الأمير علي، وتأخر غوث الدين في بلاد الأهنوم ووصلته من أبيه الولاية بها، والسكون فيها، حتى يقرّر قواعدهم، ويُرجع شاردهم، وأما السيد علي فوصل به الأمير علي إلى حضرة

المطهر، ودخل به في جمع مشهود، والوية وبنود، فأمر بـه المطـهر إلـى السجن، وأطلع من ساعته إلى الحصن، وخلع على الأمير علي قفطانين مـن أنفس القفاطين وأعطاه خمسمائة ذهب نقداً أحمراً وبعث إليه بكارة مملوءة مـن أنفس الخلع وأشرفها.

وفي أول هذه السنة المذكورة شرعت في المطهر العلـة التـي ذهبـت بروحه، وأبعدته عن ملكه وسوحه، ومع ذلك لم يشـتغل بـها عـن نواهيـه وأوامره، وافتقاد بلاده وحصونه وعساكره، والظـهور للشـكوى، واسـتماع المراجعة والدعوى، وانفاذ الكتب إلى جميع الجهات، والركوب للصيـد فـي بعض الأوقات، وكانت العلة بول الدم مع حرارة أورثته العطش وكثرة شـرب الماء البارد، وطالت واستمرت، وكان خصمه أحب الأحباب إليه وأقربهم مـن مسكنه، وأتاه الخوف من مأمنه، فإنَّ ذلك العدوّ الذي فـي صـورة الحبيـب، والخصم المتلون في زي الصديق القريب، دسّ إليه سُمّاً، أنحله جسماً وعظماً، واستطال أوقاته، واستبطأ وفاته فخسر السعد وفاته، وما صفت له أوقاته، ومـا عرف المسكين أن في موت المطهر تدميره، وإلى الويل مصـيره، نسـأل الله السلامة من الغي والغرور في هذه الدنيا التي كأنها ألفيء، ومات المطهر قـاهراً سعيداً، غالياً شهيداً، ما أصابه ضيم، ولا ألوى به من القهر والذل غيم، وكانت وفاته في الليلة المسفرة عن صبح يوم الأحد ثالث شهر رجـب مـن السـنة المذكورة، وخرجت في جنازته الجنود في السـلاح، والخيـل فـي الـدروع والرماح، واجتمع عند حمله كافة أولاد الإمام، وخُرج به إلى قبره، وموضـع حشره، ولقي ربّه، غفر الله ذنبه، وجافا عن التراب جنبه، وكان يوم موته يوماً عظيم الخطب، شديد الكرب، وكان رحمه الله لا يفتر عن تلاوة القرآن، في كل أوان، وقيام للصلاة قرب نصف الليل، ولا يبرح راكعاً وساجداً حتـى يطلـع الفجر ثم يصلي الفجر ثم يتلو القرآن، حتى ينتشر ضوء الشمس على الأكوان، ومع هذا فإنه كان يقاسي للصلاة مشقة عظيمة والموجب لذلك الكسر الذي فـي

رجله أسكنه الله الجنة، وخصَّه بالمغفرة بالمنحة والمنّة، وكان محمد بن شمس الدين حاضراً عند وفاته، شاهداً ساعة الحاده وموراته، فأقام بأمر علي يحيى بن المطهر، وأعانه في القيام فاستظهر، وحلف له في ثلا، ذلك الملأ، وأما لطف الله بن المطهر، فاستقل في ذي مرمر، ولبّى دعوته من أهل بلاده البدو والحضر، وكذلك غوث الدين استقر بعفّار، واستولى على تلك الديار، وعبدالرحمن اقام بحجة وبلادها، وحاز حدودها وانجادها، وقنع كل بما لديه، واطمأن بما تحت يديه، والسيد أحمد بن الحسين بن عز الدين المؤيدي استولى على ما تحت يده، وهي صعدة وبلادها، وتفرقت الناس بعد المطهر شعباً وصاروا كما قال:

وتفرقوا شُعباً فكلٌ قبيلةٍ
فيها أميرُ المؤمنين ومِنبَرُ

وقيلت في المطهر الأشعار ونُظمت في مراثيه القصائد الطوال، منها قصيدة لمحمد بن عبدالله بن الإمام تزيد على مائة بيت أولها:

آح ولا غرو إذا قلت آح
طرفٌ سفوحٌ وفؤادٌ جراح
ما اسمج الدنيا وأبنائها
بعد خضم الجود ليث الكفاح
مطهر خير ملوك الورى
مروّى السيف وسمرِ الرماح

وهي طويلة اختصرتها انجازاً، ولبعض الفضلاء البلغاء من قصيدة بليغة وهي:

لا غرو إن خرَّ موسى قلبه صعقـــا

وإن جرى الدمع من أجفانـــه علقـــا

وما برح يواتيه، ويندبه ويرثيه، ويذكر جموعه واحتفاله بأمر ملكه حتـى قال:

تريـــد فـــي هـــذه الدنيـــا البقـــاء وفـــي

صروفـــها مـــؤذن أن لاتَ حيـــن بقـــا

يا عصبةً حملوا الطـــــود الأشم علـــى

أعناقهم ومضـــوا فـــي سـيرهم عنقـــا

كيف استطعتم لحمــــل الليــث مفترســـاً

والغيـــث منبجســـاً والبحـــر متدفقـــــا

سُحقاً ليوم ببطـــــن الأرض فيـــه ثـــوى

وكان بـــالأمس فـــوق النجـــم مرتفقـــا

عجبتُ من ســـاعةٍ صلـــوا عليـــه بـــها

وعندها طبق الخضـــــراء مـــا انطبقـــا

وما لها عرفـــت شـــهب المجـــرة مـــن

بعـــد المطـــهر فـــي أفلاكـــها الطرقـــا

لا كان لا كـــان قلـــبٌ ذاق طعـــم ســـلا
ولم يبت بمـــــدى هـــذا الأســـى مَزِقــا
ولا رعـــى الله نفســـاً لـــم تـــذب أســـفاً
وفارق الجفنُ طرفـــاً واصـــل الأرقـــا
مـــن للرمـــاح الرّدينيّـــات يُوردهـــا
على الضما يغـــر الأعـــداء يـــوم لقـــا
من يصدر البيض حمراً من تجيعهم القـــا
ني وقد عـــانقت مـــن كبشـــهم عُنقـــا
من للوفـــود مـــن الآفـــاق تحمـــل مـــن
جدواه فـــوق المطايـــا التـــبر والورقـــا
من ذاك يصبح من بعـــد المطـــهر فـــي
خلق الخضيم الشـــحايا قـــوم والشـــرقا
وأيـــن يبلـــغ منـــه المـــدح أيســـرُ مـــا
فيه من الفضل يُعنـــي المصقـــع اللبقـــا
لولا التأســـي بخـــير الرســـل لامتـــلأت
مـــن الزفـــير عليـــه أرضُنـــا حُرقـــا
فليـــت مثـــواه إعظامـــاً لغُرّتـــه
الغرّاء أصبـــح مـــن أعياننـــا الحدقـــا

وهي طويلة جداً تربو على مائة بيت، وقد أثبت منها ما لابد منه.

وتختم ذكر أخبار المطهر بذكر نسبه: هو المطهر بن الإمام شرف الدين بن شمس الدين بن الإمام المهدي لدين الله أحمد بن يحيى المرتضى بن أحمد بن الأمير المرتضى بن المفضل بن المنصور بن الأمير المفضل بن الحجّاج بن الأمير علي بن يحيى بن الأمير المعتضد بالله القاسم بن الإمام يوسف الداعي بن الإمام المنصور بالله يحيى بن الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين **علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه وعنهم أجمعين من اليوم إلى يوم الدين.**

وكانت أوّل مصيبة جرت بعد المطهر، وخلاف عظم خطبه واشتد وظهر، أن علي يحيى بن المطهر أخرج سبعة عشر شيخاً من مشائخ الأهنوم، من السجن بعد أن أخذ عليهم عهود الحي القيوم، أنهم لا يسعون في فتنة ولا خلاف، وأنهم جانحون إلى الائتلاف، وكان غوث الدين في تلك الجهات من وقت خلاف السيد علي بن إبراهيم جحاف، فلما وصلوا إلى ديارهم، واستقروا في ربوع دارهم، خلعوا الطاعة وفارقوا الجماعة، وأمست بلاد الأهنوم عاصية، وغشت غوث الدين منهم الغاشية، وخرج منها إلى بلاد الشرف، وتَقَبْيَلَتْ تلك القبائل أوساطُها والطرف، ثم جرى بينه وبين أخيه لطف الله، أعني علي يحيى الخلاف، آل أمرهما إلى المصاف، فالتقت جموعه وجموع صنوه علي يحيى في موضع يقال له قطوان[1] وعلى مقدمة لطف الله بن عم أبيه السيد فخر الدين عبدالله بن أحمد بن شمس الدين، وعلى مقدمة علي يحيى الأمير علي بن الشويع الحمزي. وكان السيد عبدالله مقداماً في الحروب

(١) قطوان: بفتح فسكون ففتح، بلدة في نواحي قرية "جَوبْ" من مديرية "جبل عيال يزيد" وأعمال محافظة عمران. وقطوان أيضاً قرية من منطقة "عيال عبدالله" من مديرية أرحب وأعمال محافظة صنعاء. وكلتاهما في مواضع متقاربة، ولعله يقصد القرية الثانية.

صاحب رأي ودهاء، ورجاحة ونُهاء، وإصابة في المشورة، له تدبير إذا دهمته الأمور العسيرة، فلما تقابل الجمعان، والتقى الفريقان، حدث بينهما قتال أثخنت عساكر علي يحيى فيه الجراح، من أصحاب لطف الله، ودارت عليهم رحى الكفاح، وتمنّع السيد فخر الدين عبدالله بن أحمد في مكان منيع، وتظهر له ذلك العسكر الجميع، فأخذتهم البنادق، وقتلت منهم كل مقدامٍ صادق، فآل أمرهم إلى الإنهزام إلى الرجو[1] وانجلى من غمامهم أفق ذلك الجوّ.

وفي شوال منها جرى من علي يحيى بن المطهر إلى عبدالرحمن بن المطهر ما اوحش قلبه، وأثار كربه، فحمله ذلك على الخلاف، ووجه الكتب إلى كل من نفر وخاف، وقد كان جرى الخلاف عقيب موت المطهر في جميع تلك البلاد المغربية، والجهات القبلية، وكثر العيث، وأمنت القبائل سطوة ذلك الليث، وتوجه لقتال عبد الرحمن مبارك شعبان من قبل محمد بن شمس الدين لأنه كان مناصراً لعلي يحيى قائماً معه على من ناوأه.

صلى وصامَ لأمرٍ كان يطلبه . لمَّا قضاهُ فلا صلى ولا صاما

ثم أنها جرت بين الفريقين حروبٌ عديدة، وخطوبٌ شديدة، سعى فيها بالصلح الأمير عبدالله بن المطهر وترك عبدالرحمن على ما تحت يده.

ودخلت سنة إحدى وثمانين وتسعمائة:

وفيها سعى محمد بن شمس الدين بالوحشة ما بين علي يحيى وبين الأمير محمد بن الناصر آل أمره إلى تنفيره وايحاشه وإبعاده عن بلاد الظاهر، ولحقه

(١) الرَّجْوَ: قرية في أرحب بجوار قرية مُدَر الأثرية.

محمد بن شمس الدين وعلي يحيى بجميع العساكر، وكان من أخص الخواص للمطهر، وهو ممن كان في مقامه من الرؤساء في ثلا وممن شهد موته وحضر دفنه. وهذه الأمور الله قضاها؛ فهيّأها وأمضاها. وعاد الأمير محمد بن الناصر إلى الزاهر. ثم أن الأمير محمد بن الناصر دخل صنعاء وتوجّه إلى حضرة الباشا بهرام، وتجهّز عقيب عزمه السيد أحمد بن الحسين المؤيدي إلى الزاهر، فأخرب بيوت الأمير محمد بن الناصر، ثم أن الأمير محمد بن الناصر طلب النصرة من الباشا بهرام فوعدهُ بها وأعطاهُ سنجقاً وولاً رداع مقابلاً.

وفي شهر شعبان من هذه السنة انخسف القمر خسوفاً فأغشى صفحته جميعها وذلك في برج الجوزاء.

ودخلت سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة:

وفيها وجه علي يحيى بن المطهر وزير أبيه السيد العلامة، الندب الفهامة، الماجد الصمصامة، جمال الدين علي بن أحمد بن يحيى بن صلاح، لفتح الأهنوم في عسكر من عسكر والده المطهر، الذين ظهر ثباتهم في النزال واشتهر، فلزم لهم أهل الأهنوم مكاناً عسيرا، وأذاقوهم يوماً عبوساً قمطريراً، وقتل من أعيانهم عدّة كافية، وعصابة وافية، ورجع السيد بمن معه مهزوماً، مهموماً مغموماً، وكان الرأي والحزم في بقاء المشائخ الذين خلصهم علي يحيى من سجن أبيه عقيب وفاته، فان المطهر كان أعرف الناس بالمفسدين، قد مارس أحوالهم وخبرهم وعرفهم، لكن قضاء الله تعالى لا يرد، ولا ينفع فيه العدد.

وفيها جرى خلاف بين علي يحيى وأخيه الأمير عبدالله بن المطهر، وجرى بينهما قتال عظيم، وخطبٌ جسيم، وقتل في تلك المعارك الناصر بن المطهر، وذلك مع أخيه عبدالله بن المطهر، ولقى الله شهيداً، حيّاً مرزوقاً

سعيداً، ورجع الأمير عبدالله إلى حصنه حصن حقل وأقام به هو وأصحابه وجماعته ومن يختص بمقامه.

وفي هذه السنة مات سلطان الإسلام والمسلمين، ظل الله على العالمين، سليم بن سليمان، وتولى بعده السلطان الأعظم، ملك ملوك العرب والعجم، السلطان مراد، وبلغه الله في الخلافة المراد، ولمامية الانقشاري في تاريخ وفاة السلطان سليم:

قد رفع الله إلى جنانه الكريم بن الكريم بن الكريم

وأتى تاريخه في الشهدا رحمة الله على حيّ سليم

وفي شهر الحجة الحرام من السنة المذكورة تحزبت العساكر السلطانية على الباشا بهرام، وعاثوا الأنام، ونهبوا سوق ملحط، وكثر الخوف منهم ودام، وانحصر الباشا في القصر هو وأصحابه وحفدته، وحفظة حوزته، وكان الباعث لهم على ذلك ناظر العساكر السلطانية الدفتردار، وقاسى منهم تعباً ونصباً، وتوسط فيما بينهم وبينه الأمير محمود الذي كان خليفة للوزير سنان في محروس صنعاء، وأخرج لهم الأموال.

ودخلت سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة:

وفيها وصل الباشا مصطفى باشا إلى ديار اليمن لولايتها من سلطان الإسلام، وتهيّأ بهرام باشا للعزم من مدينة ملحط إلى تعز، ولما وصل مصطفى باشا إلى البقعة دعاه الله فأجاب، وانتقل إلى دار البقاء من دار الذهاب، وكانت وفاة مصطفى باشا في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، ثم أن بهرام باشا شرّد الجنود، وفرقهم في الحدود، وقتل جماعة ممن حشد

عليه والّب، وحفل وأجلب، وعمل الحيلة على الناظر حتى قتله، ثم بلغه خروج مراد باشا لولاية اليمن فعزم من تعز في شهر القعدة الحرام من السنة المذكورة وحجّ تلك السنة.

وفي هذه السنة وقع القحط في اليمن جميعه، وضعف مطر صيفه، وربيعه، وتعقبه وباءٌ عمَّ الآفاق، وكان طالع الاستقبال الكائن قبل التحويل تلك السنة برج القوس وزحل فيه والذنب، وكان القمر في السنبلة منحوساً بتربيع زُحل وهو رب الثامن، أعني القمر، وكان رب الطالع المشتري في بيت شرفه وهو في البرج الثامن الطالع، دلَّ على أن الموت تلك السنة يقع في الأشراف، والأعيان من الناس، فإنه مات من آل شرف الدين خلق كثير، وجمٌّ غفير، مات فيها من أولاد الإمام شرف الدين لصُلبه: رضي الدين بن الإمام شرف الدين، وعبد التواب بن الإمام شرف الدين، وزكريا بن الإمام شرف الدين، ومحي الدين بن الإمام شرف الدين، والحسين بن الإمام شرف الدين، ومات من أولاد المطهر صلاح بن سليمان بن المطهر، وعبد المنعم بن المطهر بن حميد الدين بن المطهر. ومات من أولاد علي بن الإمام محي الدين بن علي بن الإمام، وعبدالله بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين. ومات من أولاد عز الدين بن الإمام زكي الدين بن عز الدين بن الإمام، وزين العابدين بن الحسن بن الإمام شرف الدين. وأما من أولادهم والأحداث منهم فعدّة لا تحصى، ومات من غيرهم من الأشراف خلق كثير، منهم السيد العلامة، المفوّه الفهامة، إمام البيان، والمجلي في فصاحته على صعصعة بن صوحان، المطهر بن محمد بن تاج الدين الحمزي الذّيفاني[1]، وله دراية في كثير من الفنون، وأخذ عنه النبلاء من العيون، وأفاد عدّة من الناس، وقد تقدم في هذا المختصر ذكر طرف من

(١) المطهر بن محمد بن تاج الدين الحمزي الذّيفاني: عالم أديبٌ شاعرٌ، من سلالة تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة، شقيق الإمام عبدالله بن حمزة، ونسبته إلى جبل ذَيْفان في مديرية رَيْدَة البون وأعمال محافظة عمران.

شعره ومديحه، وقبره في عارضة كوكبان مشهورٌ مزور، فتأمل صدق هـــذه المطالع الفلكية، والمواقع السماوية، التي جعلها الله تعالى دالة على حوادث هذا العالم، وتدبير بعض ما أراده الله تعالى في بني آدم.

ودخلت سنة أربع وثمانين وتسعمائة:

وفيها دخل مراد باشا صنعاء، وقد كان لما وصل بعض القرى المقاربـــة لتعز قتل دالي نجق واسمه علي، وكان هذا رأس الثائرين على بهرام في وقت قيام العسكر، وهو الذي شبّ نار الفتنة وسَعَّر، وعظمت حاله حتى تولى بـــلاد آنس من تلقاء نفسه، وآوى إليه من صار من جنسه، ولما وصل الباشا مـــراد قرب تعز لقيه المذكور بجماعة من أصحابه إلى محل يقال له حِذْران[1] وله به بقر وغنم، وبه رجل يقال له علي بن حيدان كان مصاحباً له، وكان لـــه بـــه رعية من البقر والغنم والابل فطمع فيها وقتله وقتل أصحابه، فلما وصل فـــي مقامه كساه قفطاناً ثم استعاده من الطريق وأمر السيّاف فضرب عنقه والقفطان عليه، وكان أول شخصٍ فتك به مراد باشا في اليمن، ثم وصل إلى تعز وأقـــام بها أياماً وانتقل إلى ذمار، وكان بها الأمير علي المعروف بكُشُك، علي، وكان أميراً مقداماً فاتكاً، ثم طلع الباشا وطلع الأمير علي كُشُـــك صحبتـــه ودخـــل صنعاء في السنة المذكورة، وكان في أول ديوان نصبهُ قَبضُهُ على الأمير علي وإيداعه الدار الحمراء، ثم بعد أيام من محبسه أمر به ليلاً فقتل، ثم طلب كيخيه الأمير علي يوسف فضرب عنقه في الديوان.

---

(١) حِذْرَان: بكسر فسكون ففتح، وادٍ مغيول غربي مدينة تعز بمسافة خمسة أكيال، ويقع علـــى قارعـــة الطريق إلى المخاء.

ودخلت سنة خمسٍ وثمانين وتسعمائة:

وفيها في شهر شعبان ظهر في المغرب نجم من النيازك بذنبٍ وأقام أياماً يسير سيراً ظاهراً ظهرت بعده الحوادث في اليمن، بقيام الإمام الحسن.

وفيها عمر مراد باشا المدرسة في القصر بصنعاء وجعل فيها بعض الفضلاء بيتين شعر لكن بزيادة الألف في التاريخ وهي:

قبّة الباشا مراد[١] لُقّبت بالعادلية
جاء تاريخ بناها مستقر الحنفية

وفيها دبّر الحيلة جعفر أغا على قتل الأمير شيخ علي، وكان في تعز والياً واستمرت ولايته من قبل الباشا مراد بأيام، وكان يركب إلى الشجرة في موكب عظيم، وجيش جسيم، وبلغ مكتب العرب معهُ خمسمائة نفر من غير عيال صنعاء والمتفرقة، ولم يقدم مراد باشا بعزله فطمع جعفر آغا، أحد الأغوات الذين واجهوا المطهر بن الإمام إلى عصرٍ يوم فتح صنعاء، فظن أنه إن تمت له حيلة في هلاك الأمير علي نال صنجقهُ، فطلب من مراد باشا ولاية يفرس[٢] وما إليها فولاّه مراد باشا فنزل جعفر آغا، وتواطأ هو وعسكري من بلاد حراز يُقال له ناصر الحرازي، على أنه يرمي الأمير علي ويجعل لهُ بذلك جعلاً، ووعده بترقي وزيادة، فدخل هذا العسكري وكمن في محل على يسرة المار في ميدان القصر إذا كان الإنسان داخلاً من الباب الكبير وهو قرب القصر كان فيه حريم عمّالات للطعام يفد إليهن المسافر والغريب، وكان الأمير

(١) قبة الباشا مراد: هي مسجد المرادية بقصر صنعاء.

(٢) يَفْرُس: بفتح فسكون فضم الراء، مدينة كبيرة من مديرية " جبل حبَشي" بالغرب الجنوبي من مدينة تعز بمسافة ٢٣ كيلاً.

علي من عادته أن يخرج وقت الضحى يوم الاثنين راكباً وبين يديه العسكر إلى بستان الشجرة، ويقف ساعة ويعود إلى القصر، فلما كان في ذلك اليوم الذي رمي فيه خرج على العادة وكمن له هذا العسكري المشئوم في المنزل الذي ذكرناه ولم يكن فيه عمائر بل أماكن أرضيّة صغار وعشش، فخرج الأمير على عادته واستقر في البستان ما شاء الله ثم ركب ورجع، وشرع يقع رشاش مطر، ودخلت العسكر جيلاً فجيلاً، فلما حقق صورة الأمير على من المحل الذي قد كمن فيه رماه فوقعت فيه من جانبه الأيسر إلى جانبه الأيمن، ومن حرارة الموت جبذ بالركب على الحصان فوثب الحصان وخرّ من فوقه صريعاً، وكانت البنادق ترمي تجاههُ شيئاً فشيئاً فلم يفطن أحدٌ بأنه رُمِي وظن أكثر الناس أنه سقط، فلما لم يقم وظهر فيه الدم عرفوا ذلك، وافترقت عساكر الأروام والعرب فريقين، وكادت تجري فتنة عظيمة، وأزمة جسيمة، وكان مصطفى آغا سيد علي باشا الجزائري هناك فتلافى الأمر بأن صوّر صورة مرسوم أبرزه وذكر فيه أن قتل الأمير علي بأمر الباشا مراد، وتوسّط بين العسكرين حتى سكنت الفرقة، وتمت الوفقة، والرجل الرامي خرج من حينه، وترك البندق في مكان العمالة، وتوجه من الباب إلى عند جعفر آغا، وحدثني السيد الفاضل شمس الدين أحمد بن إسماعيل السندي عادت بركاته، قال حَدَّثه بعض العسكر المتفرقة من العرب وهو من جماعة الأمير علي، قال: سمعت وحي بندق من مكان العمالة ورأيت الأمير وقد سقط فلما صح قتله قصدت ذلك المكان أنا وعدّة، ووجدنا البندق مطروحاً، وسألنا العجوز التي كانت في ذلك المحل فقالت لا أعرفه إلا أنه كان يكثر التردد إلى عندي وأجعل له الطعام ولا أعرفه قبل اليوم، وأما العسكري المذكور فوصل إلى عند جعفر آغا وعرّفه بأنه قد قضى مراده من الأمير علي فقبض عليه من جينه وأظهر بأنّه ساسَهُ فأقرّ وأرسل به إلى القاهرة وحُبس فيها، ودخل جعفر آغا إلى تعز طبع على خزائن الأمير علي وطلع إلى مقام مراد باشا طمعاً في الصنجق، فلما

وصل إلى مقامه كساه ووعده بمراده وأصبح الغافل يهيء أسباب اللواء الشريف، والحيف يغازله من وراء ذلك الحجاب اللطيف، فطلع جعفر آغا بعد العصر وقد الزم مراد باشا أنه إذا وصل باب القصر الأعلى غلق الباب، وحيل بينه وبين أصحابه، فما التفت إلا وهو مفرد فلما وقعت عليه عين الباشا أمر شخصاً يقال له دلي قاسم بضرب عنقه فضربه حتى أبان شواه، وأذهب مهجته وهواه.

وفيها قبض الباشا على الأمير محمد نوبَتْشي وأودعه الدار الحمراء وأقام أياماً فأخرج ميتاً.

ودخلت سنة ستٍ وثمانين وتسعمائة:

وفي المحرم منها توجه مراد باشا إلى تعز ولما وصل إلى ذمار قبض على وزيره الفقيه أحمد بن القاضي الحكيم العلامة عبدالرحيم التبريزي وأرسل به إلى الدار الحمراء ثم توجه إلى تعز واستقر ركابه العالي بها.

وفيها ظهر في بلاد آنس رجل ادّعى أنه منصور حمير المذكور في الملاحم الذي يخرج في آخر الزمان، وأن العلامات المذكورة موجودة فيه، وأنه سيرد ملك حمير وقحطان، ويرجع الأكلة والتيجان، ويفتح الأمصار، ويستولي على جميع الأقطار، ويظهر الكنوز والدفائن، ويجمع الأموال والخزائن، فاجتمع إليه خلق كثير، وكثرت الأراجيف على عسكر السلطنة القاهرة، وكان يشهد له من عنده ببراهين لم تكن للأنبياء والمرسلين، وقام بمن معه على أمير البلاد التي ظهر فيها وهي بلاد آنس فأخرجه منها، وطرده عنها، فوجه الباشا مراد العساكر والأجناد، فلما وصلوا القرب منه عرفهم برسول أنه المنصور الموعود به الذي يظهر الكنوز وأنهم يمهلوه حتى يصل

الزِّيلة[1] فيخرج منها كنز حمير العظيم فإن لم يظهر فقد أباح دمه للذين معه ويأتون به إلى رئيس العساكر السلطانية يحكم فيه بما أراد، فلم يقبلوا قوله وقصدوه فوقعت بينه وبين العسكر حربٌ فانهزم إلى جبل عانز[2] واجتمع إليه خلق من الفاف القبائل، وأمر بعمارة مسجد، فتبعت العساكر السلطانية أثره وطلعوا الجبل عليه قهراً فهرب منه وقتل من أهل الجبل جماعة مالوا إليه وما برح يتنقل في البلاد الآنسية[3] فبذل الباشا في تحصيله أموالاً، فلزم وأتى به إلى الباشا أسيراً إلى تعز فأمر بسلخ جلده وقتل معه قاتل الأمير علي وهو العسكري الذي رماه.

وفي النصف من رمضان اجتمعت الشيعة في بلاد صعدة وأقاموا الإمام الحسن بن علي المؤيدي[4] وخرج منها إلى جبل الأهنوم فاشتعلت الأرض ناراً، وفتح بكتبه قرى ودياراً وأرسل رسله بالرسائل، إلى كل عالمٍ فاضل،

---

(١) الزِّيلة: قرية أثرية في بلاد الكُميم من مديرية الحدا وأعمال محافظة ذمار، تقع على مقربة من وادي الجهارنه ومحل " النخلة الحمراء" أو يكلا المشهور بآثاره الحميرية. ومنصور حِمير يقابله عند المسلمين: المهدي المنتظر.

(٢) عَانز: بفتح العين وكسر النون، جبل واسع من بلاد الحيمة الخارجية، يُطِّل جنوباً على وادي سهام.

(٣) البلاد الآنسية: منطقة واسعة في الشمال الغربي من مدينة ذمار، تنتظمها اليوم مديريتان هما: مديرية ضُوران، ومديرية جبل الشرق.

(٤) الحسن بن علي بن داود بن الحسن بن علي بن المؤيد، الإمام الناصر: ترجمه القاضي إسماعيل الأكوع فقال: دعا إلى نفسه بالإمامة من الهجر بجبل الأهنوم، فقام في وجهه بعض أولاد المطهر بن شرف الدين، ومحمد بن شمس الدين بن شرف الدين، وجرت بين أتباع الفريقين حروبٌ كثيرةٌ، ثم أصطلحوا معه على أن يُبقي كلاً من آل شرف الدين في مركز إمارته، وعلى أن يخلّوه وشأنه فلا يناصروه ولا يخذلوه، ولكن بعض أولاد المطهر الآخرين مثل لطف الله بن المطهر شنّ حرباً على أتباعه، ولم تستقر الأمور له في مكان إلا وتنتقض عليه في محلات أخرى، ثم دخل بعد ذلك في صراع مع جيش الدولة العثمانية في اليمن فجردت له جيشاً بقيادة سنان باشا فحاصرته في قرية (الصاب) من الأهنوم حتى سلّم نفسه للقائد العثماني المذكور في منتصف رمضان سنة ٩٩٣هـ، فأخذه معه إلى صنعاء وسلمه للوالي العثماني الوزير حسن باشا فاعتقله في الدار الحمراء في قصر صنعاء، ثم نُفي مع عدد من أولاد المطهر بن شرف الدين سنة ٩٩٤هـ إلى الأناضول، ومات جميعهم هنالك، وكانت وفاة صاحب الترجمة سنة ١٠٢٤ وقيل سنة ١٠٢٥هـ وقد كتب سيرته أحمد بن شايع بن محمد الدعّامي اللّوزي (هجر العلم ٤/٢١٩٧).

وهملم صائل، وكتب إلى لطف الله بن المطهر يوعده ويعده، ويرغبه، ويهدّده، فأجاب عليه لطف الله بن المطهر على بعض كتبه لما ذكر فيها وإن لم تحصل منك الطاعة، والدخول في الجماعة، فسنوجّه إليك سيوفاً قاطعة، ورماحاً لامعة، فجعل لطف الله مستهل كتابه، ومضمون جوابه، هذا البيت من الشعر:

سيوفٌ لعمري يالويّ بن غالبٍ
حدادٌ ولكن أين بالسيف ضاربُ

فاتضربت عقيب ذلك على لطف الله البلاد، واهتزت لتلك الدعوة الجبال والوهاد، وخالف أكثر بلاد ذي مرمر، وهبَّ عليها طائف الفساد ومر، وكتب إلى محمد بن شمس الدين بمثل ما كتب به إلى لطف الله فلم يجب عليه بالمقصود، وجمع جيوشه والجنود، وكتب إلى علي يحيى كتباً غرّته واستهوته، وقد كان دس إلى مقامه قبل الدعوة، والاجتماع في الندوة، من أقاربه شريفاً داهية، ومصيبة خافية، وأشعره بأن لابد أن يظهر في آل المؤيد إمام يحكم أقطار اليمن ويملكها من صعدة إلى عدن، وذلك قبل أن يظهر بعامٍ أو عامين، وجعل ذلك المقال توطئة بذلك الأثر للعين، وكان من أمر علي يحيى الدخول في طاعته، والتلبية لدعوته، وسلم إليه عدّة من الحصون، وعدّة من المصون، واشتعلت بعد مواجهة علي يحيى الدنيا فوجّه لطف الله لحرب الإمام عمه السيد عبدالله بن أحمد بن شمس الدين والنقيب مرجان شاوش فخرجوا إلى جهة الخشب وفتحوا ما قد خالف، وقتلوا من حالف، ثم خرج إعانة لهم الأمير سنان الذي كان في صنعاء من قبل الباشا مراد فقصد الرَّجو وانضم إليه عسكر لطف الله بن المطهر فهزموا أصحاب الإمام وقتلوا منهم عدّة ونهبوا وسبوا وأخربوا، وسكنت أكثر بلاد ذي مرمر وعاد الأمير سنان إلى صنعاء وعسكر

ذي مرمر مؤيدين منصورين، وخالف على لطف الله الشرف جميعه وخالف على غوث الدين بلاد عفّار وحصروه فيه، وخالفت على عبدالرحمن حجة، وخرج منها مواجهاً للإمام الحسن، وتجهز الأمير محمد بن الناصر على السيد أحمد بن الحسين فأخرجه من صعدة وملكها وانضم إلى الإمام رصين الدين بن المطهر وناصره.

ودخلت سنة سبع وثمانين وتسعمائة:

وفيها قبض الإمام على الأمير عبدالله بن المطهر وأودعه السجن.

وفيها مات الأمير محمد قزل باش الذي كان سردار الصناجق يوم فتح المطهر صنعاء بالسجن بالقاهرة، وذلك في شهر ربيع الآخر، وكان حبسه في سنة ست وثمانين وتسعمائة.

ودخلت سنة ثمان وثمانين وتسعمائة:

وفيها جمع الإمام جموعه، وحشد ربوعه، وتوجّه لأخذ بلاد همدان، وذلك بعد مواجهة علي يحيى له ومناصرته، ووصلوا إلى روى وواجهتهم أكثر بلاد همدان، فخرج من صنعاء الأمير سنان وتوجّه من حضرة لطف الله بن المطهر مرجان شاوش، وتوجه من عند محمد بن شمس الدين عنبر طبّال، فلما اجتمعت هذه العساكر حملوا على روى حملةً صادقة، وشدُّوا على القرية شدةً حازمة، وأحاطوا بهم إحاطة الأطواق بالأعناق، وجرّ عليهم الأمير سنان المدفع، وحلّ بهم البلاء ووقع، فخرج رصين الدين بن المطهر ومطيع الله بن أحمد والسيد محمد بن علي بن أحمد بن يحيى بن صلاح وجماعة من العسكر، وتأخر من تأخر، وقد كان لما اشتدّ عليهم الحصار، وعزّ عليهم الفرار في الجهار، وجه علي يحيى بن المطهر غارة من ثلا على مقدمتها الأمير أحمد

بن محمد الحمزي المعروف بالأدرن، فحيل بينه وبينهم، وتعذّر عليه إنجادهم، وخرج من ذكرناه في الظلام، وعزّ على المتأخرين الذهاب والفر، فاستأصل فيهم سيف السلطنة الأبتر، وعاد الأمير سنان إلى صنعاء بالرؤوس ودخل في زهو كزهو العروس، وتوجّهت عساكر ذي مرمر إلى عند لطف الله منصورين محبورين، ومنها خمدت نار فتنة الإمام، وانقشع من الأفق ذلك الغمام.

وفيها ولِيّ مراد باشا خضر باشا بلاد الحبشة.

وفي جمادي الأولى وقع في صنعاء سيلٌ دفع دفعه فهدم السور الذي عند باب السلطان وزاد منه الطغيان، حتى بلغ مسجد أبي الروم، وسحب السائلة وأخذ عدّة من البيوت ورُئي ذلك السيل إلى رأس حصن ثلا.

وفي ذلك الشهر عشى حسن باشا بولاية اليمن، ولما بلغ مراد باشا عزله بحسن باشا وقربه من اليمن تحرّك مراد باشا للسير، ولما وصل حسن باشا الصليف[١] طلب مراد باشا الأمير حسن، أحد الأمراء الذين واجهوا المطهر إلى عَصُر يوم فتح صنعاء، وقد تولى هذا الأمير صنعاء من قبل محمود باشا، فلما مَثَل الأمير حسن بين يدي مراد باشا أعطاه مرسوماً بولاية عدن وكساه قفطاناً فأرجع المرسوم وقال: يامولانا كيف تجعل لي ولاية وأنت على جناح العزم ولا آمن من هذا الباشا المتولي العزل، فاشتد غيظُ الباشا مراد وأخرج مرسوماً سلطانياً أن أمره نافذ في الولاية والعزل، والفصل والوصل، والرفع والوضع، حتى يركب البحر، وقال لمن حضر من الأمراء: ما حكم من رد هذا الأمر ؟ فقالوا بأجمعهم: قتله، فأمر بضرب عنقه في الحال، وصح له إلى الآخرة الانتقال، وتوجه مراد باشا للحج في غرّة القعدة الحرام من السنة المذكورة، وكانت طريقه بيت الفقيه ولم يحصل له الاتفاق بحسن باشا، ووجّه

---

(١) الصَّلِيف: مدينة بالغرب من الزيدية بمسافة ٤٠ كيلاً. وهي على شكل اللسان الممتد في داخل البحر الأحمر حيث يحيط بها الماء من ثلاث جهات.

إليه بهدية وخيل محلاة، وتصدَّق في حجه بالصدقات، وأجزل فيه الحسنات، وكان مراد باشا عادلاً وقوراً، راجحاً مشكوراً، يحب الأشراف، وينصفهم غاية الإنصاف، ويتجاوز عن مسيئهم، ويصفح عن جانيهم، ومن أعجب ما جرى منه أن بعض أعداء آل المطهر حَسَّنَ له الفتح عليهم، والاستيلاء على ما لديهم، فقال له: والله لا غيّرت نعمةً على من له وصلة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولو كان بلاده تثمر الدرَّ والياقوت، وما يكون عذري يوم الحساب، وجدُّهم المفوض في ذلك الجناب، معاذ الله أن أيقظ فيهم فتنة، أو أنبّه عليهم محنة، أو أرميهم بالنار، وأرجو الشفاعة من النبي المختار، إلاَّ إن امتدّت أيديهم إلى شيءٍ من بلاد السلطان، أو يحصل منهم التعدّي إلى محل من ذلك أو مكان، دفعتهم عنه وصددتهم منه.

ودخلت سنة تسع وثمانين وتسعمائة:

وفيها وصل حسن باشا مدينة تعز وخيم بالحوض الأشرف، ثم أقام هنالك إلى غرّة جمادي الأولى وتقدّم إلى صنعاء ودخلها في السابع والعشرين من شهر جمادي المذكور.

وفي شهر رجب الأصب قدم الأمير مطهر بن الشويع مواجهاً فعظّم الباشا قدره، وأعطاه وبرّه، وعقد عليه لواءاً شريفاً، وكان رأس الأمراء في الديوان، والمشار إليه بالبنان، وقد كان ولده الأمير علي بن مطهر لقي الباشا إلى تعز، وكان متولياً لصنعاء قبل قدوم حسن باشا، من قبل الباشا مراد، الأمير سنان، فدسَّ على الأمير المذكور بعض خصومه أنه من أهل البغاضة والشنآن، وأن مراده الفتك بالباشا إن ساعدته الأزمان، وقد كان سبق إلى حسن باشا شكايات منه ومظالم، واستباح نفوساً ومحارم، جعلها عذراً على الوقيعة به، والغض من جانبه، فقبض عليه في العشر الأولى من شهر جمادي الآخرة

من السنة المذكورة، ثم قتله في حبسه، وأودعه قرار رمسه.

وفي رجب منها تقدم سيف السلطنة المشهور، وأسدها الهصور، الأمير سنان كدخداه إلى بلاد وصاب وريمة ففتح أكنافها، وقبض بنادقها وأسيافها، وقبض أموالها، وقبض خراجها.

وفيها توجهت العساكر السلطانية صحبة عدّة من الأمراء لحصار حصن ظفار[1] وفيه الأمير محمد بن ناصر الحمزي، فحاصروه، ثم تبعهم الأمير الكيخيا سنان، وكان سردار تلك الصناجق والعساكر، والحاكم عليها بإنفاذ الأوامر، ولما وصل إلى تحت حصن ظفار، واشتد على الأمير محمد الحصار، طلب من الأمير سنان الأمان، وسلم الحصن بما حوى، وإلى جناب الكيخيا لاذ وآوى، ودخل صحبة ركابه العالي إلى محروس صنعاء، وذلك في عيد الأضحى.

ودخلت سنة تسعين وتسعمائة:

وفيها قبض الوزير حسن على الأمير محمد بن الناصر وأودعه السجن بالدار الحمراء، وأقام في محبسه إلى شهر شعبان من السنة المذكورة، وقضى الله عليه الوفاة، ونقله وتوفاه.

وفيها ابتدأ الأمير سنان الكيخيا بعمارة عمران، وقد كان المطهر بن الإمام أخربها وقت خروجه من صنعاء، ولم يترك فيها لا مغنا ولا ربعا.

وفيها أراد حسن باشا فتح الحرب على السيد أحمد بن الحسين المؤيدي فاعترضهم دونه علي يحيى بن المطهر لكونه محالفاً للسيد أحمد موالياً له، مائلاً إليه، وقال: لا يمكن أن ندع أحداً من جنود السلطنة يجاوز تلك الحدود، ويصعد تلك النجود، وجرَّ نار الحرب إليه، وسعَّر الفتنة لديه، لأمرٍ أراده الله

---

(١) حصن ظفار: حصن أثري في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة (ذي بِيْن) عِدَاده من مركز الظاهر، بمديرية خَمِر وأعمال محافظة عمران.

تعالى وقضاه، وله الحكم فيما أمضاه، فتوجه لقتاله الأمير سنان الكيخيا وجرت بينه وبين عساكر علي يحيى حروبٌ عظيمة سابعة، وخطوب متوالية متتابعة، آل الأمر فيها إلى انكشاف عسكر علي يحيى من محل يقال له احضاض وانقبض عسكره عن المقاتلة غاية الانقباض، وحطّ الأمير سنان على مدع، ونصب عليه المدفع، وحصره من جميع الجهات الأربع، وكان بين علي يحيى وأخيه لطف الله عهود بالمعاونة والنصر، إذا دنى منه القتال والحصر، وجرت بينهما المكاتبة، وتوالت المخاطبة، على أنه يشتغل بحربٍ من قبله، ووعده علي يحيى بالمعاونة بماله وحوله، فأجاب دُعاه، ولبّى نداه، وانتقض ما بينه وبين الوزير حسن من الهدنة والإصلاح، والجنوح إلى القتال والفتنة والكفاح، لأمور جرت من وساطة الخاذلين، وسعاية الحاسدين، وخرجت الصناجق والعسكر، لقتال لطف الله بن المطهر في ذي مرمر، وظن أن أخاه علي يحيى يمدّه بجيشٍ وعسكر كما فعل أبوه المطهر لما حطَّ عليه حسن باشا المعروف بأس حسن، وذلك في مدّة الوزير سنان الأعظم، وغفل عن لطف الله علي يحيى غفلة الحي عن الملحود، وأفرده وحصنه لمعرّة المدافع والجنود، ولم يبق لديه من النجدة إلاَّ حالة الموثق إمّا تضرّع أو دعاء، وكان من أعظم الأسباب في تعب لطف الله قرب حصنه من صنعاء، وسهولة مسلكها إليه، ودنوّه منها محلاً وصقعاً، فإن الغارة كانت تخرج منها فتصل إلى تحت ذي مرمر، لا تقاسي التعب ولا وعثاء السفر، وأقام لطف الله بن المطهر يرعد بحربه ويبرق، وينتظر نجم السعادة لعله يشرق، ويذود عن أطراف بلاد العدوّ، وقد أحرمته شدّة المصابرة لذّة الهدوء، وعلي يحيى متغافل عن تلك الفتن، متهاونٌ بذلك اللمم الذي أطبق ليله وجن، يصابح عسكره الكفاح في البكر والأصائل، ويلقى عساكر السلطنة بكل قرم صائل، والمقابل له مصطفى بن طاهر الناظر في قاع حَوشان. ومدع محصورٌ بالأمير الكيخيا سنان.

ودخلت سنة إحدى وتسعين وتسعمائة:

وفي المحرم منها دخل من كوكبان إلى صنعاء الأمير الخطير فخر الدين عبدالله بن المطهر إلى حضرة الوزير حسن باشا، فأعزّه وأجله، وفي أرفع محل أحله، وعقد له لواءاً شريفاً، وصنجقاً منيفاً، ثم أن علي يحيى لما طالت مدة الحصار والنزال، وسئم الحرب والقتال، طلب من الأمير محمد بن شمس الدين الإتفاق، فاتفقا في قرب حصن ثلا، ثم توجه معه في ذلك الحين إلى كوكبان ولم يكن لأخيه لطف الله علم بما حدث، وكان تمام الصلح على تسليم مَدع وبلاده للسلطنة، ولمحمد بن شمس الدين نصف بلاد لاعة وبُكر وبلاده وبني الخيّاط والماوره، وأخرج لطف الله عن تلك الشروط وتركه ظهرياً، يقاسي مصائب الحروب بكرة وعشيّا، وخسر بمساعدته، علي يحيى ملكه، ونثر ذلك الفعل بعد الانتظام سلكه، وعاد علي يحيى وقد تمَّ الصلح على مراد محمد بن شمس الدين، ونفذت فيه حيلة الماكرين، والحمد لله رب العالمين.

ولما بلغ أخاه لطف الله صلحه على تلك الشروط، وأنه غير مذكور فيها ولا مشروط،علم لطف الله أن قد أناخت به الملمة الدهياء، والمصيبة العمياء، باجتماع الجموع المحاصرة لثلا ومُدع، وانصبابهم إليه كالسيل إذا تتابع ودفع، وليس بعد ذلك من المعين الموالي، والصديق والآلي، وكان لطف الله بن المطهر كما قال فيه السيد العلامة صلاح بن أحمد الوزير[1] لما ذكره في المشجّر الذي جعله لآل الإمام المهدي فقال: لطف الله بن المطهر ذو النفس الأبية، والهمة العلية، والجلالة والرئاسة، والرجاحة والنفاسة، والقلب الذي لا تبتهته المصائب وإن عظمت، ولا تفزعه الخطوب وإن جسمت، ثم إن لطف الله بن المطهر احتسب وصبر، وانتظر وارد القدر، وتوجهت نحوه تلك

---

(١) صلاح بن أحمد الوزير: عالمٌ محققٌ في علوم القرآن، أديب شاعر، فصيح، سريعُ الإجابة، كان يسكن وادي السر ثم انتقل منه إلى حصن كوكبان، ومنه انتقل إلى صنعاء. مولده سنة ٩٤٥هـ ووفاته سنة ١٠١٤هـ (هجر العلم، ج١، ص١٨٤).

الجنود، وأُشعل على ذي مرمر النار ذات الوقود، وأناخ عليه الكيخيا سنان، وجرت بين الفريقين حروبٌ تذهل الإنسان، ودارت عليه المدافع، وتوالت الوقائع. وحدث في أثناء ذلك في المحصورين آلام مقلقة، وحميات محرقة، وفشى الموت في ذي مرمر، واتصل حصاره واستمر، وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

قل لمن في ذمرمر حسبك الله
لماذا العتوّ في الطغيانِ
هل معاكم من الزمان وثاقٌ
بامتداد البقاء في ذا المكانِ
ذا سنانٌ مؤيدٌ لو عرفتم
قد أتى بالجنود كالطّوفانِ
عظم الله أجركم بعد هذا
وهنانا الهناء في نهرانِ

وفي شهر جمادي الآخرة توفي الشيخ العابد، الصوفي المجاهد، محمد بن أحمد جناح.

وفي شهر جمادي المذكور وقع في ذي مرمر من أحد جوانبه مطر من جنادب، ملأ الجوانب، وغشى الجدرات وعمّ الطرقات، وكان ذلك من عجائب حوادث الزمان، لم يجر مثله في عصرٍ ولا أوان.

وفي شهر شوالٍ منها جرت المخاطبة بين حسن باشا ولطف الله في تسليم حصن ذي مرمر بواسطة محمد بن شمس الدين، وأن يطلع الأمير حسين بن

حسن باشا إلى كوكبان يبقى في صورة الرّهينة حتى يخرج لطف الله من الحصن المذكور.

وفي هذا الشهر تهيّأ الأمير الكيخيا سنان لأخذ مدينة صعدة، بقوة وعدة. ثم أن حسن باشا خرج من صنعاء لأجل خروج لطف الله من ذي مرمر وحطَّ في محل قرب الحصن يقال له بير الزُقيمة[1] فلما وصلها خرج إليه لطف الله فاستقبله وأكرمه وعظَّمه، وعقد له لواءاً سلطانياً، وعزم لطف الله عقيب عقد الصتجق عليه إلى كوكبان، وكان تسليم حصن ذي مرمر للسلطنة القاهرة في شهر القعدة الحرام من السنة المذكورة، ثم أن الوزير حسن باشا بعد عزم لطف الله طلع حصن ذي مرمر وأقام فيه أياماً. وأما الأمير سنان فتوجه على السيد أحمد بن الحسين المؤيدي إلى صعدة، فلما قربوا من دياره، وشارفوا على أقطاره، خرج من صعدة بجموعه وأنصاره، وقد كان حطّ الأمير سنان في بركة مداعس ووجه خيلاً وعساكر وأمراء من جملتهم الأمير عبدالله بن المطهر والأمراء الحمزيين: الأمير الهادي بن ناصر وحفيظ بن ناصر، إلى محل يُقال له العجلة، فلما وصل السيد أحمد إلى محطّته التي اختارها بلغه توجه العسكر إلى عقبة العجلة، فترك في محطته عمه المهدي بن عز الدين وولديه صلاح بن أحمد ومحمد بن أحمد، وتقدم هو وولد عمه عز الدين بن المهدي ليمنع ذلك العسكر الذي وجّهه الأمير سنان الكيخيا إلى العجلة، فما وصل إلاَّ وقد صعدوها وتمكنوا منها، فجرى بينه وبينهم قتال، ومناوشة نزال، وانكسر عنه بعض أصحابه وبقي بعض، وأصابته رصاصة صرعته في الحين، وقُتِل هو وابن عمه وعدّة من أصحابه، وأخذ رأسه ورأس بن عمه، وذلك في شهر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة، وبلغ عمه وولديه السيد صلاح والسيد محمد مصرعه فانكشفوا عن المحطة في الحين، وولوا مدبرين،

---

(١) بير الزقيمة: هي اليوم قرية في لكمة جبل ذي مرمر بمديرية بني حِشَيْش – بكسر ففتح – من أعمال محافظة صنعاء.

واستولت عساكر السلطنة على المحطة بما فيها، وعزم ولده محمد إلى بعض بلاد صعدة للنجدة، وعزم ولده صلاح وعمه المهدي إلى حصن أمّ ليلى لا يلويان على شيء ولا يهتمان بأمر حتى وصلا تلك القلعة واستعدا للحصار، وقد قلت الأنصار، وزاغت الأبصار، وتوجه الأمير سنان إلى صعدة فدخلها سلماً في الحجة الحرام من السنة المذكورة، وأرسل براس السيد أحمد ورأس بن عمه إلى حضرة حسن باشا إلى صنعاء، فجعل بذلك التلبيس والزينة، والسمرات في المدينة.

ودخلت سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة:

وفيها واجهت جميع بلاد صعدة، وتقدّم الأمير الكيخيا سنان لحصار أم ليلي، ومضايقتها نهاراً وليلاً.

وفي الليلة المسفرة عن نصف شهر رجب الفرد قُتِلَ عبدالرحمن بن المطهر في منتزه لهُ يقال له الحوضين تحت حصن مبين، واظهر ولده عبدالرحيم أن القاتل له أحد عبيده، فقتل ذلك العبد الذي زعم أنه قاتل أبيه، وقام بعد أبيه بالأمر وجعل له الوزير بعد ذلك بأيام صنجق أبيه عبدالرحمن.

وفي غرّة شهر رمضان تسلم الأمير سنان قلعة أمّ ليلى وخرج إلى يده السيد صلاح بن أحمد وعمّ أبيه السيد المهدي بن عزّ الدين.

وفي اليوم السادس من شهر رمضان توفى الأمير محمد بن شمس الدين، وكان مرضه من الاستسقا اللحمي الغليظ، وقد كانت طالت به العلة، واستقل بالأمر بعده ولده أحمد بن محمد بن شمس الدين[1] وقد كان حسن باشا عقد لـه لواءاً شريفاً في مدّة أبيه، ثم جعل حسن باشا صنجقةُ لولده محمد بن أحمد بن

(١) أحمد بن محمد بن شمس الدين: أمير كوكبان، قال القاضي إسماعيل الأكوع: جنح لمصالحة الدولة العثمانية، وكان من أكبر أعوانهم على محاربة الإمام القاسم ابن محمد. وله مواقف مشهورة في معارضته له. توفي بكوكبان في ١١ شوال سنة ١٠١٣ (هجر، ج٤، ص١٨٧٢).

محمد بن شمس الدين، وجعل صنجق محمد بن شمس الدين لولده أحمد بن محمد.

وفي شوال منها طلع لطف الله بن المطهر من بلاد الشرف إلى صنعاء مقام حسن باشا فأمر ولده الحسين وجميع الأمراء باستقباله، فلما مُثل في مقام حسن باشا أكرم مثواه، وأعزه وحباه، ورفعه على جملة الأمراء، وقرّبه إلى مجلسه بحيث أنه كان ملاصقاً له في المجلس، فداخل نفوس قوم من أولئك الرؤساء المنافسة والحسد، واستثير في أحشائهم الغيظ والكمد، ثم أقام في مقام الوزير حسن أياماً، وهو يزداد إجلالاً وإكراماً، وعاد إلى بلاد الشرف في قوة ومنعة، وعزة ورفعة، وما برحت تدب في قفاه عقارب الحسدة، وترميه بسهام مكائدها الفجرة المردة، حتى جرى في جنابه ما سنذكره ونورده في محله إن شاء الله تعالى.

وفيها نقض حسن باشا الإصلاح بينه وبين علي يحيى بن المطهر، من غير جرم جرى ولا وزر طرا، ولم يظهر منه ميلٌ ولا حيف، ولا شهر للمنازعة سيفا، وأمر الأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين بشن الغارات على بلاده، وفتح الحرب على أغواره وأنجاده، وكان علي يحيى في الرعيل، وقد جعل في حصن ثلا أخاه إبراهيم وولده أحمد، فأمر حسن باشا ناظر السلطان مصطفى دفتر دار بأن يتوجه على ثلا ويحط عليه، وتوجه الأمير كيوان والأغا صلاح بن سالم لأخذ بلاد علي يحيى المسورية، وكان في حصن مسور المنتاب ولاة ورتبة من عهد المطهر بن الإمام. ثم إن علي يحيى جعل فيه ابن أخيه محمد بن الهادي بن المطهر، زيادة إلى تلك الرتبة، وجرى من علي يحيى إلى محمد بن الهادي أمور موحشة، وبلغت تلك الوحشة حسن باشا، فكاتب محمد بن الهادي وأرسل له عطية ذهباً أحمراً وحسّن له أخذ مسور وعرف إليه بأنه إن فتك بعلي يحيى فله حصن مسور وبلاده وصنجقه بصنجق، فتم الأمر بينهما على ذلك، ولم يشعر علي يحيى بما هنالك، وظن أن

الخوف لا يأتيه من مأمنه، ولا يثورُ من مسكنه، ثم إنها تمت لمحمد بن الهادي الحيلة على علي يحيى وأطلع جيوش السلطنة إلى قلعة مسور[1] وفيها أولاد علي يحيى ومكالفه، فما شعر علي يحيى إلاَّ والأعلام في مسور خافقة، والجيوش من جوانبه دافقة، فقام من ساعته وأهم للوقوف بالحرب فلم يبق من يعضده، ولم يجد من ينجده، فولىّ من وقته وحينه إلى الظفير، يخوض حر ذلك الهجير، ومعه أولاده وأهله، وكفّ الله عنهم أكفّ القبائل، وسلموا من تلك المصائب النوازل، ونُهبت بقية خزائنه التي في مسور، واستولى عليها سردار تلك العسكر، ودخلت تحت الطاعة جميع بلاد لاعة، ومسور، وكان أخذ محمد بن الهادي وعسكر السلطنة لمسور في ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة.

وفيه توجه الكيخيا سنان لحرب الإمام الحسن بن علي إلى جبل الأهنوم، وفيه تم الحصار على ثلا، وفيه أحمد بن إبراهيم بن المطهر وأحمد بن علي يحيى.

وفي هذا الشهر تسلم حسن باشا حصن حضور الشيخ، وكان فيه الأمير أحمد بن محمد الحمزي المعروف بالأدرن وكيلاً من قِبَل علي يحيى بن المطهر.

وفي هذا الشهر المذكور استولى الأمير سنان على أكثر بلاد الإمام الحسن بن علي وضايقه.

(١) مَسْوَر: بفتح فسكون ففتح، جبل في شمال غرب حصن ثلا في محاذاة جبل المصانع، ويقال له: جبل مسور المنتاب، للتفريق بينه وبين غيره من الأماكن التي تحمل اسم مسور في اليمن. وكان آل المنتاب قد سكنوه فنُسب إليهم.

ودخلت سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة:

وفيها جرت الوحشة بين حسن باشا وغوث الدين بن المطهر، فأظهر الخلاف، وحفظ من بلاده الأطراف.

وفي شهر صفر من السنة المذكورة عقد حسن باشا على محمد بن الهادي بن المطهر صنجقاً شريفاً، ووفى له به ولم يفِ لهُ بالبلاد المسوريّة لأنه شرطها له إذا قتل علي يحيى، ولم يتم له قتله، وشرط له الصنجق إذا جرّ الجيوش إلى مسور.

وفي الشهر المذكور وجه حسن باشا عدة من أرباب الدولة، وأعيان الصولة، ومن جملتهم الأمير محمد بن الهادي بن المطهر لحرب غوث الدين، وأصحبهم المدفع، واستولت السلطنة على جميع بلاد عفّار، وصح عليه بذلك الحصار، وقد كان جرى بينهم قبل ذلك قتال، لم تمد فيه الليال، وآلت الحال إلى ذلك المآل.

وفي شهر جمادي الأولى واجه علي يحيى إلى حضرة الأمير الكيخيا سنان من الظفير إلى تحت حصن عفّار فقابله قبولاً حسناً وقام به واعتنى.

وفي شهر جمادي الآخرة قدم علي يحيى على حسن باشا صحبة الأمير سنان فأعزّه وقرّبه وأنصفه ومنحه، وعقد عليه لواءاً شريفاً، وفي أثناء حصار عفّار كان محمد بن الهادي بن المطهر من جملة المحاصرين لهُ فخيلت له نفسه الأمارة، ترك النصرة والإمارة، وكاتب أهل بلاد مسور المنتاب وحثهم على الميل إليه، والقيام معه والنصرة له، وأنّ مراده يسري إلى مسور ليلاً، ويلقى من فيه من الولاية حرباً وويلاً.

وكان حسن باشا وهبه وبلاده وبلاد لاعة للأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين، فلما ثبت هذا الخيال في ذهن محمد بن الهادي واستقر، فارق محل عفار في سحر، وكان في صحبته ألفاف وأرذال، وفرقة لا يثق بهم ذوو الكمال، فتأخر منهم اثنان كانا من حشمه وسرقا لوح صنجقه وعزما من حينهما عقيب

عزم محمد بن الهادي بساعات إلى الأمير سنان فأخبراه بما نوى به محمد بـن الهادي من العيب في مسور، فبعث خلفه بجماعة من عسكر السلطنة وعسـكر كوكبان على مقدمتهم النقيب عنبر طبّال، وكتب إلى الأمير أحمد بـن محمـد يخبره بذلك، فوجه عسكراً صحبة النقيب مرجان قرمان.

ولما وصل محمد بن الهادي إلى تحت حصن مسور، ظن أنَّ من حالفـه من القبائل اقبل وحضر، فلم يجد لهم حسّاً ولا سمع لهم ركزاً، وجُملة أصحابه الذين معه عشرة أنفار، فدخل الحصن وهو حامل بندقه وفيه شحنة واحدة، فلما توسّط الحصن أغلق البواب خلفه الباب، وترك أصحابه العشرة مـن خلفـه، فتمزقوا في تلك الحمائل، وتفرقوا في الشعوب والسوائل، وطلع محمد فـأبصر صاحب القفلة فرماه بالشحنة التي كانت في البندق وتعطل بعد ذلك ودخل الدار وفيها رئيس ولاة الحصن الفقيه أحمد بن محمد النصيري فسلّم عليـه وجلـس بإزائه مبهوتاً حائراً يصفق كفّاً بكفٍ، ولا ينطق بحرف، وكان أرمَى خلـق الله بالبندق ما قط تخطئ له رميّة ولو كررها إلى المائة، وصادف ذلك اليوم عـدم إصابته في الرأي والفعال، وثبت عليه الاعتقال، وأقبل العسكر من كل وجـهٍ فدخلوا عليه وأسروه وهو مستسلم، وكان الحابس لنفسه، والقائد لها إلى مهاوي نكسه، وساروا به إلى قرب كوكبان ومرّوا به مدينة شبام ووجهوه إلى حضرة حسن باشا إلى صنعاء وأودعوه السجن في الدار الحمراء.

وفي شهر جمادي الآخرة خرج حسن باشا لتسليم حصن ثلا من يد الأمير إبراهيم بن المطهر، فلما وصل إلى تحته خرج إبراهيم بن المطهر وأحمد بـن علي يحيى إلى مواجهته وجميع من كان معهما في الحصـار، فخلـع عليـهم الخلع، وأدنى مقام إبراهيم ورفع، وشرَّفه بصنجق شريف، وجعل لولد علـي يحيى مائة حرف في القصد.

وفي شهر رمضان من السنة المذكورة افتتح الأمير الكيخيا سنان جميـع جهات الأهنوم، وشملت الأمام الحسن من ذلك الهموم، وانحصر في محل يقال

له الصاب[١] وانحصر إلى التسليم وأجاب، وخرج إلى يد الأمير سنان، وذلك في سادس عشر شهر رمضان.

ومن عجائب الاتفاق أنه دعى بالإمامة في النصف من رمضان من سنة ست وثمانين وتسعمائة، وأسر في النصف من رمضان من سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة، ووصل الإمام الحسن صحبة الكيخيا سنان إلى حضرة الباشا حسن آخر يوم من شهر رمضان من السنة المذكورة، وأودعه الحفظ في داره القريبة منه ولم يدخل الدار الحمراء، ولا اصطلى من حرّها جمرا.

ودخلت سنة أربع وتسعين وتسعمائة:

وفيها وجه الباشا حسن إلى لطف الله بن المطهر رُسلاً يستدعيه للوصول إلى محروس صنعاء لأمور يتفاوض هو وإياه فيها لا تسعها الأوراق، ولا ينبغي إيداعها صحبة الرفاق، فحشد جموعه وزمرته، وأصحابه ورفقته، ووصل إلى صنعاء في اليوم الرابع من صفر من السنة المذكورة، وبعد أيام من وصوله وصل أخوه علي يحيى بن المطهر إلى مقام حسن باشا، وقد كان استصحب لطفُ الله أخاه حفظ الله بن المطهر ليأخذ بحسن باشا عهداً، ويؤكد ميثاقاً وعقداً، حلت من ذلك العقد العقود، ونقضت فيه المواثيق والعهود، بسعاية المبغض الحسود، أخي العقارب السود، والحرب في ذلك الوقت على عفار قائمة على ساق، دائمة على الاتساق، والمدافع تدك أسواره المنيعة وقصوره الرفيعة، ولما اشتدت على غوث الدين الأزمة، وعمته الغمة، كتب إلى أخيه لطف الله إلى محروس صنعاء بحقيقة حاله، وما نزل به من نكاله، وطلبةُ الوساطة بينه وبين الباشا حسن على تسليم حصن عفار وخزائنه وجبخاناته، وأن يجعل له صنجقاً وينتقل بأولاده وأحفاده إلى جهة الشرف بلاد

(١) الصاب: قرية صغيرة في جبل شهارة، قريب من بيت تميم وغربي قرية الهجر، ويقال لها اليوم: الصوبة.

أخيه لطف الله، فدارت المخاطبة بذلك، ومال حسن باشا إلى ما هنالك، وقد كان جرى التواطؤ بين حسن باشا والأمراء المحاصرين لحصن عفار أنه متى سلم غوث الدين الحصن إليهم دخلوه بأجمعهم وقبضوا على غوث الدين، وتم تسليم عفار في اليوم الرابع من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، ثم أن حسن باشا صوّر أن مراده ظيافة مدينة صعدة، وأن مراده يمر بالشّرف صحبة الأمير لطف الله بن المطهر لأجل الضيافة، ثم ينتقل من الشرف إلى صعدة، فخرج من صنعاء وصحبته الأمراء والصناجق، وحشد في ذلك المخرج جملة العساكر، وخرج صحبته أولاد المطهر الذين هم لطف الله وعلي يحيى وحفظ الله وإبراهيم وعبدالله وغيرهم من سائر الرؤساء، فلما استقر ركابه في الرقة[١]، وذلك في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، طلب الأمير سنان الكيخيا أولاد المطهر، وكافة الأمراء والأغوات والأشراف والمشائخ، إلى خيمته، فلما استقر بهم المكان، وغص الموضع بالأعيان، أخرج أوامر شريفة من الحضرة السلطانية مضمونها القبض على أولاد المطهر الأربعة، الذين هم لطف الله وعلي يحيى وحفظ الله وغوث الدين، والإرسال بهم إلى السدة العالية، والأبواب السامية، واستولوا على محطة لطف الله وما فيها وقبضوا خيله وعدّته وبنادق عسكره وأسلحتهم، وكان أحسن اخوته أبهة وزياً، وأكثرهم أثاثاً ورِيّاً، وفي ذلك اليوم الذي قبض فيه على لطف الله وعلي يحيى وحفظ الله قبض فيه على غوث الدين في حصن عفار، وأمر حسن باشا بإرجاع أولاد المطهر الثلاثة إلى القصر من ليلتهم صحبة الأمير محمد السردار الموجود اليوم، وكان كيخية القبجيسة، فأودعهم السجن ولم يمسهم للدار الحمراء ظل، ولا روّعهم فيها صِل، وكان حبسهم في الدار القريبة من ديوانه، فيتفقد أحوالهم في أكثر أحيانه، ولم تعض سيقانهم

---

(١) الرَّقَّة: بفتح الواء وتشديد القاف. قرية في منطقة شَرِسْ، بأسفل مدينة حَجَّة من الجهة الشرقية، وكذا أسفل حصن عفار.

القيود، ولا نفى لهم الخوف الهجود.

ثم توجه الأمير سنان لقبض بلاد لطف الله وحصونه، وأخذ خزائنه ومشحونه، فتوجّه ومر على عفار، وفي ذلك الارتحال، وغوث الدين باق فيه تحت الاعتقال، ثم توجه إلى الشرف فقبض الحصون، وعزف المشحون.

وفي اليوم الرابع والعشرين من ربيع الأول وصل الأمير الخضر المعروف بقلاق خضر والشيخ علي بن متاش الخولاني إلى صنعاء وصحبتهم غوث الدين بن المطهر، فجمع بينه وبين اخوته.

وفي هذه السنة في جمادي الأولى عاد الأمير الكيخيا سنان من بلاد الشرف بعد أن نظم أمورها، وسد ثغورها، واطلع صحبته أولاد لطف الله بن المطهر إلى محروس صنعاء.

وفي شهر جمادي الآخرة وجّه حسن باشا الأمير علي الجزائري لأخذ معاقل ريمة، ففتحها طاعة وقهراً، وأمدّه الله فيها فحاز عزّاً ونصراً.

وفي شهر رجب وصل الأمير علي القبطان بالأسرى والرؤوس الذي ظفر بهم في بحر اليمن.

وفي ليلة الاثنين الثامن عشر من شهر شوال من السنة المذكورة وجه حسن باشا الأمير الكيخيا سنان بأولاد المطهر لطف الله بن المطهر واخوته وابن أخيهم محمد بن الهادي بن المطهر والإمام الحسن بن علي ونصيره الشيخ وهّان العِذَري إلى الأبواب العالية السلطانية، وسار بهم حتى وصل بندر المخاء، وعاد بعد أن أركبهم السفينة، فضمت منهم مهجاً كاسفة حزينة، لا ترقى لهم دمعة، ولا يُرجى لهم رجعة، أحشاؤهم على أولادهم تقطع أفلاذا، ونفوسهم من الحزن تذهب جذاذاً، وانحطّوا من الفلك إلى الفلك، ولله العلية والملك، ولعمري أن الذي أشار على حسن باشا بتلك المشورة، وحرّضه على أن يعمل فيهم هذه الصورة، ما محضه النصيحة، ولا أوضح له ما تكنه الضمائر الصحيحة، وإنما كانت نصيحته لهوى نفسه المجبولة على الحسد،

ولأجل المناقشة التي أثمرها الكمد، ولقد علم حسن باشا لما ثارت فتنة الإمـام القاسم، وتوالت في بلاد أولاد المطهر الحروبُ والملاحم، أن ذلـك الناصح غشه، وهزّ بسوء المشورة عرشه، وتيقن أنه كان في قبض أولاد المطهر الخلل، والزيغ الظاهر والزلل، وندم حيث لا ينفع الندم، وما حيلة الإنسان فيما سبق بالقلم، ثم عاد الأمير سنان الكيخيا بعد عزم أولاد المطهر إلى جهة الحجرية ففتح أقطارها، وقضى أوطارها.

ودخلت سنة خمسٍ وتسعين وتسعمائة:

وفي شهر رجب من السنة المذكورة توفي مصطفى بن طاهر الدفتردار بعد عوده من حضرة سلطان الإسلام، وهو الذي كان محاصراً لثلا وإبراهيم بن المطهر، ومقابلاً لعلي يحيى في المرّة الأولى، وقد كان خرج ببرات في أنه يكون باشه في بعض البلاد، ويستقل فيها بالإستبداد، فسبق أجلُهُ أملَهُ، وأزعجه الحمام فاستعجله.

وفي شهر شعبان من هذه السنة عاد الأمير الكيخيا سنان قافلاً من بلاد الحجرية بعد فتحها، واستباحة سفحها.

وفي شهر القعدة من هذه السنة فتحت عساكر السلطنة حصن شهارة المعروف بشهارة الأمير، ودخلوها على وجه الحيلة على يد رجل شريف من غربان يقال له عبدالله بن حاجب، ثم فتحت بعدها شهارة الأخرى المعروفة بشهارة الفيش.

ودخلت سنة ستٍ وتسعين وتسعمائة:

وفي المحرم منها وصل من حضرة سلطان الإسلام مراد بن سليم خان مصطفى آغا بتشريفات ومراسيم وفيها خبر وصول أولاد المطهر واخوته والإمام الحسن إلى حضرة سلطان الإسلام والمسلمين مراد بن سليم.

وفي صفر منها توفي غوث الدين بن المطهر في الأسر بالقسطنطينية، وهو أول من مات من أولاد المطهر في السجن، وكان مولده في شهر شعبان سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة في حصن عفار.

وفي شهر القعدة الحرام توجه الأمير سنان الكيخيا بأعيان الأمراء وأكابر الرؤساء من العرب والأروام، والأشراف الكرام، وجمع الجموع والأجناد، واستصرخ على يافع[1] جميع البلاد، وسار في تلك الألوف الموفورة، والصناجق المشهورة المنشورة.

ودخلت سنة سبعٍ وتسعين وتسعمائة:

وفي صفر منها وصل الأمير علي الجزائري من بلاد ريمة ودنوه[2] وقد أوهى من عصيانها القوة، وذلل السطوة، وجبا الخراج، وأمّن السبل والفجاج.

وفي شهر ربيع الأول من هذه السنة جعل الوزير حسن باشا الأمير علي الجزائري باشويّة الجهات الصعدية والبلاد الشامية، وزفه وأعلى ذكره، واطلع من أفق الرئاسة بدره، وعزم إلى تلك الجهات في أحسن السمات.

---

(١)يافع: بفتح فكسر الفاء: قبيلة مشهورة تقع منازلها فيما بين "الضالع" و "لحج" في المنطقة المعروفة قديماً باسم "سرو حِمْيَر" وهي منطقة جبلية صخرية صلبة ترتفع عن سطح البحر بحوالي ٢٢٠٠ قدم. وتُعْتَبر أعلى منطقة جبلية في المحافظات الجنوبية، وفيها أعلى جبل هُناك يُسمَّى (تَمِر) يرتفع عن سطح البحر بحوالي ٢٥٠٠ قدم.

(٢) حصن دِنْوه: – بكسر الدال– حصن في بني الضُبَيْبي ببلاد رَيْمة.

ودخلت سنة ثمان وتسعين وتسعمائة:

ولم يجر فيها حادث يذكر ولا رفع إلينا نبأ ولا خبر.

ودخلت سنة تسع وتسعين وتسعمائة:

وفيها عقد حسن باشا لولده الأمير حسين على ولاية تعز وبلادها، وفي السابع عشر من رجب توفى حفظ الله بن المطهر بالسجن بذي قله من حضرة اصطنبول، وفيها تحرك الأمير الخطر سنان الكيخيا للعود من بلاد يافع بعد أن دوّخ آفاقها، واستخرج أرزاقها، ودمّر معمورها، وأهلك مشهورها، وذلك بتذليل سطوتها، وتوهين قوتها.

ودخلت سنة الألف:

وفيها عاد الأمير الكيخيا سنان إلى محروس صنعاء ودخلها في شهر شعبان الكريم بجنود كالجراد وأمراء وأغوات وأمجاد، وقابله حسن باشا بقبول حسن وكرّر عليه الخلع النفيسة العالية، وعلى كافة الأمراء والأغوات، والأعيان على مراتبهم، وكذلك سائر رؤساء البلاد المستفتحة، وزاد في سناليانات الأمراء وجوامك العسكر ومن له التقرير في الدفاتر العثمانية، وكان وصولهم يوماً عظيم الزينة، زهت به المدينة، وجعلت فيها السمرات والتلبيس، وعاد إلى صنعاء بعد خلوّها الأنيس.

ودخلت السنة الأولى بعد الألف:

في آخر يوم من شعبان حصل كسوف شمسي في برج الجوزاء كان ابتداؤه بعد العصر بساعة ومازال يغشى صفحة الشمس حتى عمها وأظلمت وظهرت الكواكب، وأسودّت لذلك المشارق والمغارب، ولم يكن له مكث كثير

بل حصل في جرم الشمس الإنجلاء عقيب الاستغراق بنصف ساعة، وكانت ساعات توسط الكسوف أربع ساعات وكسور قضى بحكم الله تعالى وقدرته أن تمضي أربع سنين وأشهر من بعد الكسوف وتحدث فتنة عظيمة تعم أكثر اليمن، وذلك في أول السنة السادسة بعد الألف، ويتعب قلب ملكه تعباً عظيماً.

ومن عجائب الاتفاق أنه عاشر طالع دخول حسن باشا صنعاء برج الكسوف المذكور فإن طالع دخوله صنعاء كان برج السنبلة. ولما مرّت هذه المدة ظهر الإمام القاسم في أول سنة ست بعد الألف على ما سنذكره في محله إن شاء الله تعالى.

ودخلت السنة الثانية بعد الألف:

وفيها قد كان عيّن سلطان الإسلام لولاية اليمن أحمد باشا الحافظ، باشة مصر، وبلغ الخبر حسن باشا فتهيأ للعزم وأرسل بأمّ ولده حسين إلى تعز صحبة الأمير إبراهيم وعدّة من أغواته، ثم أضمحل ذلك الأمر واضرب أحمد باشا عن اليمن.

وفي شهر شعبان توفي الأمير حسين بن حسن باشا، وعزم الأمير سنان الكيخيا وقد كان قُبر فدخل تعز على ثلاثة ايام وأخرجه من القبر وجعل عليه قبة عظيمة وهي التي يقال لها الحسينية.

وفيها في شهر رمضان وصل وزير ملك الهند عزيز كوكه إلى صنعاء، واستقبله الوزير حسن بنفسه في أبهةٍ تحيّر العقول، وتحيّر النقول، وأقام إلى شهر شوال وعزم للحج بعد أن منح الوزير العجائب والطرف، والنقائس والتحف.

ودخلت سنة ثلاث بعد الألف:

وفي جمادي الأولى توفى سلطان الإسلام السلطان مراد بن سليم، وقعد على التخت نجله الكريم، السلطان محمد بن مراد بن سليم، وللسيد المصقع المفوّه البليغ عز الدين محمد بن عبدالله الحوثي[1] في تاريخ وفاة السلطان:

غاب مراد الملك عن دسته   وجاله التاريخ في لفظ غاب

ودخلت سنة أربع بعد الألف:

وفيها توجَّه سلطان الإسلام على الكفار والمشركين إلى بلاد أقرى، وسنذكر خبر الفتح في محله، واستخلف في القسطنطينية الوزير الأعظم إبراهيم باشا، نسبَةً. وأما اليمن، فسكنت فيه في هذه السنة الفتن، وحسنت حالة الوزير حسن، والتذّ واطمأن.

ودخلت سنة خمس بعد الألف:

وفيها جرت الحرب العظيمة بين سلطان الإسلام والمسلمين، وعباد الصليب المشركين، في بلاد اقرى، فلما علموا به حشدوا الألوف، واستقبلوه بالصفوف، وجروا المدافع الخارقة، وزحفت الزحوف في تلك البارقة، واتفق قتال بين عُبّاد الأوثان، والسلطان، يحيّر العقول ويذهل الجبان، وكان من كرامات ملك الإسلام، أنه لما استقام في موقف الصدام، توجّه إليه حجر مدفع من تلك المدافع العظام، فلما أحسَّ بها الحصان الذي تحته برك على ركبتيه، حتى مرت الحجر عليه، ولولا بركة الحصان، لما سلم السلطان، فسبحان من نصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، ثم تعقب ذلك هزيمة المشركين، وهبَّت ريح النصر على المسلمين، وعملت في المشركين سيوف

---

(١) محمد بن عبدالله الحوثي: عالمٌ محقق في اللغة والمعاني والبيان، حافظٌ لأشعار العرب، شاعر كاتب مترسل (هجر العلم، ج١، ص٥١٢).

الموحدين، وقتل منهم مقتلة ما جرى مثلها في المحمدية، ولا حدث شبيهها في الأمة النبوية، ((وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)).

وفيها كملت المدرسة الوزيرية، المعروفة بالبكيرية، وجعلت فيها الشعراء التواريخ، فالطراز الذي في محرابها من نظم الفقيه الأديب الأريب فخر الدين عبدالله بن عبدالصمد المحرقي. وللسيد العلامة عز الملَّة والدين محمد بن عبدالله بن الإمام شرف الدين فيها عدّة تواريخ منها هذا:

شاد الوزيرُ جامعا يلوحُ نوراً ساطعاً

مالكنا دَامَ له حكم القضا مطاوعا

وقد أتى تاريخه لكل خير جامعا

وله من أبيات أخرى:

أيا قبةً سفرت للعيون

كالشمس في الأفق تزهو سفورا

مُعَايِنُهَا ظنّها زهرةً

تلألئ في ساحة القصر نورا

ومنها في ذكر التاريخ:

وصاحَبَ تاريخها للوزير

نعيماً ببشرى وملكاً كبيرا

ودخلت سنة ستّ بعد الألف:

وفيها نَجَمَ نَجْمُ الفتنة المحرق، وامتد غيمها المرعد والمبرق، وثار في شام الشرف من محل يقال له حديد قارة[1] الإمام القاسم[2] وظهر وحده لا رمح لديه ولا صارم، وبلغ الأمير عبد الرحيم أول خبره، فأرسل في أثره، فوجد وقد طلع ذلك المحل وفيه أقام وأعلن بدعوة الإمامة في المحرم الحرام، وانضمت إليه قبائل تلك الجهات، وتكفلت بحمايته عن بوادر الغارات، فقصده كاشف الأمير الدفتردار، ونحاه إلى ذلك القرار، وكان الأمير حسين أمير الحج سنة خمس، ودخلت هذه السنة وهو في سفره لم تشرق له شمس، ولما قصد الأمير مبادأة حربه، قبل أن يقوى بزمرته، وحزبه، فوجد فريقاً من القبائل قد انضم إليه، وبايع لديه، فعاد الكاشف مكسوراً، مفلولاً محسوراً، ورفع الخبر الأمير عبد الرحيم إلى الوزير، وعرّفه أنه لابد يشعل في الأهنوم حرّ ذلك السعير، وكان حسن باشا مقيماً في روضة حاتم، تنثر عليه الأشجار الزهر من الكمائم، وترقى على منابر أغصانها خُطباءُ الحمائم، فما شعر الوزير حسن إلاَّ

(١) حِدَيْد: بكسر فسكون ففتح، قرية بجبل قارة، بمديرية وَشْحَة في بلاد حَجُور ومن أعمال محافظة حجّة.

(٢) الإمام القاسم: ترجمه الأستاذ عبد السلام الوجيه فقال: الإمام المجدد المنصور بالله، القاسم بن محمد بن علي، أحد عظماء الإسلام، والأئمة الأعلام، فقيه، مجتهد، مجاهد، أديب، شاعر، برز في العلوم الشرعية، وبلغ الغاية، وفاق الأقران، وجدد مناهج الفهم، وأساليب الدعوة، نشأ في بيئة علمية، وهاجر في طلب العلم وتنقل في البلدان، وقام داعياً إلى الله من محل قارة شمالي الشرف سنة ١٠٠٦هـ وتغلب على أغلب المناطق الجبلية في اليمن، بعد كفاح مرير، وهزائم وانتصارات، وتشرد في السهول والجبال وتنكيل بأصحابه وأقاربه، حتى سُلِخَ جلد عمه عامر بن علي وهو حي، وأُودع أفراد أسرته و أقاربه في السجون.. وكانت ثورته من أجل الدفاع عن المُستضعفين وإقامة الكتاب والسُنّة وتحرير اليمن من جور الأتراك، وكانت ثورته بداية لنهاية حكمهم في اليمن، وخروجهم الذي تم في عهد ولده المؤيد بعد وفاته بست سنوات. وقد عُرِف بالورع، والشجاعة، والغيرة، والكرم، والجهاد، وتكاملت فيه أوصاف الزعامة الروحية والدينية، واتخذ مدينة شهارة عاصمة له، وتوفي بها ودفن بالقرب من جامع شهارة الذي بناه، وقد خلف الكثير من المؤلفات العلمية في شتى الفنون، وفي سيرته وأخباره كُتب (أعلام المؤلفين الزيدية، ص٧٧٧).

بوصول رسول عبد الرحيم، بذلك النبأ العظيم، فعلم الوزير حسن أن الليالي قد فتحت أجفانها النائمة، وأن الخطوب قد أذعرت بزئيرها في النعمة تلك النفوس السائمة، وأرسل إلى الأمير سنان، وأمره بتجهيز الأمير عبدالله بن المعافا في الآن، وأن يحث السير إلى السودة[1]، قبل أن يجري في بلاد الأهنوم شيء من الأخذات الموعودة، فوصل إلى محله، وقد الدنيا بأجمعها منضربة الاكناف، كانضراب البحر الزحاف، وأضمرت القبائل العيب، وجنحت إلى الريب، وقوّض حسن باشا من الروضة خيامه ودخل صنعاء، وأمر الأمير الكدخداه بأن يبعث جنداً ويحشر جمعاً، فوجّه الأمير عبدالله بن المطهر إلى خمر ثم إلى وادعة، وكان الأمير علي بن المطهر بن الشويع في خمر، ثم قصدوا غربان، فوجدوا الأكثر منهم قد غدر وخان، ومال إلى العصيان، فخرجوا من ذلك المحل على كرهٍ وتعب ونصب، ولم يبق مع أهل الظاهر، من النصيحة غير الظاهر، وهم معروفون من قديم الزمان بالعيب، والخيانة في الشهود والغيب، ثم اقتضى نظر الوزير حسن تجهيز الأمير مطهر بن الشويع بعساكر مختارة، وأعيان وأمارة، وجعل سرداراً على كل أمير، ورئيساً تنفذ أحكامه في الصغير والكبير، وأصحبه من الجبخانة والدراهم والكسوة، ما تنوء بالعصبة أولي القوة، وقد كان أهل الظاهر ملّوا منه طول الولاية، وهذه حالتهم لا تصل مع الوالي في النصح إلى الغاية، فلما وصل إلى الظاهر، وقرأ على الأمراء تلك الأوامر، أذعنوا بالانقياد لطاعة الوزير، وقالوا للأمير المطهر أنت الحاكم والمالك والمشير، وانضم إليه عسكر كوكبان، ومكر أهل الظاهر قد ظهر وبان، وجرت في هذه الأيام مراجعات بين السردار والقبائل، لم يكن تحتها فائدة ولا ثمرة ولا طائل، وهم في أثناء ذلك في كثرة وتحزيب، وخداع ولا خداع الذيب، فآل الأمر إلى ارتفاع تلك المحاط، ولولا النهوض لألمَّ بها البلاء

---

(١) السُودة: جبل يُطل على وادي "أخرف" و " عُقمان" من بلد حاشد، منه الطريق إلى بلاد حجة.

وأحاط، ولما عرف القبائل بنهوضهم، ورفعهم للخيام وتقويضهم، لاموهم بالحرب المريب، إلى رأس نقيل عُجَيب، واستولت القبائل على جميع الجمال والأحمال واستكفلت الخزانات والزبرطانات والجبخانة، ووقع في الشيخ علي متاش صوب من بندق ونهبت حوائجه، ومقدار ألف سبعمائة دينار من الذهب الأحمر كان متوسلاً لها، وخرج ذلك العسكر الجرّار، من تحت حدّ السيف البتار، وكان الأمير الكدخداه سنان قد توجه إلى حضور بني شهاب[١] ونزلت تلك الجموع التي كانت في الظاهر[٢] واستقرت في عمران، فطغى في الفتنة الطوفان، وواجهت الإمام البلاد من نجران إلى خولان، وظهر الخلاف في كل مكان، وقد كان توجه قبل أن تجري هذه الفعلة في الظاهر الأمير إبراهيم طويل فقصده قبائل الحيمة ومن انضم إليهم من سائر القبائل، فقاتل قتالاً صادقاً، وثبت ثباتاً خارقاً، وذهب مقبلاً لا مدبراً، وجرى عليه من أمر الله ما جرى. ولما طلع الأمير الكدخداه سنان إلى حضور ووصل إلى محل يقال له بيت معدن[٣] وقد اجتمعت فيه جميع القبائل الموالية للإمام، وسدّوا الأفق كأنهم الغمام، جرى بينهم وبين الأمير الكدخداه قتال عظيم، وأغار الأمير أحمد بن محمد من كوكبان، فحصل مع القبائل فشل فحمل عليهم الأمير الكيخيا حملة نافعة، فرماهم بالقارعة وأخذ منهم رؤوساً عديدة وأسرى، وانكشف ذلك الغمام الذي سرى، وما انفك الأمير الكيخيا يحاول فتح بلاد الحيمة فبلغه أن حصن ثلا حصل فيه عيبٌ من بعض أهل بلاد ثلا، وقد كان وجه الإمام لأخذ حصن ثلا السيد الحسن بن شرف الدين الكحلاني، وعند ذلك أضرب الأمير الكدخداه عن فتح بلاد الحيمة، ونقل عن تلك الربوع الخيمة، وانثنى على ثلا، وجرت

---

(١) حضور بني شهاب: جبل شامخ في مديرية بني مطر، بالغرب من مدينة صنعاء.

(٢) الظّاهر: مركز إداري من أعمال مديرية خمر في شمال عمران. وثمّة مناطق كثيرة تحمل ذات الاسم.. أنظرها في المعجم.

(٣) بيت معدن: من قرى جبل حضور بني شهاب. تقع في رأس مديرية الحيمة الداخلية بالغرب من صنعاء.

حروب بين أصحاب الإمام والكيخيا تذهل لُبّ اللبيب، وذلك مقدار أسبوع، وقد كان حان تسليمه، ودارت المخاطبة بين السيد الحسن والكيخيا، والسبب في ذلك أنهم لما دخلوه عنوة نهبوه ونهبوا شحنته وظنوا أن الكيخيا مشغول بقتال الحيمة، ولما عاد نحوهم سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، فلم يشعر الأمير الكيخيا وهو في إبرام الكلام بينه وبين السيد المذكور إلاَّ بمرسوم من حضرة حسن باشا يستدعيه بالوصول إلى حضرته إلى صنعاء، وجعل صحبة الرسول مرسوماً آخر إلى جميع العسكر يأمرهم بمثل ذلك، فما وسع الكيخيا إلاَّ المساعدة بالنزول، وكان موجب إزعاج حسن باشا أنه بلغه خروج الحماطي من الحيمة يطوي البلاد طياً، لا يخاف غشا ولا يرهب عيّا، حتى دخل ذمار، ومنع العابر والمار. فرجع الأمير سنان ودخل صنعاء في عسكر عظيم وجيش عميم، ونصب الخيام في باب اليمن، وأرسل الوزير لحرب الحماطي أحمد بن يوسف الواعظ بخيل، وعسكر الحماطي إذ ذاك في ذمار، وقد اتخذها دار قرار، وتأهّل فيها بزوجة من أهل البلد، فلما بلغه قرب الواعظ منه لم يتحقق الخبر وظن أن القاصد له بذلك الجمع الأمير الكيخيا سنان، فخرج من ذمار إلى محلةٍ يقال لها يَفَاع[1] ولما عرف أن رأس القوم الواعظ هان عليه الأمر وظن أن الواعظ لا يقصده إلى محله الذي هو فيه، واستهان به، فقصده الواعظ وأحاط به ثم قبضه أسيراً، وكانت رميةً من غير رام، وإقداماً من غير همام، وذلك في شهر جمادي الآخرة من السنة المذكورة، وقد كان الحماطي أرسل رئيساً من ذمار يقال له العياني لفتح بلاد اليمن ووصل إلى سمارة وشارف فتحها وكاد أن يأخذها لولا أمرالحماطي، فلما بلغ الخبر جهات اليمن قبض الشيخ السرحي على العياني المذكور ثم أرسل به إلى الواعظ فقرنه بالحماطي، وفي مدة زقم الحماطي توجه الأمير الكيخيا سنان إلى هزم لمقابلة جند الإمام

(١) يَفَاع: بفتحات. قرية كبيرة من قُرى مركز مَنْقَذه، بمديرية عنس وأعمال محافظة ذمار. تقع شمال مدينة ذمار بمسافة سبعة أكيال.

التي تقدمت إلى تلك القرية، فقابلته الألوف، وثبت لمنازلته تلك الصفوف، وقد استصرخ عليه الإمام كل جيل، من حاشد وبكيل، وجرّ على قرية هِزَم[١] المدفع الكبير. وطالت الحرب بينهم وبين الأمير، وكان في صعدة والياً الأمير مصطفى، وكان لديه جماعة من فرسان الأروام، المعروفين بالثبات عند الصدام، ومعه عسكر تافع، فاجتمعت عليه قبائل بلاد صعدة بأجمعهم وكان على مقدمتهم الأشراف آل المنصور، أشراف الجوف، فلما قصدوا صعدة وعلم الأمير مصطفى بجمعهم العظيم، وقف في المدينة وأظهر العجز عن قتالهم، وظن أكثر تلك القبائل أن سكون عسكر السلطنة داخل صعدة عجز عن المقابلة فدنوا حتى دخلوا البيوت التي قرب مدينة صعدة، فلما تيقن الأمير مصطفى أن قد صاروا في البيوت خرج بخيله وجنده وقصد المذكورين من القبائل والأشراف فهزمهم هزيمة عظيمة، وقُتل ذلك اليوم شريفان من أعيان آل المنصور، ورجع على الذين في البيوت وأخرجهم وضربت أعناقهم عن آخرهم وكانوا زهاء ستمائة نفر فما تُرك فيهم طرف يطرف، وقَتَلَ في ذلك اليوم شريفاً فاضلاً يقال له جديره، فما طالت أيامه بعده بل مات لأسبوع، وكان يتفوّه أنه خصمه، وحما بعد ذلك صعدة، وباعد عنها الشدة، وخلفهُ في ولايتها الأمير محمد الذي هرب منها أيام الوزير جعفر، وسيجيء ذكره، وأما الواعظ فعاد إلى صنعاء وصحبته الحماطي والعياني، ودخل صنعاء في شهر رجب الفرد، واجتمعت الناس لرؤيته، ولما وصل به مقام حسن باشا حبسه في محل قرب داره وحبس العياني في الدار الحمراء، وبعد ايام من محبسه ضربت عنقه أعني العياني.

ثم أن الأمير سنان هزم أصحاب الإمام من هِزَمْ وتابعهم حتى وصل عمران، وقد كانت في حيز الإمام. ولما خالف بلاد الشرف جميعها وسرى

(١) هِزَم: بكسر ففتح، قرية كبيرة في أرحب، شمال مدينة صنعاء بمسافة ٣٨ كيلاً، في رأسها حصن أثري مشهور.

الفساد إلى بلاد عبدالرحيم حاصروه في حصنه ولم يسعه إلا التسليم والمواجهة والخروج إلى عند الإمام، بشروط وأيمان وذمام، ولما وصل إلى مقامه أجلـــه وأعزه وأكرمه ثم حلّفه وأخذ بيعته وجعله سر دار عســـكره وأمـــره بـــالتقدم لحرب السلطنة، وهو مضمر في نفسه الميل إلى الأمير والوزير، **مكيـــدة لـــو تمت لعبد الرحيم وحصلت، لذهبت دولة الإمام واضمحلت.** أراد عبد الرحيـــم لما أرسله الإمام لحرب الأمير الكيخيا إلى بلاد عمران أن يجعـــل لأصحـــاب الإمام مكيدة لا تبقي لهم باقية، وتذرهم كأعجاز نخل خاوية، وهو أنه أرســـل لهم من كل مكان لأجل المشورة وكتب إلى كل رئيس منهم يأمره بـــالوصول، وأراد أن يفهم حضرة الأمير الكيخيا بأنه إذا أحس بسواده وأجناده تنحى عـــن عمران وفارقها وأخلاها له، ويصور أنه خرج منـــها خوفـــاً مـــن العســـاكر الإمامية، وينزل الأمير عبد الرحيم عقيبه بجميع أعيان الإمام إلـــى عمـــران فينثني عليهم الكيخيا سنان فيسلمهم اليه عبدالرحيم جميعاً، فيروي من دمائـــهم الأرض، ويتركهم على وجهها إلى يوم العرض، فلم تتـــم لعبدالرحيـــم هـــذه المكيدة، وفطن لها شخصٌ من أصحاب الإمام يقال له ضيجي، فطمس ما دبّـــره عبدالرحيم ومَحَا. وعزم إلى عند كل واحد من أعيان الإمام وخلى به وقال لـــه إن عبد الرحيم مضمر العيب فيكم ساتراً للريب، الله الله إن واحدٌ منكم يأمنه أو يتخذه صديقاً، والله إني أخشى عليكم منه أكثر من خشيتي مـــن الأروام لأنـــه عدوٌ في صورة صديق، مختلط بكم اختلاط الماء بالسلاف الرحيق. فنقض مـــا أبرمه عبد الرحيم، ووسوس في قلوبهم ولا وسوسة الشـــيطان الرجيـــم، ثـــم استقبله الأمير الكدخداه على أنه يريد حربه فلما تراءى الفريقـــان، انضمـــت أصحاب عبد الرحيم إلى أصحاب السلطان، واختلطوا، وخلع الأمير الكدخـــداه على الأمير عبد الرحيم، وأرسل بالبشارة إلى الوزير حسن، وذلك في شـــهر رمضان من السنة المذكورة.

وفي شهر رمضان منها وجه الوزير للغارة على الأمير أحمد الذي فـــي

قلعة خلقة يافع[١] الأمير عبدالله بن المطهر والأمير درويش والأمير حسن الدفتر دار والأمير محمد السردار وعدة من أعيان الأغوات، ولديهم جيش نافع، فلما وصلوا إلى محل يقال له زهراء[٢] اجتمعت عليهم القبائل وكثروا، فانهزموا، وخرجوا لقتالٍ وحربٍ حتى سلموا من الهلاك، واستولت القبائل على جميع أثقالهم وما سلم من السلب إلاَّ من حفظ نفسه وكان ثابتاً، وسُلب وقُتل من العسكر عدّة، وعاد المهزومون إلى ردَاع، ولم يقتل أحدٌ من الأعيان. وبعد اتفاق عبد الرحيم بالأمير الكدخداه حدثت حروبٌ بين الأمير الكدخداه وبين أصحاب الإمام في مواقف، خاض فيها المتالف، وفي خلال ذلك والسيد عامر قد شن الغارات على الأمير احمد بن محمد بن شمس الدين وأخذ جبل تيس وطلع إليه من الحيمة بجموع وجيش، وكان قبل ظهور الإمام القاسم يأولاده في كوكبان، وعليه أرزاق جارية من الأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين، فلما ظهر الإمام القاسم وهو ابن أخي السيد عامر أراد الأمير أحمد بن محمد أن يعتقله ثم أضرب عن ذلك واستحلفه وأخذ عليه غليظ العهود والأيمان، أنه لا يسعى في الحرب والعصيان. فلما حلف له وعاهده فارقه وجاهده، وأخذ جميع البلاد، حتى انتهى إلى محل يقال له سافوف[٣] ثم إلى مقفوز الحصان لم يبق بينه وبين كوكبان إلاَّ دون البريد. ثم أن السيد عامر استقر في مقفوز الحصان، واطمأن به المكان، فقصده الأمير أحمد بن محمد في يوم الأحد سادس شوال من السنة المذكورة إلى مكان قريب من محطته يقال له تريادة[٤] وأمر اخوانه بالنزول لقتال أصحاب السيد عامر، فوقع بقدرة الله مطر أطفأ

---

(١) خَلَقة يافع: هي قرية الخلقة من قرى جبل المُفْلَحي في يافع، وهي من ديار قبائل السليماني. وفي أعلى القرية تنتصب قلعة "آل داود" وهي قلعة أثرية يرجع تاريخها إلى عصر ما قبل الإسلام.

(٢) الزهراء: من قُرى ذي ناعم بالبيضاء. تقع بجوار بلدة الرباط، ومنها طريق إلى يافع.

(٣) سافوف: قرية من مركز بني الذولاني، بمديرية الطويلة، وأعمال محافظة المحويت. على مقربة من قرية التعيزة.

(٤) تريادة: قرية من مركز بني الخيَّاط، بمديرية الطويلة.

قتيل البنادق، وتكاثرت أصحاب السيد عامر على عسكر الأمير أحمد بن محمد فانهزموا وتبعهم أصحاب السيد عامر فوضعوا فيهم السيف، فقتل عدة من أعيان عسكره، وقتل من أهله الهادي بن رضى الدين بن الإمام شرف الدين وقتل لطف الباري بن محمد بن عبدالله بن الإمام شرف الدين وأسر علي بن الحسين بن علي بن الإمام شرف الدين، وعاد الأمير أحمد بن محمد إلى كوكبان كاسفة البال، حليف البلبال، ثم أنه قصد السيد عامر إلى تحت هذا المحل الذي جرت الوقعة فيه الأولة، وقرب من محله الذي هو فيه ووصل إلى محل يقال له يفعان[١] فتلازم الحرب بينه وبين أصحاب الإمام وأصحاب السيد عامر لأنه تقدم بنفسه وجماعةٍ يسيرة معه، فأحاطوا به وخلّصه الله، وخرج من بين الأسنّة والسيوف، وكان هماماً مقداماً باسلاً، وقتل جماعة من أصحابه، ولم يبق غير حصن الطويلة فيه محصور محمد بن عبد التواب بن الإمام شرف الدين.

وفي شهر شوال من هذه السنة وجه الوزير حسن أحمد بن يوسف الواعظ وقرن به الشيخ علي بن متاش والأمير أحمد بن محمد الحمزي المعروف بالأدرن، وانضم إليه رتبة الحجرية وهم من أعيان العسكر ولم يكن للواعظ هذا خبرة بالقتال، ولا معرفة بمواطن النزال، ألف عسكراً من عيال السوق في صنعاء، ولفّف من لفيف الأمة جمعاً، فلما وصل إلى أسْنَاف[٢] استقبله الحاج أحمد للمصاف، فانكشف من حينه وترك المحطة بما فيها والزبرطانات وولّى مدبراً ولم يعقب، وقتل الأمير أحمد الأدرن وقُتل معه ولداه وجميع رتبة الحجرية لم ينج منهم مخبر، وذلك آخر يوم من شوال يوم

---

(١) يَفعان: جبل شمال كوكبان فيه قرى ومزارع. وما يحمل اسم "يفعان" من بلدان في اليمن كثيرة – انظرها في المعجم.

(٢) أسْنَاف: قرية من اليمانية السُفلى، بمديرية خَولان العالية، في مشارق مدينة صنعاء بمسافة ٤٠ كيلاً. تقع بالغرب من مدينة جَحَانه.

الخميس من السنة المذكورة. ووصل إلى صنعاء آخر نهار الجمعة مذموماً مدحوراً، منقوصاً مخسوراً، وعلم الناس أن فعلته بالحماطي اتفاقية، وأمور سماوية، وسقط من ذلك اليوم قدره، وخسف بدره.

وفي شهر ذي الحجة منها أخذ الإمام حصن مُدع وقد كان السيد الحسن حاصره ولم يؤخذ بصورة الصلح وإنما حصل فيه عيبٌ فدخله أصحاب الإمام عنوة وطلعوا الحصن من كل جانب، وقتلوا الآغا الدردار وكافة من معه، وسبوا النساء وقطعوا آذانهن لأجل الحلية التي فيها، وفعلوا بأهل مُدع الأفعال العجيبة، والأمور الغريبة، وحصل مع السيد الحسن بن شرف الدين زهو وعظمة، وكتب إلى الأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين يتوعّده ويرعد عليه، وتقدم جميع من كان على حصار حصن مُدع[1] لقصد كوكبان، وقربوا منه ووصلوا إلى محل يقال له باب اللظيّة، وكان الأمير أحمد بن محمد ذلك اليوم في محل يقال له بيت مَنْعَين[2] في حرب من أول النهار، وخرج لقتال هذه الجموع خيل وعسكر من كوكبان، فلما تلازم الحرب بين الفريقين وسمع الأمير أحمد بن محمد البنادق أغار وحمل بالخيل والعسكر فأمدّه الله بالظفر فكسر أصحاب الإمام كسيرة قامعة، وهزمهم هزيمة تافعة، واقفزهم الحيود، وأخذت منهم عدّة رؤوس وأسلحة، وكان أول نصر جرى في هذه البلاد بعد فعلة صعدة وقتلة الأمير مصطفى في قبائلها.

ولنعد إلى أخبار السيد عامر، كان السيد عامر في أول فتح جبل تيس وهو في الحيمة وجه اليه رجلاً من الشاحذية[3] في جبل تيس يقال له الفقيه علي المحيرسي. فدخل جبل تيس بعيّنة، وطواه طيّاً، وحاصر الطويلة، وتقدّم

---

(١) مُدع: بضم ففتح. حصن وقرية في جبل المصانع الملاصق لجبل ثُلا من الجهة الغربية.
(٢) بيت منعين: بفتح الميم فسكون النون، قرية في منطقة "الضَّلاع الأسفل" بمديرية الطويلة.
(٣) الشاحذية: جبل في شمال شرق مدينة المحويت.

بجماعة من أصحاب الإمام إلى محل يقال له بيت مُليك[١] قريب من كوكبان يسمع منه صوت البندق، فجرى بينهم وبين الأمير أحمد مناوشة قتال انكسروا عقيبها وأحاط بهم وقتلهم ولم ينج من الحمام إلاَّ من في تلك الآكام. وقتل الفقيه المحيرسي المقدم وأخذ رأسه ورؤوس أصحابه.

والحاصل أنه لم يبق مع الأمير أحمد بن محمد إلاّ كوكبان وبُكر والطويلة، وخالفت أكثر بلاده، وجميع أجناده، وكذلك السلطنة لم يبق معها غير صنعاء وصعدة محصورة إلى قرب الدوائر، تشن عليها الغارات قبائلها بالعشي والبواكر، وتسلم الإمام السودة وخرج إلى يده الأمير عبدالله بن المعافا، وقد كان تسلم قبل السودة شهارة وكان فيها أغة يقال له ملقوش آغا، وتسلم كحلان الشرف والجميمة وجميع حصون البلاد لم يبق منها غير ذي مرمر لقربه من صنعاء وإلا كوكبان لمحاماة من فيه عليه والطويلة لأجل من فيها من آل شرف الدين، وكان من العجائب أن أصحابه إذا توجهوا على حصن فتحوه في أقرب مدة، وقاسى الأمير أحمد خطوباً مريبة، وحروباً صعيبة.

ثم أن الأمير الكدخداه عاد من نغاش[٢] إلى صنعاء في هذه السنة، ودخل الأمير الكدخداه صنعاء والأمير عبد الرحيم صحبته في يوم الجمعة سادس ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة، وتوجه الأمير الكدخداه وعبد الرحيم معه على أهل خربة سعوان[٣] وقتلهم عن آخرهم لم ينج منهم إلا من كان غافلاً عن البلد، وكانت جملة المقاتيل منهم فوق المائة، ثم توجه الأمير الكدخداه وعبد الرحيم صحبته للقاء العسكر الواصلين إلى القبّتين.

---

(١) بيت مليك: قرية في مركز "الضلاع الأعلى" بمديرية "شبام كوكبان" وأعمال محافظة المحويت.

(٢) نغاش: قرية من مركز "عيال حاتم" بمديرية "جبل عيال يزيد" وأعمال محافظة عمران.

(٣) الخربة: قرية كبيرة من قرى وادي سعوان، بمديرية بني حشيش وأعمال محافظة صنعاء.

ودخلت سنة سبع بعد الألف:

وفيها في المحرم في حال وقوف الأمير الكدخداه في القبتين بيّت الحاج أحمد الأسدي صنعاء ليلاً وقصد المحطة بعد العشاء الداني في جموع من خولان ونِهم وغيرها، وخالط الخيام التي في طرف محطة باب اليمن، ووقعت في المحطة روعة عظيمة ورمت الزبرطانات من القصر وخرجت عيال الخزانة حق حسن باشا وكانوا فرساناً شجعاناً ظهر منهم في تلك الفتنة الكفاية، والثبات والعناية، فلما أحسَّ الحاج أحمد وجمعه بالخيل قد خرجت من باب ستران[1] انهزموا وترفع إلى سفح جبل نقم ورحلوا في آخر الليل لم ينالوا خيراً.

وفي المحرم منها انخسف القمر انخسافاً كلياً وذلك في برج الدلو.

وفيه اشتدت الحرب على الأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين وضوّق جملة خزائنه وعطل ذخائره، فكتب إلى الأمير الكدخداه يستنجده، فزحف بجنوده زحفة الأسد، وتقدم إلى ذلك الثغر فحفظه وسد، وقد كان جعل الأمير الكدخداه الأمير إبراهيم بن المطهر تقوية للأمير أحمد بن محمد في المنقب، وذلك لما عاد من نُعاش كما قدمنا ذكره، وعاد الأمير الكدخداه من القبتين وعبد الرحيم وأقام في صنعاء ليلةً واحدة وتوجه لفتح بلاد الأمير أحمد بن محمد في الشهر المذكور وعبد الرحيم معه وحطّ في مكان قرب حصن كوكبان يقال له أنود.

ولما بلغ السيد الحسن بن شرف الدين الكحلاني والفقيه علي الشهاري، وكانا في ثلا، وقوف الأمير الكدخداه في هذا المكان أرسلا لغزو شبام وأخذها جموعاً وألفافاً وذلك في الليل، وكان في شبام جماعة من الفرسان والعسكر من قبل الأمير أحمد بن محمد رئيسهم لطف الله بن رضى الدين بن الإمام شرف

---

(١) باب ستران: من أبواب مدينة صنعاء القديمة وقد خُرِب وكان موضعه في الشرق الجنوبي من المدينة أعلى باب اليمن من جهة الشرق.

الدين، فلما قرب أصحاب الإمام من شبام ودنوا من سورها خرج من بعض الاصطبلات ثورٌ في رقبته جرس من حديد له صوت، فظن أصحاب الإمام أن الخيل قد خرجت من شبام عليهم فانهزموا هزيمة فاضحة ووقع منهم ثلاثةٌ في بئرٍ هناك وولوا الأدبار من غير حربٍ ونزال وكفى الله شرهم من غير مانع. ولما اتضح النهار دعا أولئك الذين في البئر إلى بعض العسكر فاشرف عليهم وسألهم فأخبروه أنهم سقطوا في الليل وأنهم ظنوا أن الثور خيل مدينة شبام، فأخرجوهم منها وتقدموا بهم إلى الأمير الكدخداه وهو في المخيم المذكور فأمر بهم فضربت أعناقهم.

ثم توجه لقتال السيد عامر إلى الطويلة فأحربه، وهزم السيد عامر أقبح هزيمة، ودخل الطويلة وفرّج على المحصورين الذين في الحصن من آل شرف الدين، وكان رئيسهم محمد بن عبد التواب بن الإمام شرف الدين فكساه وآنس من معه من قرابته وأحسن إليهم غاية الإحسان. وتعقب ذلك فتح جبل تيس جميعه، وانتقل الأمير الكدخداه لحصار مُدع وفيه أصحاب الإمام.

وفي هذه السنة وصلت الأخبار من علي باشا الجزائري بخروجه إلى اليمن لمعاونة الوزير حسن، ولما حط الأمير الكدخداه على مُدع وضيق عليهم طلب من فيه التسليم والأمان وخروجهم إلى عند الإمام فأسعدهم إلى ذلك وخرجوا بأجمعهم وعاد الحصن للسلطنة ولله الحمد.

ثم أنه ما برح يفتح بلاد الأمير أحمد بن محمد شيئاً بعد شيءٍ مثل مسور وبلاده وعولي[1] وبلاده وجميع لاعة[2] ثم توجه، أعني الأمير الكدخداه، لفتح عزّان وكحلان تاج الدين.

ثم وجه عبد الرحيم وأغه من الأغوات فحطّا على عفار وحاصراه حتى

---

(١) عُوْلي: بضم العين، جبل في جنوب مدينة حجة.

(٢) لاعَة: بفتحتين. منطقة في جنوب جبل مسور المنتاب.

فُتح، ثم وجه الأمير عبد الرحيم على بلاده ففتحها وحطّ على الظفير[١] وحاصره، وأصاب عبد الرحيم وهو مُحْرِبٌ لأهل الظفير صوبُ بندقٍ في لحيه الأسفل كسر أضراسه وأسنانه وسلمه الله تعالى، وكاد يأخذ الظفير.

ثم أن الأمير الكدخداه سنان انتقل من محطة مُدع إلى بني قُطيل ثم إلى الصرارة[٢] وفتح تلك البلاد، ثم انتقل إلى خمر، وكان يجهز المغازي ويشن على الإمام الغارات.

ودخلت سنة ثمان بعد الألف:

وفيها فتح الأمير الكدخداه بني جيش[٣] واستولى على جميع بلاد السَوْد، ولم يبق مع الإمام إلا السّودة وما قرب منها، فدبّر الحيلة عليها وتقدّم بعسكر ضخم لا يطاق فهزم أصحاب الإمام من محل يقال له النوشين، وهو محل إذا دُخِل دخلت عقيبه السودة، وتبع أصحاب الإمام وقتلوا منهم عدّة وأخذوا مدينة السودة عنوة، وانتهبوها، وأراد الإمام ينحصر في الحصن فزجره الأمير عبدالله بن المعافا وقال له: رُح لك الطريق، فالتفت عليه وقال له: يا فقيه هذا أمرٌ عُقِدَ بليل، ثم نجا بنفسه إلى محل يقال له المحراب[٤] ثم فارقه وعزم منه إلى الأهنوم. ثم أن الأمير الكدخداه رجع إلى محطة خمر ووفد إليه الأمير عبدالله وخلع عليه الخلع النفيسة، وواقفه المواقف الرئيسة، وكان فتح السودة في صفر من السنة المذكورة.

وفي الشهر المذكور قَتَلَ بدو قايفه الأمير أحمد بن الصديق أمير جبلة

---

(١) الظَّفير: بلدة ومركز إداري من مديرية مَبْيَن وأعمال محافظة حجة، تقع في قمة جبل شمال مدينة حجة بمسافة ١٥ كيلاً.

(٢) بنو قُطيل والصرارة: منطقتان في جبل عيال يزيد بالشمال الغربي من مدينة عمران.

(٣) بنو جَيْش: مركزان إداريان: أعلى وأسفل، من مديرية السَوْد وأعمال محافظة عمران، وهما من ديار قبائل حاشد.

(٤) المحراب: قرية في شمال جبل ذرى بالأهنوم، بمديرية وشحة، وأعمال محافظة حجة.

والأمير درمش آغا.

وأما أهل الظفير فنزل بهم من حصار عبد الرحيم البلاء المتاح وعلموا أن عبد الرحيم إذا استولى على الظفير لم يترك منهم مذكوراً ولا مشهور، وكاتبوا إلى حضرة الأمير الكدخداه واشترطوا المواجهة إلى حضرة الأمير فخر الدين عبدالله بن المطهر، فأرسله إلى الظفير ودخل على غير شعور من الأمير عبد الرحيم، وخرج منه مشائخ الظفير وأعيانهم صحبته، وارتفع عنهم عبد الرحيم، ووصلوا إلى مقام الأمير الكدخداه فخلع عليهم على قدر مراتبهم وما برحوا في مقامه إلى أن دخلوا صنعاء في سنة ثمان بعد الألف، ومات أكثرهم في صنعاء وعاد بعضهم إلى الظفير لما جرى الصلح الأول بين الوزير جعفر والإمام القاسم، وفي جمادي الآخرة وجه الوزير حسن صحبة الشيخ صالح بن حُمَيْد عسكراً من العسكر الواصلين من مصر زهاء أربعمائة بنادقية، وجعل صحبتهم أخاه حميد إلى محل يقال له وادي الفروات [1] فلقيهم الشيخ أحمد الأسدي، فقتلوا عن آخرهم وقتل الشيخ حميد معهم.

وحصل مع جملة القبائل بعد هذه الواقعة حركة للخلاف، وسرت كتب الإمام إلى جميع الأطراف. وقد كان السيد عامر بعد أن هزم من جبل تيس ثم لاعة ثم من حجة عاد إلى الحيمة وخرج منها إلى بلاد خولان ثم إلى عند الإمام، فلما بلغه قصة عسكر السلطنة في وادي الفروات تحركت نفسه للحرب، ومصابرة الطعن والضرب، فعاد إلى الحيمة ثم إلى جبل تيس وكاتب جميع بلاد لاعة ومُدع وكُحلان، وكاد يظهر من ذلك عذابٌ وطوفان، ولو لم يمنح الله بالظفر بأسر السيد عامر لكانت فتنة أخرى تعم الأرض سهلاً وجبلاً ونجداً وغوراً، ولما بلغ الأمير احمد بن محمد خروج السيد عامر إلى بلاده خرج بنفسه وقصد الطويلة وحط بها، وهو مهموم القلب، ظاهر الكرب، حليف

(١) وادي الفروات: من وديان بلاد سَنْحَان في جنوب شرق مدينة صنعاء.

الأحزان، نديم الأشجان، لشدّة ما قد قاساه من الفتن المتوالية، والرزايا المتصالية، وحدثني من رآه في تلك الليلة التي خرج فيها إلى الطويلة وهو يدعو ويمرغ خدّه ويبكي ويقول: ما معي للسيد عامر، الذي ما برح يصابحني بالقتال ويماسيني كأني متمسّك بعصم الكوافر.

ولما بلغ السيد عامر خروج الأمير أحمد بن محمد إلى الطويلة جهّز جملة عسكر إلى محل يقال له ردمان [١] وتوجه إلى المحويت، وأقام به يومين، ثم انتقل إلى محل يقال له العدينة[٢] وتزوج به. وكان من جماعة الأمير أحمد بن محمد نقيبٌ قد انقطع في مكان يقال له اللكمة فأرسل الأمير أحمد بن محمد عسكراً صحبة الشيخ عبدالله الرواس ونقيب من النقباء بعسكر ومعهم من عسكر السلطنة لأجل تخليص ذلك النقيب والرتبة الذين معه، فلما قربوا من اللكمة لقيتهم امرأة وقالت لهم: السيد عامر في هذا المحل القريب ليس معه غير جماعة قليلون من أصحابه وقد قال لهُ بعض خواصه لا تبقى في هذا المكان لأني أخشى من عسكر كوكبان والطويلة قريبة منا وقد عرفت أن أحمد بن محمد فيها، فقال: لا نبالي بهم. فلم يشعر بعد ذلك إلاَّ وقد خالطته العسكر ولم يمكنه الهرب فأسروه وجماعةٍ من الذين كانوا معه، وسلم من سلم، ولما صار في يد عسكر الأمير أحمد قنيصاً، لا يجد ملجأً ولا يملك محيصاً، توجهوا به إلى اللكمة، هذا المحل الذي كان مرادهم تخليص من فيه لأنهم خافوا أن يبلغ عسكره في ردمان وهم به في أثناء الطريق فيخلصوه من أيديهم وهم جمٌّ غفير، فلما وصلوا به اللكمة واستوثقوا منه دعوا إلى عسكره الذين في ردمان واشعروهم بأن قد السيد عامر في أيديهم اسيراً، لايجد نصيراً.

فلما تيقنوا ذلك فشلوا وأدبروا فأخذتهم السيوف، ودارت بهم الحتوف،

---

(١) رَدْمان: قرية في غربي مدينة الطويلة من بلاد المحويت، تقع على مقربة من وادي الأهجر الواقع أسفل جبل كوكبان.

(٢) العدينة: من قرى جبل لاعَة بمديرية الطويلة.

وأكثرهم تردا من الشواهق، وكان أكثر من قتل ذلك اليوم من أهل الحيمة بني عمرو. وأرسل الشيخ عبدالله الرّواس إلى الأمير احمد بشيراً، ثم وصلت الرؤوس إلى بين يدي الأمير أحمد أفواجاً. ثم أنه أمر الشيخ عبدالله والنقيب الذي معه والعسكر الذين معهم بالتقدم إليه والسيد عامر صحبتهم، فوصلوا به من يومه إلى الأمير أحمد بن محمد، فلما مثُل بين يديه لامه وعنّفه وقال له: هذا عاقبة من خان، ونكث الأيمان، وعاتبه عتباً طويلاً، ثم أطلعه كوكبان مركباً على جمل وقد جُعلت رؤوس الأعيان من أصحابه بين يديه وكذا الأسرى، ثم طِيف به على ذلك الجمل في حصن كوكبان وهو مكشوف الرأس، ثم أقام يومين ووجه به إلى حضرة الأمير الكدخداه سنان إلى محطة خمر وكان لزمه في النصف من جمادي الآخرة من السنة المذكورة، ولما وصل إلى عند الأمير الكدخداه جعله في خيمة قريبة منه وأمر بالأسرى فضُربت أعناقهم تلك الساعة. وسلخ من أعيان أصحاب السيد عامر اثنان، ثم كتب اليه حسن باشا يأمره بأن يسلخ جلد السيد عامر فامتثل الأمر وأخرجه على جمل مكشوف الرأس، وطيف به جميع المحطة ثم سلخ جلده وأرسل به إلى صنعاء في النصف من رجب ورؤوس المساليخ الذين قد كان سُلخوا قبله، وضعفت بعد ذلك قوّة الإمام، وخبا من فتنته الضرام.

ثم أن الذين في ثلا ضعفت أحوالهم، وظهر إنحلالهم، فكاتبوا الأمير أحمد بن محمد بالتسليم فرفع ذلك إلى الأمير الكدخداه فأجاب بأن التسليم لا يتم إلا بحضوره، فانتقل من محطة خمر إلى ثلا، واجتمع بالأمير أحمد، وخرج السيد الحسن بن شرف الدين الحمزي إلى يده بواسطة الأمير أحمد بن محمد، ثم أرسل به إلي كوكبان على أنه يبقى في داخل الحصن، وتسلم الأمير الكدخداه ثلا، ثم دخل كوكبان وحضر تأهل الأمير محمد بن أحمد بن محمد شمس الدين بابنة الأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن، وكان يوماً عظيم الشأن، ثم عاد إلى خمر، ثم انتقل إلى رجام ذي مرمر، وكان احمد بن يوسف الواعظ لما جرت

عليه الكسيرة في أستاف سقط ناموسه، وعاوده بؤسه، وأهمل الوزير حسن مقامه، وعكس عليه أيامه، حتى آل ذلك إلى القبض عليه، وإطلاعه حصن ذي مرمر مأسوراً، فلما وصل الأمير الكدخداه سنان إلى رجام أرسل أغه وأمره بضرب عنق الواعظ فضربت عنقه في شهر رمضان من السنة المذكورة. ولما استقر الكدخداه في هذا المحل كتب إليه علي باشا أن يطلع إلى خولان من جبل اللوز وهو يأتي عليهم من عاشر [١] وحصل الاتفاق بينهما بذلك فتقدم الأمير الكدخداه وطلع جبل اللوز وعلي باشا تقدم من قبله، ووصل عاشر وفتحت بلاد خولان جميعها، ثم أن الباشا علي رجع إلى محطته، والأمير الكدخداه دخل صنعاء في ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة، وجعل الوزير لولده أعذاراً عظيماً لكنه دون أعذار ولده الحسين.

ثم أن الأمير الكدخداه توجه لإصلاح بلاد الحيمة وإزالة الفساد عنها فضربت خيمته في حصبة باب الشعوب، وعيّد هناك عيد النحر، ثم تقدم إلى جبل الثويرين ثم إلى عرنيب وفتح من الحيمة ربعها الخصيب.

ودخلت سنة تسع بعد الألف:

وقد كان علي باشا توجه بخزائنه وأمواله وجبخاناته وأثقاله لفتح ريمة، وكان معجباً بنفسه وبقوته، فلما أراد التقدم من ذلك المحل الذي حط فيه إلى بني الضُّبيبي [٢] أشار عليه بعض العقلاء وقال له لا يليق النزول إلى هذه البلاد في هذه الساعة، فلم يقبل النصيحة وأزمع على ذلك وقدم العسكر تجاههُ وتأخر في جماعة في تلك العقبة التي نزلها وانفرد وحده، وقد كان تستر من القبائل في خمائل تلك العقبة عدّة، فلما عاينوه منفرداً رموه قرباً فقتلوه وما شعر الذين في أسفل العقبة إلاّ وقد قتل وكأن لم يكن، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء،

---

(١) عاشر: وادٍ في بني سحام من بلاد خولان العالية، بمشارق مدينة صنعاء. وقد يقال له وادي بني بارق.
(٢) بنو الضُّبيبيّ: مركز إداري من مديرية الجَبين في بلاد ريمة، محافظة صنعاء.

وخرجت تلك الجموع إلى جهات وصاب، وكان قتله يوم السبت الثالث والعشرين من شهر صفر المظفر من السنة المذكورة.

ثم انتقل الأمير الكدخداه إلى محل يقال لهُ القوعة، وقد عقد للأمير عبدالله بن المعافا صنجقاً منيفاً وجهّزه لأخذ بلاد الأهنوم وحصر الإمام القاسم، فتوجه إلى الأهنوم واستفتحها وحاصر الإمام في شهارة وقبض الوزير حسن أكثر خزائنه وأمواله، واضمحلت بعد عظمة حاله، وجعل الوزير مجلول باشوتيه لولده الأمير محمد، ووجّه لولاية الحبشة الأمير حسين الذي كان كدخداه له في مصر.

ودخلت سنة العشر بعد الألف:

في صفر منها توفي لطف الله بن المطهر بالسجن بذي قلة بحضرة القسطنطينية، وخلف ولداً على جارية رومية حال رقم هذه الأحرف سنة تسع وعشرين بعد الألف، وهو حي يرزق له مائة محلق من سلطان الإسلام، واسمه محمد لاطفه الله بألطافه الخفية.

وفيها في شهر جمادي الأولى توفي السيد العلامة البليغ المفلق، العارف المحقق، نور حدقة الشرف، ونور روض الأدب الذي يعد وفاته زهر البلاغة ذبل وجف، المبرز في عباراته كل معنى غريب، الموقف شمس البيان وقد جنحت للمغيب، فارس البيان، المجلّي على أهل زمنه في حلبة ذلك الميدان **عز الدين محمد بن عبدالله بن الإمام شرف الدين**، وكان واحد زمنه في النظم والنثر، إن نظم آمن المتنبي ودعا إليه، وإن نثر أسلم الصابي بين يديه، إحتفلت بجمع شعره المتفرق[1] والفتُ شارده المتمزّق، وتعبتُ في تحصيله من أيدي

---

(١) تولى المؤلف جمع شعر محمد بن عبدالله شرف الدين بنوعيه الحكمي وغير المُعرب، وجعل للأول عنوان "الروض المرهوم والدر المنظور" وللثاني عنوان "مبيّتات وموشحات" قال القاضي إسماعيل الأكوع: أن الأول موجود في مكتبة جامعة ليدن وأما الثاني فقد حققه ونشره العالمان إسماعيل بن احمد الجرافي، وعلي بن إسماعيل المؤيد.

الناس، والتمسته من المبعدين غاية الالتماس، فلما بلغه ذلك، ونما إليه ما هنالك، عمل إلى قصيدة طويلة وعرض بذلك عنايتي بشعره وما استحسنته والّفته من فوائده، وكان من جملتها:

دُمت تبني شرف الآ ل فيسمو ويطُولُ
أنت عيسى وهو روحٌ لَضنا الجسم يزيلُ

وكان نظمه يفوق الجواهر المنظومة، ويفعل في العقول فعل الأسحار المرقومة، فمن شعره وقد تزوّج بامرأة كان أبوها من جُند المطهر بن الإمام يقال له دلي مسيح، ولما زُفت إليه شغف بها شغفاً كلياً وأخذت بمجامع قلبه، فقال في ذلك:

غزالةٌ تبعث أنفاسها كل قتيلٍ لرناها ذبيح
وكيف لا تبعث أنفاسها قتلىً هواها وأبوها المسيح

ولهُ فيها:

هُم الترك حُبُّهمُ يتلفُ أما والذي باسمه أحلفُ
جمالهم يسترق النفوس وحسنهم للنُّهى يَشْغُفُ
ولا غرو امّهمُ سارةٌ ولا بدع عمّهمُ يوسفُ

وله من أخرى تزيد على ثمانين بيتاً:

علقتـــها مـــن بنـــي الأتــــراك
شأواً يقصّر عنـــها كـــل مـــن بلغـــا
كأنها حاجبٌ قد لاح مـــن قمـــرٍ
بحلو الدجى كقرن الشــمس إذ بزغـــا

ونظم كفاية الطالب، في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ونظـم المائة الكلمة التي لأمير المؤمنين كرم الله وجهه، وسمّاها سمط الحكمة، ونظـم "نظام الغريب في لغة الأعاريب"[١] وكان سيداً جليلاً، ماجداً نبيلاً، ورعاً تقيـاً، برّاً حفياً، روّح الله روحه في غرف الجنان، وحباه بالرضوان.

وفي هذه المدة والأمير الكدخداه في صنعاء باقٍ ثم خرج منها إلى بـــلاد نهم أصلح ما فسد ثم عاد، ولما اشتد الحصار على الإمام وطال عليه الـــنزال وأحدقت به العساكر من كل وجه خرج منها مدلجا، وأسلم نفسه ونجا.

ودخلت السنة الحادية عشرة بعد الألف:

وفيها خرج أولاد الإمام ومكالفه وعدة من أصحابه إلى يد الأمير أحمد بن محمد، واشترطوا الوقوف في كوكبان، وسلموا شهارة، وذلـك فـي المحـرم الحرام من السنة المذكورة.

وفيها رجعت المحاط إلى صنعاء وبقيت في محطة خمر عينة وجند.

وفيها اقترن الثقيلان زحل والمريخ في برج القوس، وهو القرن الرابـــع

(١) للعلامة عيسى بن إبراهيم بن عبدالله الرَّبعي الوحاظي الحميري كما ذكر له الأستاذ عبـــد الســـلام الوجيه مجموعة أخرى من الأشعار.. أنظر: اعلام المؤلفين الزيدية، ص٩٢٤.

في المثلثة النارية.

ودخلت السنة الثانية عشرة بعد الألف:

في رجب منها توفى سلطان الإسلام، ظل الله على الأنام، مزلزل أهل الشرك والإلحاد، محمد بن مراد، رحمه الله تعالى، وخلفه في التخت نسله الكريم الأوحد أحمد بن محمد.

وفيها وصل من علي باشا الوزير الأعظم من مصر رسول يقال له أرْسلان، وذلك في شهر شوال، فوصل بمرسوم كريم استدعى الوزير حسن من البلاد اليمنية، فأجاب ذلك الدعاء، وسمع المقال ووعى، وما برح يجهز أثقاله ويخفف أحماله.

ودخلت السنة الثالثة عشرة بعد الألف:

وفيها مد جناحه للسفر، ونبه أصحابه بالاستعداد وأمر، وجمع الناس في يوم السبت الخامس عشر من المحرم إلى ديوان السلطان، وجعل على اليمن الأمين المؤتمن السيف المسلول، والأسد الذي على الأعداء يصول ويجول، سنان باشا، وخلع عليه خلع الباشوية، وركب إلى بيته في موكب أشرقت أنواره البهية.

وفي يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر المذكور توجه الوزير للمسير وشيعه سنان باشا، وكانت طريقه في بلاد الأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين، لقيه إلى محل قرب كوكبان يقال له الأهجر[1] ثم شيّعه وسايره إلى المحويت، وودعه وعاد، وتوجه الوزير حسن إلى بيت الفقيه ثم إلى مكة

(١) الأهجر: بفتح الهمزة وكسر الجيم، منطقة تحت جبل كوكبان من جهة الجنوب، تبعد عن صنعاء غرباً بمسافة ٤٥ كيلاً. وهي في وسط واد تُحيطه الجبال من جميع الجهات، وتتناثر القرى في هذه الجوانب. ومنه تمر الطريق الأسفلتية الذاهبة إلى المحويت.

المشرفة، ودخلها في نصف ربيع الآخر من السنة المذكورة.

وفي ربيع الأول ظهر نجمٌ في الغرب في برج القوس من التيازك في جرم المشتري أقام مقدار أربعين يوماً ثم غاب، وكان حادثه ما سنذكره من الفتن والانضراب.

وفيها وجه الباشا سنان [١] كدخداتهُ ذا الفقار إلى بلاد الحيمة واجتمع بالأمير احمد بن محمد، وفتحت الحيمة جميعها، واستباحوا ديارهم وذراريهم، ولولا الأمير أحمد منع في حق حرمهم لكان الأمر في حقهم عجيب.

وفيها وجه الباشا سنان الأمير درويش لحرب الحدا فأذعنوا بالطاعة وواجه رئيسهم علي بن فلاح.

وفيها فتح الباشا سنان حصن مسار [٢] بعد طول الحصار وشدة القتل والقتال، وذهاب الأرواح واخترام الآجال.

وفي الحادي عشر من شهر شوال توفي الأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين وقام بعده ولده الأمير محمد بن أحمد بن محمد، في وقتٍ منحوس، وطالع معكوس، لم ينظر في ولايته يوماً بالسعد شارقاً، ولا لواءاً بالنصر خافقاً، وما برح في حربٍ وفتن، حتى حواه الكفن.

وفي ذي الحجة الحرام عقد الباشا سنان لواءاً شريفاً لإسماعيل بن احمد بن محمد وأرسل به إلى عند أخيه محمد بن أحمد.

وفي هذا الشهر المذكور توفي الأمير مطهر بن الشويع وخرج في جنازته الباشا سنان.

---

(١) سنان باشا: والٍ عثماني، تولى من ٢٨ رجب سنة ١٠١٣هـ إلى سنة ١٠١٦هـ.

(٢) حصن مَسَار: جبلٌ عالٍ شامخ من جبال مديرية مناخة في حراز. يُعدّ أعلى جبال حراز ومن معاقلها الحصينة، وقمته واسعة فسيحة تشتمل على مزارع وقرى وحصون عديدة.

ودخلت السنة الرابعة عشرة بعد الألف:

وفيها كاتب عبد الرحيم الإمام القاسم، وهو في برط نازح الديار، بعيد المزار، وشكى عليه أموراً جرت وخاف عواقبها وأن مراده القيام بنصرته، والنهوض بدعوته، وأنه تائبٌ من حربه، معترف بذنبه، فأجابه على شروط قرّرها، وقواعد حررها، وقد كان الباشا سنان جهز الأمير عبدالله بن المعافا إلى الظاهر في جيش وزينة، وعدة مكينة، ومن جملة من انضم إليه عسكر من أصحاب عبد الرحيم عليهم رئيسٌ من نقبائه.

وفيها في الليل المسفرة عن يوم الثلاثاء في الثلث الأخير سادس وعشرين جمادي الآخرة، حدث انتثار في النجوم وذلك من مغارب بنات نعشٍ الكبرى إلى جهة المغرب الشمالية حتى أضاءت الأرض لوقوعها واضطربت النجوم اضطراباً شديداً يرتاب له من رآه، ولم تزل في تناثر ساعةً زمنية، وكان بعد ذلك ظهور فتنة عبد الرحيم وثورانها واشتعال نار القتال وإهراق الدماء، وتوجهت العساكر السلطانية إلى جهة المغرب كما قررناه وذكرناه.

وظهر بعد ذلك نجمان من ذوات الأذناب، واحد في برج الأسد والآخر في برج السرطان، وقد جرى مثل ذلك في سنة تسعٍ وستين انتثار الكواكب في مصر وعمت الجوّ بأسره وارتاع الناس لها، ولم تزل أكثر من أربع ساعات، ولم يمض من ذلك جزء يسيرٌ من السنة حتى ظمئ الناس وبلغ نيْلُ مصر ثلاثة عشر ذراعاً واضطرب الناس بمصر اضطراباً شديداً زالت به دولة الطولونيين بمصر، وهذه النيازك من أخبث الكواكب وانحسها إلاَّ أنها إذا ظهرت في عاشر مولود بلغ في الملك أعلى المراتب، وخضع لبأسه الجموع والكتائب، فسبحان المتصرّف في المخلوقات، رفيع الدرجات. ولما اضمر عبد الرحيم ذلك المراد، كاتب جميع البلاد، وأعظم من هيّجه على الفتنة، وإثارة

المحنة، الشيخ ناصر البهيلة صاحب حقل[1] فإنه كان منحرفاً عن الباشا سنان، يسري في مناهج الفساد مثل الشيطان، فرفع إلى مسامع عبد الرحيم أموراً مقلقة، وأخباراً مؤرقة، وأوحشه من جانب الباشا سنان، وكان الباشا منزّهاً عن تلك الأقاويل، بعيداً عما رواه الخصم من الأقاويل، ولما استجمع أمر عبد الرحيم وتم، وصمم على الخلاف وأبرم، وجه جماعة من عسكره إلى حصن جرع[2] وهو خرابٌ فحفظوه، لعلمه إن ملك جرع وإن كان ضعيفاً مفرداً فقد ملك عفار والبلاد المغربية، ودانت له فيها الآفاق القصية، وتعذّر على الدولة منعه وقهره ودفعه.

ووجه إلى خيرة السود جماعة من أصحابه، وعليهم رئيس، ثم وجه إلى بلاد الأمير محمد بن أحمد أخاه أحمد. ثم جهز إلى بلاد السودة والأهنوم أخاه المطهر، ولما تيقن الباشا سنان خلافه وعصيانه لم يهتم به كل الاهتمام، وكان من كلامه أنه قال: ما غيّر عبدالرحيم إلاّ على نفسه ولا أزال إلاّ نعمتيه، وسوف أملأها عليه خيلاً ورجلاً، ولأوسع أصحابه أسراً وقتلاً، فوجه عليه العساكر والجنود صحبة الأمير ذي الفقار إلى صرحة جُرَع، ووجّه الأمير درويش إلى جهة السود ومقاتلة أصحابه الذين في الخيرة.

وخالفت بعد ذلك الحيمة وانضربت البلاد، وكان من خبر أخيه المطهر أنه لما وصل الأهنوم، واجهوه عن آخرهم، وحصر الأمير إبراهيم بن عبدالله بن المعافا. ثم حاصر المطهر السودة، ثم خرج الأمير محمد بن أحمد من محروس كوكبان بعد أن صح الخلاف من الأمير عبد الرحيم، وذلك في شهر رجب من السنة المذكورة، وأمدّه الباشا سنان بعسكر وزيادة، وقد كان قبل أن يخرج من كوكبان قدم عسكراً صحبة عبد من عبيده يقال له النقيب سنبل،

---

(١) حقل: من قرى مركز "بلاد جنب" بمديرية السود وأعمال محافظة عمران.

(٢) جُرَع: بضم ففتح، بلدة وحصن في بني مَوْهِب من مديرية كُحْلان عفّار وأعمال محافظة حجة.

فاستقر في جميمة بني الذواد[١] وقد كان واجه عبد الرحيم من بلاد الأمير محمد بن أحمد نجره. ولما استقر الأمير محمد بن أحمد في الطويلة خالفت عليه الشاحذية لقربها من الجيمة. ثم أن عبد الرحيم أرسل شرذمة قليلة من أصحابه وانضم اليهم جماعة من القبائل وقربوا من النقيب سنبل المذكور وهو في الجميمة بعسكر الأمير محمد ومعه الزيادة التي وصلت من حضرة الباشا سنان، فجرى بين عسكر عبد الرحيم وأصحاب الأمير محمد مخاطبة طالت وآلت إلى خروجهم إلى يد أصحاب عبد الرحيم وهم في عدة جميلة زاهية، وبنادق جميعها محليّة، وأسيافهم كذلك. ولو ثبتهم الله ومالوا على أصحاب عبد الرحيم والقبائل ميلة واحدة لتركوهم جُزراً للطيور، وحشواً للقبور، لكن ألقى الله عليهم القلة والذلة، فلما وصلوا إلى عند عبدالرحيم وقد برز لهم وجعل عسكره ديواناً، فلما مثلوا بين يديه، وأبصر ما هم عليه، من كمال العدّة والزينة والكثرة، علم أنهم في حيّز الادبار وأن الله قد فتح عليه بفتح عظيم، فقبض سلاحهم المصون، وفرقهم في الحصون، وعادوا بصفقة المغبون، واستولى بعد ذلك على جميع بلاد لاعة وقراضة[٢]، ولم يبق في يد الأمير محمد بن أحمد غير جبل تيس، وأمدّه عقيب ذلك الباشا سنان بالأموال والرجال، وامتدت الحربُ بين عبدالرحيم والأمير محمد، وحاصل الأمر أن الحرب قامت بين عبد الرحيم والسلطنة في جميع البلاد، واشتد الجلاد.

ودخلت السنة الخامسة عشرة بعد الألف:

وفيها في آخر يوم من ربيع الآخر توفى الأمير محمد بن أحمد بن محمد في الطويلة وحمل على النعش إلى كوكبان، وتولى بعده أخوه إسماعيل بن أحمد، وكان عليلاً من علة طال لبثها، وقام بأموره الباشا سنان وراعى حقه

(١) جميمة بني الذواد: قرية في بني العَوَّام بجنوب مدينة حجة. وهي في هضبة غرب جبل مَسْوَر المُنتاب.

(٢) قراضة: بلدة في جبل مَسْوَر المنتاب.

وعضده، ونصره وأمدّه. ثم خالف بعد ذلك جبل تيس جميعه إلى عبدالرحيم ووجّه إليه عيّنة من أصحابه، وجعل إسماعيل بن أحمد في الطويلة، بإشارة الباشا سنان، صلاح بن المطهر بن صلاح بن شمس الدين، فأحسَّ منه اسماعيل الخلاف وأن مراده الاستبداد بالأمر دونه، فرفع ذلك الخبر إلى حضرة الباشا سنان، وكان الباشا سنان في ضبط الأمور واحد الزمان، فأرسل الأمير عبدالله بن المطهر إلى الطويلة وجعله سردار عسكر السلطنة الذين هم في الطويلة من وقت الأمير محمد، وذلك في شهر رجب الأصب من السنة المذكورة، فاطلع الأمير عبدالله بن المطهر على أمورٍ كانت تحدث من صلاح بن المطهر تدل على أن مراده المكر به وبعسكر السلطنة فاجتمع به في مقامه وحذّره وانذره، فأنكر وحلف، وعاد إلى مقامه وهو في أثناء ذلك يعمل الحيلة، ويكاتب كل قبيلة، من بلاد الأمير اسماعيل، وكلهم قد مال إليه، وكثر عليه في ذلك الكلام وشاع ما أجنه من الوثوب على الأمير عبدالله وذاع، لأنه قد استكفى في رأيه غير الكفاة، ووثق بجماعة من الاسفاه، لا يكتمون سراً، ولا يحجبون أمراً:

شعر:

تهدي الأمور بأهل الرأي ما صلحت

فإن تولت فبالأشرار تنقادُ

ثم أن الباشا سنان أرسل آغه بزيادة إلى الأمير عبدالله بجماعة من العسكر، وكثرت وحشة صلاح من ذلك وما برح يدبّر الحيلة في الوثوب على الأمير عبدالله ومن معه، وقد أشعر جملة عسكر كوكبان الذين معه وهو عليهم سرداراً بمراده، وقد كان صاروا إليه وحلفوا له ومال إليه أيضاً جماعة من عسكر السلطنة العرب، وكتب إلى جميع القبائل القريبة من حصن الطويلة

وإلى ابن الحماطي[1] وإلى أصحاب عبد الرحيم الذين في جبل تيس، وقد كانوا قريباً منه فانكشف خفي أسراره، وغرب هلاله في سراره، وأراد القيام في الليل، وذلك في ثالث شهر رمضان، ففطن الأمير عبدالله بمقصده واستيقظ لمراده وجمع العسكر وتهيّأ للقتال وأمر بأن كل من وجد عسكرياً من أهل كوكبان أو فارساً أتوه به، فأتوه بأكثرهم، وأخذ عليهم العهود للأمير إسماعيل، وآل الأمر إلى أن أرسل إلى صلاح، وقد كان قبض أحد خواصه الذين كان يصدر عن رأيهم، فلما بلغ صلاح القبض على صديقه سقط في يده، وطلب من الأمير عبدالله الوصول إليه فسار إليه في جماعة من الباشلية ودخل الدار التي هو فيها وقبض عليه وأخرجه ولامه وقرّعه ووبخّه، وكتب إلى حضرة الباشا سنان بما جرى، ثم أن صلاح بن المطهر طلب من الأمير عبدالله العود إلى داره ليفتقد بعض أموره، لأن الأمير عبدالله بن المطهر رجح طلوعه إلى كوكبان، وأن يجعل عوضه على أهل كوكبان الهادي بن الحسين بن شمس الدين، فأجابه للعود إلى داره. وقد كان الأمير عبدالله لما خرج صلاح معه من الدار جعل فيها مقدار ستين نفراً من الباشليّة، أهل الشجاعة والإقدام، وعاد صلاح إلى داره، فلما استقر فيها وسمع غارة القبائل قد اقبلت من كل حدب ينسلون طمع بالظفر وأغلق المكان الذي كان فيه وأشرف على الناس واستغاث بأهل كوكبان فلما سمعوا صوته خرجوا من أماكنهم وحزبوا بالخيل والسلاح، وظهر الكفاح، ورمت بنادقهم وقتلوا من اصحاب السلطنة اثنين أو ثلاثة، وقتل بين يدي الأمير عبدالله بن المطهر ذلك الحين زين العابدين بن محمد بن الهادي بن المطهر، رُمِيَ ببندقٍ من تحت الحصن فهلك ذلك الوقت، فلما عرفت الرتبة التي في الدار من الباشلية كسروا عليه الباب ودخلوا فأخذ سيفه وضرب شخصاً منهم يقال له عثمان آغا في وجهه، ثم أنهم رموه بالبنادق قرباً

(١) ابن الحماطي: من مشائخ الحيمة الخارجية.

فسلم وقفز من طاقة الدار إلى تحتها وهو غير بعيد، وسمعت القبائل الحرب في الطويلة، فأقبلوا من كل فجّ عميق، ومحل سحيق، وثارت الفتنة، وقد كان الباشا سنان لما بلغه خلاف صلاح وجّه إلى ذي الفقار إلى جُرَع بأنه يصل بعينة العسكر وبجيش الأمير عبدالله إلى الطويلة، فما وصل ذو الفقار إلا وقد جرى من صلاح ما جرى. ولما ألقى نفسه من الطاقة وصل إلى الأرض حياً سويّاً، وأمر الأمير عبدالله بضرب عنقه فضربت، وحمل رأسه إلى بين يدي الأمير عبدالله بن المطهر، ومع ذلك والقيامة قد قامت، والقبائل في الحدود المقاربة للطويلة كالجراد الناشرة، وجرى بين الأمير ذي الفقار وأهل كوكبان ما بين الطويلة والمحل الذي هو فيه قتال آل الأمر فيه إلى انهزام عسكر كوكبان وتفرقوا أيدي سبأ، ودخل الأمير ذو الفقار الطويلة، واجتمع بالأمير عبدالله ومعه الهادي بن الحسين، وقُتل من عسكر السلطنة الأروام في ذلك اليوم زهاء ثلاثين نفراً.

ثم تقدم الأمير ذو الفقار وفتح جبل تيس وانهزم ابن الحماطي وأصحاب عبد الرحيم، ولام عبدالرحيم قائد عسكره في تأخير الغارة على صلاح بن المطهر حتى حدث فيه ما حدث، وصادره بأموال وتعقب ذلك أن أمر به فضربت عنقه.

ثم توجه الأمير ذو الفقار والهادي بن الحسين صحبته وفتح بلاد مسور وجعل فيها الأمير أحمد الأخرم حافظاً وعاد إلى جرع.

وفي آخر شعبان اقترن المشتري والمريخ في برج الدلو حتى أن المريخ أكسف المشتري وصارا كالنجم الواحد. وكان حادث هذا القران ما ذكرناه من الفتن في الطويلة وهيجان الحروب فيها لأن طالعها برج الدلو، فسبحان المتصرف في الكون والكائنات.

وفي هذه الأيام والسودة في حصار ضيق خناقها، وقطع أرزاقها، وأما شهارة فقرب تسليمها وفيها الأمير إبراهيم بن الأمير عبدالله بن يحيى بن

المعافا، فاشترط أنه لا يخرج إلاّ إلى يد الإمام القاسم، فتقدم الإمام القاسم إلى وادعه، وخرج إليه وجملة العسكر، وأمنهم على نفوسهم وقبض بنادقهم وسلاحهم واستحلفهم أن لا عادوا إلى حربه مع احد من أهل الأمر، فحلفوا له.

ولما بلغ عبد الرحيم تسليم شهارة إلى يد الإمام وقبض سلاح العسكر اشتد غيظه على أخيه المطهر وعزله عن البلاد ووجه إليها آخر، وكان في عمله هذا تدميره وانحلال قوته، فلما تيقن المطهر عزله رفع المراتب الحافظين لطريق السودة الذين كانوا مقابلين لعبد الله بن المعافا، فلما خلت له المناهج، وكان مقيماً في الصرارة[1]، يعاني أفكاره، وينتظر من أمر الله الغارة، فأتاه الفرجُ من حيث لا يحتسب وتقدم إلى السودة سِلْماً بغير قتال عاناه، ولا نزالٍ ناداه، ولما فعل المطهر بن عبد الرحمن مع أخيه هذه الفعلة جانبه واستوحش منه وتردّد في بلاد الإمام، ثم إن عساكر السلطنة توجهت على أصحاب عبد الرحيم المقابلين للأمير الذي في العِصَار في بلاد عفار من جهة السُودة، وكانت طريقهم من محل يقال له ماجل تهامة، فلما عرف أصحاب عبدالرحيم أن عسكر السلطنة قد خلَّفوهم انهزموا من جرع، وكان جماعة من أصحاب عبدالرحيم في شبعار عفار، فلما انهزم الذين في جُرع حصر الذين في شبعار عفار وأغار عليهم عبد الرحيم بنفسه فلم تنجح غارته وعاد خائباً وخرج المحصورون إلى يد عساكر السلطنة وأمّنهم الباشا سنان على أنفسهم، وكان بذلك ضعف عبد الرحيم.

وفيها قتَلَ السلطانُ درويش باشا الوزير الأعظم، وتولى بعده الوزير الباشا مراد، وبلغه الله في مناصب الرئاسة كل ما أراد، وذلك ببركات حسن نيّته، وصلاح طويّته، رفع الله في الجنة جنابه، وأجزل ثوابه.

---

[1] الصّرارة: قرية في جبل عِيَال يزيد، بالشمال الغربي من مدينة عمران. تقع على مقربة من قرية الأبرق.

ودخلت السنة السادسة عشرة بعد الألف:

وفيها وصلت خلع الوزارة لسنان.

وفيها بلغ سنان ولاية جعفر باشا اليمن، وقد كان الأمير ذو الفقار توجه إلى مسور لفتح بلاد عبد الرحيم واسترجاع ما تبقى من بلاد الأمير اسماعيل، فلما بلغه خبر جعفر باشا أرسل للأمير ذي الفقار بجماعته من الباشلية فوصلوا إلى صنعاء.

وفي ربيع الآخر منها قَتَل الوزير سنان الأمير حسين دفتردار، فضرب عنقه في باب ديوان القصر.

وفيها وصل متسلّم جعفر باشا من طريق كوكبان، ولم يظهر أنه متسلم وتأدب في حق الوزير سنان أدباً رفعه إلى أعلى رتبة وحظي لديه، وأجزل له من العطايا ملء يديه.

وفي جمادي الأولى وصل جعفر باشا إلى تعز، وتحرك الوزير سنان للمسير من محطة حزيمة، وقوّض عنها الوطاق والخيمة، وذلك في يوم الأحد ثالث وعشرين شهر جمادي الآخرة من السنة، وأجزل في طريقه الجوائز والهبات، ورحل في ناموسٍ وزينة بلغت من المجد الغايات. ولما قرب من تعز لم يحصل بينه وبين الباشا جعفر اتصال، إلا بالمراسلة والمقال.

وفي السادس عشر من رجب توفي الوزير حسن، حاكم اليمن، بحضرة القسطنطينية، ثم توجّه سنان باشا إلى بندر المخاء وقد شرع فيه الألم، وتمكن من جسده السقم، فلما كانت الليلة المسفرة عن ثالث شعبان من السنة المذكورة دعاه الحي القيوم، فانقرض أجله المحتوم، ولما خرجت جنازته، وشاهدت العسكر عمامته، صرخوا بأجمعهم صرخة أحرقت القلوب، وأثارت الكروب، وخرج إلى قبره كأنه مزفوف، تحته تلك الجموع والصفوف، فسبحان المنفرد بالسلطان الذي لا تغيره الأزمان، وقُبر عند الشاذلي ونزل من الثريا إلى الثرى، وأجنّ القبر منه بدر دجنةٍ وليث شرا. رحمه الله واسقى بغيث الرحمة ثراه.

ولما بلغ الوزير جعفر وفاة الوزير سنان وجّه لخزائنه وما خلفه الأمير عمر الكدخداه، فوصل إلى المخاء وفعل ما أمر به الوزير جعفر، وطلع صحبته الأمير الخطير محمد بن الوزير سنان والأمير ذو الفقار والعسكر الذي قد كان أراد الوزير سنان مسيرهم معه إلى الحضرة، ووصلوا إلى مقام الوزير جعفر إلى تعز. ولما توفى الوزير سنان وصل من عبد الرحيم رسول إلى الحوض الأشرف إلى الوزير جعفر يخبره أن مراده الصلح وإن ما كلفه على الخلاف إلاَّ أمور جرت من الوزير سنان سمع فيها قول المعادي، فأظهر الوزير جعفر الفرح، وأمر بالرمي بالزبرطانات والسمرات في تعز.

وفي خلال ذلك وجه عبد الرحيم أخاه أحمد فطلع حصن مسور، وتوجه شرذمة من العسكر نهبوا خيل الأمير اسماعيل على الرتبة التي في بيت عذاقة، وبلغ الوزير جعفر الخبر فحصل معه شغل بال وفطن إنما مراد عبد الرحيم إلاَّ المخادعة لا الموادعة، واضمر ذلك في نفسه ثم تقدم إلى صنعاء، ولما وصل إلى ذي أشرق[1] أمر بالركوب للسفر مع الفجر، فلما اتضح الصباح طلب الأمراء وقد حزمت العساكر للرحيل، فلما مثلوا بين يديه طلب الأمير ذا الفقار وناقده وأمر بضرب عنقه فضربت تلك الساعة، وركب وهو مُلقى في الأرض. وكان السبب أن بعض أعادي الأمير ذي الفقار رفع إلى مسامع الوزير جعفر ما غير قلبه، وأثار كربه، وكثر في الإرجاف من قبله، وحرّض في تدميره وقتله، فكان من أمره ما كان. ثم تقدم إلى صنعاء فدخلها في يوم الاثنين خامس عشر شهر شوال، ولما استقر في القصر وجه إلى الأمير عبدالرحيم بواسطة الأمير محمد السردار فقيهاً يمنياً كان كاتباً للأمير محمد فلما وصل مقامه، وكان مقيماً في حصن كوكبان المشهَّر، استقبله بالعساكر وأظهر المسرّة بوصوله وخلع عليه ثم طلبه وسأله عن خبره فأخبره

(١) ذي أشرق: قرية كبيرة أعلى وادي نَخْلان، بمديرية السياني، وأعمال محافظة إب. تقع على مقربة من مدينة ذي جِبْلَة.

أن سبب مجيئه لأجل الصلح والدخول في طاعة سلطان الإسلام وغمد سيف الفتنة، واجتناب المحنة، وأغلظ له في القول فغضب غضباً أخرجه عن دائرة العقل وركب على بغلةٍ وركب معه وسار به إلى حورة فصلبه في شجرتها، فلما بلغ خبر قتل الفقيه الوزير جعفر استشاط غيظاً، وفاض قلبه بالغضب فيضاً، وعقد ما بينه وبين الإمام صلحاً.

ودخلت السنة السابعة عشرة بعد الألف:

وفيها مات علي يحيى بن المطهر بذي قلة في السجن بحضرة القسطنطينية، وهو آخر من مات من أولاد المطهر الذين أدخلهم الوزير حسن باشا في السجن.

وفيها استصرخ الوزير جعفر الأجناد، وحثهم على الجهاد، وجهَّز الكفاة والأمجاد، وجعل سردارهم، ومركز مدارهم، الأمير عمر الكدخداه، وكانت طريقه بلاد الأمير اسماعيل وجهات مسور، وكان الأمير أحمد الأخرم بعد أن أخذ عبد الرحيم حصن مسور جلس بمن معه في طرف الحصن، والأمير أحمد بن عبد الرحمن في طرف، وكل واحد حافظ لنفسه من الآخر، وكان مدّة وقوفهما في هذا المكان سبعة أشهر.

وفيها توفى الأمير اسماعيل بن أحمد بن محمد بن شمس الدين [1] في يوم السبت سابع وعشرين من شهر ربيع الآخر، وفي وقت موته ثار محمد بن الإمام القاسم ورام أخذ كوكبان، فكثر عليه عبيد الأمير اسماعيل وعسكره

---

(١) إسماعيل بن أحمد بن محمد بن شمس الدين: أمير كوكبان بعد أخيه محمد بن أحمد، الذي تولى هو الآخر بعد وفاة والدهما. وقد التزم ثلاثتهم سياسة موالاة الدولة العثمانية. وبعد وفاة اسماعيل تولى إمارة كوكبان: علي بن شمس الدين بن شرف الدين، وقد شهد عهده – كما يحكي المؤلف – صراعاً عنيفاً مع الإمام المؤيد محمد بن القاسم ومع أخويه الحسن والحسين ابني القاسم القائدين لأخيهما لمنازلة علي بن شمس الدين وأعوانه، حتى استسلم وخضع لهما واتفقوا على محاربة العثمانيين في رجب سنة ١٠١٣هـ.

وبعض أهله، فأسروه، وكاد أن يقتل، وسلّمه الله، وخلف الأمير إسماعيل في كوكبان عمّ أبيه الأمير علي بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين، واتسقت له الأمور وصلحت له الأحوال، وكان موته وقد الأمير عمر في ماذن[١] وعبد الرحيم مشرف على الحصار، وعقد الوزير جعفر على الأمير علي بن شمس الدين صنجقاً منيفاً. ولما وصل الأمير عمر الكدخداه بيت عذاقه[٢] أحرب على قلعة المسقو وجرت بينه وبين عسكر عبد الرحيم حروبٌ شديدة، ودفعات عديدة، آل الأمر فيها إلى انكشاف أصحاب عبد الرحيم، فلما بلغ الأمير أحمد خبرهم، وهو في رأس مَسْوَر في مقابلة الأمير أحمد الأخرم، أمر بشد خزائنه وخيامه وتوجه راجعاً من طريق ما يظن أحدٌ أنها تسلك، وكتب إليه أخوه بالوقوف في جبل وعيلة[٣]. وقد كان الأمير عبدالله بن المطهر بعد وقعة صلاح بن المطهر في الطويلة جهّزه الوزير سنان إلى الظفير فحطّ قريباً منه، وقابل فيه عبد الرحيم، ثم أن عساكر السلطنة طلعت جبل وعيلة وانفتحت عليه الحروب من كل جانب، وتفجّرت آفاق بلاده نحوه بالكتائب، وفارق بعد ذلك كوكبان المشهّر، ثم تبعته العساكر السلطانية ودخلوا حَوْرة واستولوا على تلك الحوزة نجدها وغورها، ولم يبق في يد عبد الرحيم غير الذنوب[٤] وحصن كوكبان حجة[٥] ومبين[٦]. وخيّم الأمير عمر في محلٍ يقال له ماذن، وجرّ المدفع عليه ورماه به في أكثر الأوقات، وأصبح عليه القتال وبات. وكان من

(١) مَاذن: مخلاف قديم من مخاليف اليمن القديمة كان يشمل: " وادي ظهر" و"ريعان" و"ضُلع همدان".

(٢) بيتَ عِذَاقة: قرية كبيرة من مركز عيال مومر، بمديرية مَسْوَر المنتاب. وهي عاصمة المديرية.

(٣) جبل وعيله: لعله جبل عولى في جنوب حجة.

(٤) الذّنوب: قرية في أعلى جبل ثامر، بمديرية عاصمة المحويت.

(٥) كوكبان حجة: بلدة في جبل قُدم، بالجنوب من مدينة حجة. كما أنه في الجهة الشمالية الغربية من جبل مسور.

(٦) مَبْيَن: بفتح فسكر ففتح، مديرية في شمال غرب مدينة حجة، تبعد عن عاصمة المحافظة بنحو عشرة أكيال.

الإدبار الذي استحكم على عبد الرحيم أنه في ذلك الحال جمع الجَبَر[١] وجعلهم رتبة في حصن كوكبان حجة، وغفل عن حنة صدورهم، التي تمكنت من شغاف قلوبهم، فاته في الفتنة الأولة ملأ منهم اللحود، وسقى من دمائهم الحداد والحدود، فما شعر وهو في الذنوب إلاَّ وقد أعلنوا باسم السلطان، وأظهروا الميل والعصيان، فسقط في يده، وثار في قلبه كمد وجده، وأيقن بالزوال، وركب في الحال، وأنشد منه لسان الحال:

أيا منزل الأُنس الذي طاب أُنسه
رحلنا وفارقناك غير ذميم
فإن تكن الأيام فرّقن بيننا
فما أُجدّ من ريبها بسليم

ثم يمم بلاد الشرف وجعل في حصن مبين أخاه أحمد. ولما وصل الشرف وفيه أخوه الأمير محمد رآه وقد تنكر له ولبس جلد النمر فراقبه وعلم أن ما لهُ عليه في ذلك الوقت سلطان، ورام الفرار إلى الهيجة فلم يطمئن قلبه وخاف عواقب عيب القبائل، فتوجّه إلى حصن كحلان الشرف وتبعه الأمير محمد السردار بعسكرٍ جرّار، وفتح بلاد الشرف سلماً، وواجهه الأمير محمد بن عبد الرحمن وعلى يده كان أخذ صنجقه، وحاصر الأمير محمد السردار عبد الرحيم ومنع منه الداخل، وحسم مادة المواصل.

(١) الجَبَر: بفتح الجيم والباء، مركز إداري من مديرية مُبَيَّن.

ودخلت السنة الثامنة عشرة بعد الألف:

وفيها واجه الأمير أحمد بن عبد الرحمن الأمير عمر الكدخداه، وذلك لما بلغه مواجهة أخيه محمد وحصر صنوه عبد الرحيم، كاتب الأمير عمر وسلم إليه مبين وجميع ما فيه من الخزانة والجبخانة، والآلات والعدد، وخرج إلى يده واجتمع بأخيه محمد، وطلعوا جميعاً إلى حضرة الوزير جعفر، ودخلوا صنعاء في شهر صفر من السنة المذكورة، ولما علم عبد الرحيم بتسليم مبين وطلوع أخوته إلى حضرة الوزير جعفر جنح إلى الدخول في طاعة السلطنة والخروج بذاته إلى يد الأمير محمد السردار وجعل له أماناً ومرسوماً من حضرة الوزير جعفر ثم طلع صحبته، ولما قرب من صنعاء اختار الوزير جعفر للقاه الأمير عبدالله بن يحيى المعافا لما بينهما من العداوة[1] في زي عظيم وجمعٍ وسيم، فلما وقعت عين عبد الرحيم عليه تغير لونه، وعلم أن الشرَّ واقع به، وفهم انما أمر الوزير جعفر الأمير عبدالله بن المعافا يستقبله إلا لأجل الشماته به، ودخل صنعاء دخلة اجتمعت العوالم لرؤيته، وقد كان الوزير جعفر برز له في ديوان السلطان، ولما مَثُلَ بين يديه جعل له كرسياً وأوقفه عليه، وعاتبه، وأمر به إلى الدار الحمراء وناله من الأمير عمر الكدخداه بعض إهانة، فتعب منها جنانه، وثارت أشجانه، وكان دخوله حبسه يوم الأحد سادس شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة.

وفي يوم الخميس ثامن الشهر المذكور سقط الأمير عمر الكدخداه من فوق حصانه فحملوه وبه رمق وفارق الحياة، ولقي مولاه، وجعل الوزير له كدخداه صفر آغا، وكان رجُلاً مباركاً، سالكاً كثير التلاوة، لا يكاد يقوم بأعباء الأمور، وعزلهُ بالأمير عبدالله شلبي.

وفي أثناء حصار عبد الرحيم وجه الوزير جعفر الأمير عبدالله شلبي لفتح

---

(١) زيادة في النسخة "ب"

بلاد ريمة ودنوه، وكان دفتردار، فوصل إليها وفتح أقطارها، وأدنى مزارها.

وفي النصف من ربيع الآخرة وقع في القمر خسوفٌ عمّ جرمه وأذهب رسمه، وذلك في برج الجدي، وكانت هذه السنة سنة قحط وغلاء وموت.

وفيها وصل الأمير أحمد الشرعبي[١] تحت الحفظ، وكان الوزير جعفر قد رفع شأنه ونوّه باسمه وعقد عليه لواءاً كريماً، فكفر تلك النعمة وكاد أن يظهر العصيان بعدم دفع الأموال التي عليه وتشاغله عن الغارة في وقت حروب عبد الرحيم، فأرسل الوزير جعفر الأمير محمد السردار إلى بلاده وصاح بالعسكر الذي كانوا في بلاد الشرعبي ففارقوه وتركوه مفرداً، فأراد الفرار ومر على القاعدة [٢] ومن قلة عقله وضعفه، والدلالة على سخفه، أنه لما وصل إلى العماقي[٣] أرسل لبيطار من تعز فعرف أحمد آغا الشريف بمكانه فخرج بجماعته وقبض عليه وأرسل إلى الوزير جعفر بإنهاء الخبر بذلك، فوجه اسماعيل آغا وأمره بإطلاعه تحت الحفظ، فلما وصل إلى حضرة الوزير جعفر إلى الديوان عاتبه على سوء فعله، وأمر بضرب عنقه فضُربت.

ودخلت السنة التاسعةُ عشرة بعد الألف:

وفيها جعل الوزير جعفر الأمير عبدالله شلبي كدخداه، وعزل صفر آغا وجعل كاني شلبي دفتر دار.

وفيها طلع الوزير جعفر إلى كوكبان وأقام فيه يوماً واحداً وليلة، ثم تقدم إلى عمران ثم إلى صنعاء.

وفيها وجّه العساكر والجنود على الأمير محمد أمير صعدة، وذلك أنه

---

(١) أحمد الشرعبي: شيخ بلاد شرعب في شمال غرب مدينة تعز.

(٢) القاعدة: مدينة في وادي نخلان، بمديرية السياني وأعمال محافظة إب، تقع بجوار خط الطريق إلى مدينة تعز.

(٣) العماقي: قرية ووادٍ في ضاحية الجند، بالقرب من مطار تعز الدولي.

تولاّها بعد الأمير مصطفى وطالت أيامه وجمع منها الأموال، وعلى واستطال. ولما عزم الوزير حسن وخلفه الوزير سنان علم أنه إن عزله ما أطاعه وتركه لما اشتغل بالفتنة بينه وبين عبدالرحيم.

ولما وصل الوزير جعفر وافتتح البلاد وقبض على عبد الرحيم وأصلح الإمام أحس الأمير محمد بالشر، وطلبه الوزير جعفر فلم يسعد إلى ذلك ورام المقابلة والقتال، وكاتب الإمام على أنه يعضده، فأعرض عنه إلى ذلك المرام، فأظهر الخلاف، وبلغه تقدم العساكر السلطانية عليه فقدّم للقاهم أحمد بن الإمام الحسن بن علي إلى خيوان[1]. فلما قربت الجنود السلطانية هرب بن الإمام الحسن وفارق خيوان، ولما علم الأمير محمد بوصول العساكر السلطانية ركب على فرس جواد وجماعة من عيال خزائنه معه، وحمل ما قدر عليه من ماله، مع أنه قد كان متأهباً للهرب من قبل ذلك بمدة. ودخلت العساكر السلطانية صعدة، وجعل فيها الوزير جعفر والياً الأمير صفر.

وفي الثاني عشر من جمادي الآخرة توفي الوزير الأعظم، المجاهد الأفخم، الهمام العادل، الرئيس الكامل، مراد باشا[2] قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه، وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه، وكان موته في ديار بكر[3] وحُملت جنازته إلى القسطنطينية.

ودخلت سنة عشرين بعد الألف:

وفي السادس عشر من شهر شعبان أرسل الوزير بالأمير عبد الرحيم إلى الأبواب العالية وكان صحبته آغا من أغواته يقال له بيك طاش، وسار معه

---

(١) خَيْوان: مدينة في الشرق الشمالي من حُوث، تبعد عن صنعاء شمالاً بمسافة ١٣٤ كيلاً.

(٢) مراد باشا: رجل دولة عثماني، اشتهر بقسوته، فقد بطش بآل جنبلاط في حلب، واحتل تبريز (المنجد في الإعلام، ص٥٢٠).

(٣) ديار بكر: مدينة تركية على دجلة شرقي الأناضول.

الأمير درويش إلى المخاء.

ودخلت سنة إحدى وعشرين بعد الألف:

وفيها بلغ الوزير جعفر أن سلطان الإسلام أحمد بن محمد مراد ولى إبراهيم باشا على اليمن، وكان خروج إبراهيم باشا من الحضرة يريد اليمن في سابع وعشرين شهر رمضان من السنة المذكورة، ولما صح خروج إبراهيم باشا إلى اليمن تهيأ الوزير جعفر للعزم.

ودخلت سنة اثنتين وعشرين بعد الألف:

وفي المحرم منها وصل متسلم إبراهيم باشا على آغا.

وفي الحادي عشر من ربيع الأول خرج الوزير جعفر من صنعاء، وقد كان وصل إلى الحوض الأشرف إبراهيم باشا وذلك في صفر من السنة المذكورة، ولما وصل الوزير جعفر إلى تعز طلب المتسلم الأمراء الذين في صنعاء وجعل على الوزير جعفر سجلاً شرعيّاً في أشياء نسبها إليه وأخذ عليه مهر كل أمير وأرسل بها إلى إبراهيم باشا، وجرت بين الوزير جعفر وإبراهيم باشا المراجعة في ذلك، فما سلم له السجل إلاّ بثمانين ألف قرش. وفي خلال ذلك أن عبدالله شلبي مال إلى ابراهيم باشا وفارق حضرة الوزير جعفر على غير رضا منه، فدخل في قلب جعفر باشا وجعل كدخداه حيدراً، ثم دخل إلى زبيد.

وفي أثناء عزم الوزير جعفر نقض الصلح الإمام القاسم وزحفت عساكره على الشرف وعفار وحجة وبلاد الأمير علي، وكانت عساكر السلطنة حافظة لثغورها ولم يخرج من الشرف غير الآغه الذي كان فيها، وكان فيها آغة يقال له سنان آغا.

ثم إن ابراهيم باشا طلع إلى صنعاء، وشرعت بـه العلـة مـن النجـد الأحمر[١] وهي من الحُما، وقد كان قدم قبله عبدالله شلبي وجعله سرداراً وعيّنه لحرب الإمام القاسم، فدخل صنعاء في جيش كثيف وضربت خيامه عند مسجد فروة بن مسيك رضي الله عنه في باب شعوب.

ثم إن إبراهيم باشا[٢] وصل إلى ذمار وقد كـان تمكنـت منـه العلـة، وأضحت قوته مضمحلة، فأخرجوه في التختروان[٣] إلى صنعاء، فلما وصـل إلى منقذه[٤] توفاه الله تعالى وذلك في يوم الاثنين الثامن والعشرين من جمـادي الأولى، وقبر عند حسن باشا، وقد كان تبعه إلى اليمن الأصباحية من حضـرة سلطان الإسلام، وعليهم سليمان آغا وأحمد آغا أخو الوزير علي باشا، الوزيـر الأعظم، فعند ذلك اجتمع رأي سليمان آغا كدخداه إبراهيم باشا وسليمان آغـا آغة الاصباحية على استدعاء الوزير جعفر[٥] من زبيد وعوده ليضبط أحـوال اليمن، ويدفع واردات تلك الفتن. فلما وصله المكتوب وما اجمـع عليـه رأي الأمراء والأغوات من عوده قوض أطنابه ورفع خيامه، وعـاد وكتـب إلـى عبدالله شلبي أنه مقرر على ما قرره عليه ابراهيم باشا، فأظهر الإسعاد وقـد أوجس في نفسه خيفة:

(وعلى المريب شواهدٌ لا تدفعُ).

ولما وصل إلى ذمار دبّر عبدالله شلبي الحيلة في دفع الوزير جعفر عـن

---

(١) النجد الأحمر: منطقة في جنوب مدينة إب بمسافة يسيرة، عليها المحجة إلى مدينة تعز.

(٢) إبراهيم باشا: من الأمراء العثمانيين، وكان قد عينه الوالي جعفر باشا خلفاً للباشا جعفر، وذلك سـنة ١٠١٦هـ كما سبق إيضاحه في الكتاب. وقد امتد نفوذ إبراهيم باشا في البلاد حتى شمل بلاد تعز.

(٣) التختروان: سرير المريض – (فارسية).

(٤) مَنْقَذة: بفتح فسكون ففتح: قرية كبيرة شمال مدينة ذمار بمسافة ١٤ كيلاً.

(٥) الوزير جعفر: هو الوالي العثماني جعفر باشا الذي تولى خلال الفترة من ١٩ ربيع الثاني سـنة ١٠١٦ إلى سنة ١٠٢٥هـ، وهو الذي عقد الصلح مع الإمام القاسم، إلا أن هذا الصلح لم يدم سـوى سـنة واحدة ثم حدثت بعد انقضائها أمور وأحداث خطيرة منها سقوط صعدة وحجة، وبلادها، وبعض بـلاد الظاهر والحيمة وجبل حضور، في يد الإمام القاسم (المقتطف، ص٢١٢).

صنعاء وأشار عليه بعض الدُهاة أنه يجعل ذلك بيد العسكر، فطلب العسكر ووعدهم ومنّاهم ومدّ شاشاً وجعل فيه مصحفاً واستحلف الأمراء والأغوات والعسكر، ودخلوا تحت الشاش الذي نصبه، وذلك بأنهم يد واحدة على الوزير جعفر، ومن كاتبه أو مال إليه فقد استوجب قتله، وكتب عقيب ذلك كتاباً إلى الوزير جعفر يذكر فيه أن العسكر ذكروا أنه قد عُزل وما بقي له في اليمن حكم وأن عبدالله شلبي خليفة إبراهيم باشا لا يمكن أن ينعزل من صنعاء إلا بعد أن يعرضوا إلى حضرة سلطان الإسلام فمن رجّح أنه يبقى على اليمن بقي. فلما وصل الكتاب إلى الوزير جعفر لم يجب عليه بحرف، وضاقت الأرض بما رحبت على عبدالله شلبي، وكاتب الإمام ووالاه، وتواطأ هوَ وهُو على أنه يمكنه من أكثر البلاد إذا أجاشه، وكتب إلى المراتب الحافظين لحدود بلاد السلطنة بالوصول إليه، فأصبحت الدنيا فارغة ودبّ فيها أصحاب الإمام دبيب الراح في الأجسام، والصباح في الظلام، وأحاطوا بعفار واستولوا على حجة، واستفتحوا بلاد الأمير علي بن شمس الدين جميعها لم يبق إلاّ الطويلة.

وتقدم الحسن بن الإمام القاسم إلى بيت علمان[1]، وتقدم علي بن الإمام القاسم إلى حضور الشيخ، ولم يبق بينه وبين كوكبان إلاّ اليسير بحيث أنه إذا رمى في محله ببندق سمع إلى كوكبان سماعاً قوياً، وأظلمت الأرض وخافت السُبُل.

وفي هذه الأيام وهَمَ الأمير عبدالله شلبي أن الأمير عبدالله بن المعافا منحرف إلى جناب الوزير جعفر فأمر بنهب خيمته، وكأنه أشار بالسر بنهب بيته فتبادر العسكر نحو صنعاء ودخلوا داره ونهبوها نهباً مبرّحاً، وصاحبهم في ذلك خلق من أهل صنعاء وقبائلها وعيال السوق، وما من ساعة من نهار إلاّ وداره أفرغ من فؤاد أم موسى، وذهب عليه مال جزيل قد جمعه في مدّة

(١) بيت عُلْمان: بضم العين، قرية برأس جبل المصانع الملاصق لحصن ثُلا من جهة الغرب.

طويلة من الدهور، ولما بلغ عبدالله شلبي أقسم وحلف بأن ماله رِضًا بما جرى وصاح على الناس والعسكر بإرجاع ما أخذوه فرجع البعض على جهد جهيد.

وقد كان الوزير جعفر جعل في صعدة الأمير حسن فتقرّب إليه أصحاب الإمام، وأخرجوه منها في هذه الأيام. ثم إنها جرت المكاتبة بين الوزير جعفر والأمير عبدالله شلبي على يد الأمير علي بن شمس الدين، بأنه يجعل له صعدة ويوجه معه العسكر الذين معه جميعاً، وما أخذه من البلاد التي قد صارت تحت يد الإمام، فهي له، فلم يطمئن إلى ذلك وظن أنه من قبل المكر والخديعة، فجهزّ الوزير جعفر جنداً للطلوع، فلما بلغ عبدالله شلبي أرسل الأمير درويش، والأمير أحمد بن عبد الرحمن، والأمير رمضان، وحسن بيك، وصبيح كاشف، لمقابلة الأمير حيدر، وقد كان في هذه الأيام واجه الفقيه علي الشهاري أحد أنصار الإمام القاسم، فأرسله عبدالله شلبي صحبة الأمير درويش، فلما وصلوا إلى القبتين كان محلهم في قرية نعض[1] والأمير حيدر قريب من البركة الكبيرة فجرى بين الفريقين قتال آل الأمر فيه إلى انهزام جند عبدالله شلبي، ومال أكثر العسكر إلى الأمير حيدر، وقُتل منهم أفراد، وأسر يوسف آغا الكدخداه حق عبدالله شلبي، ونزلت جميع عسكر عبدالله شلبي والأمراء الأغوات إلى عند الأمير حيدر، فوجّه بالأمراء والأغوات إلى عند الوزير جعفر إلى ذمار، فلما قربوا جمع الأصباحية والعساكر وعمل ديواناً ما قد شاهدت العيون أعظم منه. ولما وصل الأمراء إليه عاتبهم بعتاب شديد، وأمر بالأمير رمضان وحسن بيك ومحمد فرك يلان وقزندل وصبيح كاشف والفقيه علي الشهاري، فضربت أعناقهم بين يديه. ثم كسى الأمير أحمد بن عبدالرحمن قفطاناً والأمير درويش قفطاناً، ثم أن المتسلم شدّ ما قد جمعه وجمع أصحابه وتوجه، وفطن قلبه أن جعفر باشا منتصب له على الشر

(١) نُعُض: من قُرى مركز الربع الشرقي بمديرية سنحان، في جنوب شرق مدينة صنعاء.

فقصده، فلما وصل ذمار محطة الأصباحية استشفع بهم وعرفهم أنهم يمنعون جنابه ويحمون حوزته.

فلما أصبح أرسل له الوزير جعفر، فوصل في فيلق من الأصباحية وقد ظهرت عليهم العصبية والحمية، ولما مثل في مقام الوزير جعفر ناقده واطلعه على السجل الذي فعله عليه وأرسل به إلى مخدومه إبراهيم باشا، فاعتذر ونسب ذلك إلى غيره، فقال للذي لديه خذوه وأمر به، فأرادت الأصباحية تستنقذه منهم فقرب منه علي صنجقدار وطعنه طعنةً في بطنه أتت على روحه وتركوه وبه رمق فتمّمه الخادم بالسيف وأبان رأسه، وركب الوزير جعفر من حينه إلى مَنْقَده.

وقد كان لما وصل الأمراء إلى عند جعفر باشا إلى ذمار وبلغ عبدالله شلبي كسيرة عسكره وميلهم إلى جانب الوزير جعفر قوّض خيامه من باب شعوب ودخل القصر، وبنى نفسه على الحصار، وحصل في صنعاء الأراجيف، وداخل الناس الخوف العظيم الذي لم يسبق مثله، وتقدم عليه حيدر، فما شعر عبدالله شلبي إلا بالخيام قد ضربت عند الماجل المقضض عدني صنعاء، فلما غُلِّقت الأبواب خرج الأمير أحمد الأخرم إلى عند حيدر، وعمل أماناً لأهل صنعاء، وخرج الناس والعسكر والأمراء من الخندق الذي عند بستان السلطان، ومُثّل في مقامه من الأمراء الأمير حسن دفتردار الشيبة، والأمير عبدالله بن المطهر، والأمير إبراهيم بن المطهر، والأمير عبدالله بن المعافا، والأمير صلاح بن المؤيد، والأمير محمد بن المؤيد، والأمير علي بن الشويع، والأمير عبد القادر بن ناصر، فكساهم قفاطين، ثم دخل صنعاء، ودخل إلى عند عبدالله شلبي إسماعيل آغا وأخرجه في الليل على بغلة، وحُبِسَ في دار الكدخداه والأمير حيدر فيها، ولما وصل الوزير جعفر إلى سيّان[1] أمر

---

(١) سيّان: قرية بجوار نُعض من بلاد سنحان.

بعبدالله شلبي فقتل وقُتل من جماعته عدّة.

ووصل جعفر باشا إلى ريمة، وكان بقاؤه فيها إلى صبح يوم الثلوث رابع وعشرين من شهر شعبان. ثم تقدم إلى صنعاء في جحفلٍ عظيم، ومحفل يقعد العدوّ ويقيم. وكان طريقه إلى البستان الذي قرب الباب لأن أهل العلم بالنجوم بعضهم نهاه عن دخول ذلك الوقت، وقد كان عرّفه قبل خروجه من صنعاء أن إبراهيم باشا يموت في طريقه ويثور عليه العسكر ويخلع طاعته رجلٌ من أصحابه المنتمين إليه وأنه يأخذهم بالقهر لا بالرضا، فقال للذي أخبره بذلك: فما سيكون إن دخلت صنعاء في هذه الأيام وما يحدث ؟ فقال: يحدث بقدر الله عليكم مشقّة عظيمة من جانب الإمام وتعبٌ ونصبٌ. ولما استقر في الديوان الذي في البستان عاتب الأغوات الذين طلبهم عبدالله شلبي من المراتب وعنّف عليهم وقال لهم: بأمر من تركتم بلاد السلطان خالية حتى تمكن منها العدوّ ؟ فقالوا بغير رضا منا وقد أخطأنا وأسأنا ولم يبق لنا منهج غير العفو والصفح، فعفا عنهم، ثم أمر بالأمير إبراهيم بن المطهر والأمير حسن الشيبة دفتر دار فأطلعا إلى الدار الحمراء، وكسا سائر الأمراء والأغوات، واستقر في البستان إلى يوم الجمعة، وغالبته نفسهُ وقال له بعض من يجهل علم الحكمة: علمكم هذا مجانبٌ للتوكل، ودار مقال في ذلك لما أراده الله. ودخل بكرة يوم الجمعة سابع وعشرين شهر شعبان والشمس في درجة هبوطها، وفي تلك الليلة أمر بقتل الأمير حسن الشيبة، وأقام الأمير إبراهيم بن المطهر في السجن إلى يوم الاثنين النصف من رمضان، وانتقل إلى رحمة الله تعالى بعد الظهر بساعة، وأخرج إلى بيت أخيه عبدالله بن المطهر، فجهزهُ وقبره في باب اليمن. وفي مغرب تلك الليلة التي دُفن في نهارها خسف القمر خسوفاً كلياً استغرق جميع جرمه ومكث في السواد ساعات، وذلك في برج الثور، برج صنعاء، فعجب الناس من ذلك.

وقد كان جهز الأمير الكدخداه حيدر لقتال الإمام واسترجاع ما بيده من

البلاد، فلما وصل إلى عمران تقدم الحسن بن الإمام إلى عرّة الأشمور[١] وظن أن الأمير حيدر لا يقصده، فقصده الأمير درويش وأحاط به وحاصره. ثم تقدم عليه الأمير حيدر، وأغار عليه الحاج أحمد الأسدي بغارة عظيمة لعلهم يخلّصوه، فعزّ عليهم ذلك ورجعوا خائبين، وخرج الحسن بن الإمام إلى يد الأمير حيدر بالأمان، وخرج معه من جماعته قرب المائة، وأرسل بهم إلى الوزير جعفر، فوصلوا مقامه في العشر الأخيرة من رمضان، فأودعهم الدار الحمراء. ثم تقدم الأمير حيدر بعد ذلك ففتح البلاد جميعها واسترجع ما أخذه الإمام، وفُتحت بلاد الأمير علي بن شمس الدين جميعها، وكان ولده الأمير عبدالرب بن علي بن شمس الدين في وقت هذه الفتن المظلمة، والحوادث المبهمة، في الطويلة لم يبق في يده غيرها، وأحاط به أصحاب الإمام من كل مكان، وقرب منه الحسن بن الإمام القاسم إلى محل يقال له رأس الجدم[٢]. وثبت الأمير عبدالرب ثباتاً عظيماً وصابر تلك الخطوب، وقاسى نوائب الحروب، وتدرّع الجلد وتمسّك بالعروة الوثقى من طاعة السلطنة أعزها الله وأعزّ أنصارها، حتى من الله عليه بالفرج بعود الوزير جعفر وأسر الحسن بن الإمام، وبذلك السبب فتح الله جميع بلاد والده كما تقدم ذكره.

ثم أن الوزير جعفر في النصف من شوال من السنة المذكورة جهّز الأمير محمد السردار إلى محطة خَمِر في عسكر، ولما تكاثرت المحاط على الإمام، وتوجّه نحوه ذلك الجيش الهمام، وأُخذت أكثر بلاده التي جرت عليها منه الأحكام، خشي على بلاده المقاربة لشهارة، وراجع في الصلح، وأنه يبقى على قاعدة الصلح الأول الذي انعقد في أيام فتنة عبدالرحيم بن عبد الرحمن،

---

(١) عرّة الأشمور: من قُرى جبل الأشمور في غربي مدينة عمران ومن أعمالها، تقع بجوار قرية الأشمور وقرية الدرب.

(٢) الجُدُم: بضمتين، مركز إداري من مديرية مسور المنتاب وأعمال محافظة عمران، في جبل يضم مجموعة قلاع حصينة.

فلم يسعده الوزير جعفر إلى ذلك، وكان مقلداً لبعض خواصه لا يخرج عما قاله من الأمور، ولا ينظم بغير كلامه أمر الجمهور، فلما عرض ذلك المرام، الذي رامه الإمام، على ذلك الشخص المشار إليه، نفر منه وحذّر من الدخول فيه، ولو حصل التوفيق الإلهي لكان الوزير جعفر أبرم الأمر وتمم الصلح، فإنه لما جرى ما سنذكره ندم ندامة الكُسعي لما اتضح النهار، واسف اسف الفرزدق على فراق النوار، وظن ذلك المشير أن الوزير جعفر قد زقم بن الإمام، ولا تمتد فيه الأيام، ولله في ذلك الأحكام. ولما وصل الأمير حيدر إلى حدبة الهَجَر[1] وقرب الإمام من الحصار، أجمع على الفرار، وواجه الأمير حيدر جميع بلاد الأهنوم.

<u>رأيٌ غير حميد:</u> أُشير به على الأمير حيدر، كان فيه ضعف أمر السلطنة الذي غلب وقهر، ثم أن بعض الأمراء أشار على الأمير حيدر بشورٍ ذهب منه ذلك الناموس الأكبر وعادت به الحرب الضروس، وذهاب المُهج والنفوس، وكان المشير بهذا الرأي الذي خالف الصواب، وجرّع الأمير حيدر العلقم الصبّاب، الأمير أحمد الأخرم، وهو أنه حسّن له فتح صعدة وأن يترك في الهجر أمراء وعسكر، فكتب إلى ولي أمره الوزير جعفر، وقرّب المسألة في أخذ صعدة وحسّن العبارة. وقد كان لما منعه الوزير جعفر عن هذا المقصد أرسل الأمير رستم في أنه يعرفه بما في ذلك من الصواب، وذلك من القضاء المودع في الكتاب، فرفع الأمير رستم بالإذن في دخول الأمير حيدر إلى صعدة، فتوجه إليها وترك في الهجر الأمير عبدالله بن المعافا، والأمير حسين جبل، والأمير قلفه خسر، واسماعيل آغا، وسنان آغا، وقاسم آغا، وعثمان آغا. وعزم نحو صعدة، وكان فيها والياً من قبل الإمام ولده حسين، فلما بلغه خبر قدوم الأمير حيدر خرج من صعدة هارباً ولم يقابل حيدراً أحدٌ في طريقه

(١) حَدَبَة الهجر: من قرى جبل كُحلان عفّار.

من قبائل تلك البلاد، وأخذها سلماً وفتحها بغير مشقة، ولما استقر في دارها وطاب له هواؤها وجّه الأمير رستم في ثلاثمائة من أعيان العسكر الذي يدفع بهم مكاره القتال، وتدور عليهم رحى النزال، إلى بلاد من بلاد صعدة يقال لها العرو[1] فلما وصل الأمير رستم إلى ذلك الموضع جمع عليه علي بن الإمام القاسم، وكان هناك، غارات القبائل، واستقامت الحرب بينهم على ساق، فأرسل الأمير حيدر غارة لهم الأمير احمد الأخرم، وكان بين الأمير رستم والأمير أحمد الأخرم معاداة في البواطن، وبغض غمض في الضغائن، فلما قرب الأمير احمد الأخرم وسمع صولة القبائل وأصوات البنادق علم أن الأمير رستم في الحرب العبوس، وأن المهالك قد غازلته بأعينها الشوس؛ فطلب الطعام، وأدار المدام، وتثاقل عن إنجاده، وقصد بقتله بلوغ مراده، ولما تأخر عن نصرته تكاثرت عليه جميع القبائل فقتلوه وجميع من معه ولم ينج منهم مخبر، وتأخر الخبر عن الأمير حيدر، فداخله الشجن، وخامره الحزن، وتوجه بمن معه من العساكر مغيراً، ولما وصل إلى المحل الذي كان فيه الأمير أحمد الأخرم، وهو محل يقال له الجضاير، وجده قد انهزم، واستخرج الناس، وأقبل عليهم علي بن الإمام القاسم بجموع القبائل كالليل والسيل، وعرف الأمير أحمد الأخرم في حماليق عين الأمير حيدر الشر، وكان من تأخر من العسكر قُتل فذهبت منهم طوائف، وقطع عقيب ذلك الأمير أحمد الأخرم أنه إذا وصل إلى صعدة فتك به الأمير حيدر وأهلكه، ففرّ بنفسه إلى عند القبائل، وحسب المسكين أنه سَيَسلَم من شرهم، فعرفهم بنفسه وأفهمهم أنه هارب إلى حضرة الإمام، فلما عرفوه ناوشوه بسيوفهم مناوشة ذئاب الفلاة، وخرّ على وجهه لغير صلاة، ثم احتزوا رأسه وأرسلوا به وبرأس الأمير رستم إلى حضرة الإمام إلى شهارة، ولما حصلت هذه الواقعة على الأمير رستم والأمير أحمد الأخرم

---

(١) العُرْو: بضم فسكون، وقد يُنطق بدون لام التعريف. جبل بالغرب من مدينة صعدة بمسافة نحو ٣٧ كيلاً، يضم مجموعة قرى تسكنها قبيلة (بني بحر) من قبائل خولان ابن عامر، وعداده من مديرية سباقين.

أظلمت الأرض على الأمير حيدر، وضاقت به الدنيا وثارت القبائل عليه بدوها والحضر، فقاتل وصبر، واحتسب واعتبر.

ودخلت سنة ثلاث وعشرين بعد الألف:

وفي ربيع الأول منها أرسل الإمام برأس الأمير أحمد الأخرم إلى بلاد حجة ورأس الأمير رستم إلى بلاد الأهنوم، فأثر[١] ذلك تأثيراً عظيماً، وكان أول حادثٍ جرى في بلاد الأهنوم أن محمد بن الإمام القاسم تقدّم على محطة سوق التلوث وبها عسكر من عسكر السلطنة وعيّنة من كوكبان عليهم نقيب يقال له عبد الغني بن عنبر، وهذا المكان قرب سيران[٢]، وقد كان القبائل كاتبوه قبل أن يقصد المحطة المذكورة، فجرى بين عسكر السلطنة ومحمد بن الإمام حربٌ عظيمة تعقبها كسيرة أصحاب السلطنة وعسكر كوكبان، وقتل من أهل كوكبان جماعة منهم الشيخ عبدالله الشامي، ونُهبت محطة أهل كوكبان، فلما انكسر ذلك العسكر كان كل قبيلة تلقاهم من قبائل الأهنوم وهم في الهزيمة تخالف مع العدوّ وتلقاهم بالقتال، فما زال هذا دأبهم حتى وصلوا إلى المَدَاير[٣] آخر بلاد الأهنوم. ثم أنهم انهزموا من هذا المحل حتى وصلوا السُودة، بوجوه من الفضيحة مسودة، وذهب بعض العسكر إلى بلادهم، وتهيّأ أهل السودة للحصار، وتمّت الحوزة على الأمير عبدالله بن المعافا ومن معه في الهَجَر، من الأغوات والأمراء والعسكر، وانقطع عنهم المختلف، وكانت هذه الواقعة في نصف شهر ربيع الأول من السنة المذكورة.

---

(١) فأثر: (فأثمر).

(٢) سِيْران: بكسر فسكون. جبلان في الجنوب الشرقي من الأهنوم، هما سِيران الشرقي وسيران الغربي، يشكلان مركزين إداريين من مديرية شهارة.

(٣) المَدَاير: بفتح الميم والدال وكسر الياء. قرية في الجنوب الشرقي من مدينة "حَبُور" مركز عاصمة مديرية ظُلَيمة. وهي شمال جبل شهارة.

وما برح الأمير حيدر في قتال ونزال، ومقاساة أهوال، حتى دبّر الحيلة، وخرج من صعدة في توابعه ومن يلوذ به، ووصل إلى خمر بعد قطع المسافات العسيرة، والآفاق الخطرة، وكانت خرجته هذه من أعجب الخرجات، دلّت على علوّ همّته وكماله في الثبات، ولما استقر في خمر دبّر حينئذ الحيلة في إخراج الأمير عبدالله بن المعافا ومن معه من العساكر، وقد كان الأمير عبدالله لما اشتد عليه الحصار، وقلت الأنصار، كاتب الإمام بأنه يسلّم نفسه إليه، وتخرج عسكر السلطنة الذين عنده بعد تسليم السلاح مرفقين إلى حضرة الأمير حيدر، وتم الأمر على ذلك، فأشار على الأمير حيدر بعض من عنده بأن يوجه الأمير درويش والأمير عبدالقادر بن ناصر الجوفي وعلي آغا ونقيب كوكبان الهادي بن مبارك بعيّنة كوكبان وعدة من عساكر السلطنة كانت جملتهم ألف ومائة بندق، ومقدار ستين فارساً فاستصوب الأمير حيدر هذا الرأي ووجه من ذكرناه، وخاضوا بهذه الجموع البلاد المخالفة، فما هو إلاّ أن توغلوا في سيرهم فأطبقت عليهم وادعة[١] من خلفهم وجميع تلك البلاد، وسار الأمير درويش ومن معه في قتال، وكان هذا من سوء الرأي المورد إلى البوار، والقاضي بالادبار. ومما أوهن العزم، وخالف الحزم، أن الأمير درويش خاض بنفسه وبمن معه هذه السباسب ولم يصحب معه دقيقاً ولا خبّازاً ولا طعاماً، وقد كان بلغ بأهل محطة الهجر الأمر إلى أنهم أكلوا لحم الجمال وقسم بينهم بالأجزاء الحقيرة وكمل جميع ما عندهم ولم يبق في أيديهم شيء، واشتد بهم الجوع ومصابرة الجوى حتى أسودت وجوههم، وضاقت صدورهم، فلما وصل إليهم الأمير درويش، بذلك الجمع سألهم الأمير عبدالله: هل وصلوا بشيءٍ معهم من الدقيق والطعام، فأجاب عليه الأمير درويش وقال: ما مرادنا الإقامة، وإنما جئنا لنخلصكم من هذا المحل. فسقط في يد الأمير عبدالله، وكان

(١) وادعة: المقصود وادعة حاشد، وهي القسم التاسع من قبيلة بني صُرَيم من حاشد. تسكن في مديرية خَمِر، وأعمال محافظة عمران – انظر المعجم.

من عجائب القضاء أن الأمير درويش غفل عن قرن الوَعِر[١] وتركه بغير رتبة قوية، ولم يجعل فيه غير همدان، وآغاتهم عبدالله بن اسماعيل الداعي، وذلك المحل هو فصل الطريق، وزمامها على التحقيق، والحافظ لها من المخالفين، ولو أراد الله تأييده دخل معه بالطعام والدقيق والغنم والسمن والطباخين والخبازين، مع أن الإمام لما بلغه دخولهم الهجر بهذه الألوف المؤلفة بَنَى نفسه على الفرار من شهارة، وجميع أصحابه نقلوا متاعهم وأولادهم إلى نازحات الآفاق، وظنوا أن الأمير درويش ما وصل إلى ذلك المحل إلا بنية الوقوف. ثم أن الأمير عبدالله قال للأمير درويش: الرأي الصائب أن نبادر بالعزم من هذا المحل قبل أن يجتمع علينا القبائل، فنهضوا من الهجر وتركوا فيه عيّنة تحفظه حتى تخرج باقي المحطة، فلما خرج الأمير عبدالله والأمير درويش وسائر الأمراء والأغوات خرجت عقيب خروجهم تلك العيّنة التي استخلفها الأمير عبدالله لحفظ الهجر وخلفهم أصحاب الإمام إليه، فلما عرف الأمير عبدالله بذلك قال للأمير درويش: أما بعد أخذ الهجر فالساعة الواحدة في البقاء تخل بنا ولا يحسن توقفنا في هذا المكان، فقال الأمير درويش: ما عسى أن تفعل بنا ألفاف القبائل، فقال الأمير عبدالله بن المعافا: الرأي في المبادرة بالمسير ولا خير في التأخير، وذلك قبل أن تجتمع القبائل، ويطبق علينا سوادها الشامل، فما حصل من الأمير درويش الاسعاد، لأمرٍ قضاه ربّ العباد، فلما عرفت القبائل أن الأمير درويش مراده الخروج من ذلك المحل، وإنما كان سبب دخوله لإخراج الأمير عبدالله ومن لديه، وتيقنوا أخذ الهجر، سالت عليهم تلك الجموع من كل حدبٍ كالسيل وأقبلوا كقطع الليل، وغشوا تلك الشواهق الشوامخ، وتكاثروا حتى حكوا البحر الباذخ، وتقدم الحسين بن الإمام، وقطع على الأمراء والعسكر إلى محل يقال له غارب

---

(١) قرن الوَعِر: بلدة في غربي قفلة عِذَر من بلاد حاشد.

أثلة[١] ضيق المسالك وعر المناهج، وأقبلت القبائل من أيمانهم وشمائلهم، وخلفهم وأمامهم، كأنهم الجراد، أو الجمع يوم التناد، ولازموهم بالقتال من بعد خروجهم من الهجر حتى قربوا من غارب أثلة، وقُتل في ذلك المحل الأمير عبدالله بن المعافا، والأمير درويش، والأمير عبد القادر بن ناصر الجوفي، والأمير حيل حسين، والأمير قفلة، وسنان آغا، وعثمان آغا، وعدّة من العساكر، ونهبت الخيل والجمال، السلاح، ودخل علي آغا وقاسم آغا وإسماعيل آغا، ونقيب عسكر كوكبان، بأكثر عسكر كوكبان وجماعة من عساكر السلطنة إلى قرن الوعر وفيه عبدالله بن إسماعيل آغة همدان بجماعته، وانحصروا فيه، ثم خرجوا بالأمان إلى يد الإمام وسلموا السلاح، في تجاة الأرواح، واطلعت إلى عند الإمام إلى شهارة رؤوس الأمراء وبعض السلاح، وجملة الأسرى، وكان ذلك في جناب السلطنة وهناً عظيماً.

ولما بلغ الأمير حيدر هذا الخبر اشتد خوفه، وخشي من عيب القبائل أهل الظاهر، وأراد أن ينهض من محطة خمر، خوّفه بعض الأمراء وأرجف عليه، وأشار بأنه يخرج من خمر على صورة المرفق، وكل أشار في ذلك الوقت بشور لا يسلم فيه من المقت إلاّ الأمير فخر الدين عبدالله بن المطهر فإنه قال للأمير حيدر: الذي أراه وأشير به أنك تبقى في محلك هذا ونحن بحمد الله في غاية ما يكون من العدّة والعدد ولا نخشى من العدوّ، ومن أرادنا بسوءٍ قابلناه وقاتلناه والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء، ومثل هذا الحادث يجري وسيف السلطان نصره الله طويل، وأنا متدرّك بهذه المحطة وحفظها. فلما وعى كلامه، سكن جأشه، وذهب خوفه، وأفرج روعه. وأشار الأمير عبدالله بن المطهر بتجهيز جماعة صحبة الأمير أحمد بن عبد الرحمن بن المطهر إلى السنتين لأنها على طريق صنعاء وإذا لم تُحفظ انقطع المختلف عن خمر.

---

(١) غارب أُثلة: قرية في "قفلة عِذَر" من حاشد، تقع أسفل جبل (أَهَر) في مغارب مدينة حُوث.

ثم إن الوزير جعفر لما بلغه الخبر جمع الجموع وكتب العسكر، وجهز الأمير صلاح بن أحمد بن المؤيد، والأمير محمد بن عبدالرحمن بن المطهر، إلى دعّان[١] وما برحت نار الفتنة تستعر، وجموعها تغر، وخالفت أكثر البلاد، وخرجت عن الطاعة قبائل خولان، وأُخذت بلاد الأمير علي بن شمس الدين جميعها لم يبق في يده إلاّ الطويلة، وأخذت بلاد حجة وكان فيها كاشف حسن آغا من أغوات الوزير جعفر، فانحصر في حصن مَبْيَن، وحُصرت السودة، وقد كان فارقها الأمير إبراهيم بن عبدالله بن المعافا إلى جبل عيال يزيد، وناصر آغا فرّ من الشرف خائفاً وطلع إلى جبل بني قُطَيل[٢] واشتعلت نار الخلاف، في جميع الأطراف، وتتمّر الإمام واستفحل أمره، وعسر قهره، وطمع في أخذ إقليم اليمن، من صعدة إلى عدن، وما برحت الحروب قائمة، وسحائبها عائمة، حتى هوّن الله بعضها، وتوالت المغازي على أطراف البلاد المجاورة لخمر، وكتب الوزير جعفر لقبائل الكلبيين[٣] جوامك[٤] وسكن بذلك بعض الشر. وثبت الأمير أحمد بن عبدالرحمن بن المطهر في السنّتين ثباتاً شهد له بقوة القلب، ومصابرة الحرب.

ثم أن الأمير حيدر انتقل إلى الصرارة وترك الأمير عبدالله بن المطهر والأمير محمد السردار والأمير علي بن الشويع، وقد كان أصحاب الإمام لما جرى ما جرى في غارب أثلة والشام دخلوا عرّة الأشمور التي زقم فيها ولد الإمام القاسم، وظنوا أن الأمير حيدر لا يقصدهم إلى ذلك المحل، فتجهز عليهم من الصرارة ولم يشعروا به إلاّ وقد أحاط بهم من كل جانب، وذلك ثاني عيد

(١) دَعَّان: بفتح فتشديد، قرية من قرى ثلث جبل عيال يزيد، شمال مدينة عَمْران ومن أعمالها.

(٢) بنو قُطَيْل: بضم ففتح فسكون، قبيلة من حَجُور إحدى قبائل حاشد، تسكن جبل عيال يزيد.

(٣) الكلبيون: بطن من قبائل خارف، من حاشد. لهم جبل يحمل اسمهم يقع في شمال مدينة رَيْدَة بمسافة ١٢ كيلاً.

(٤) جَوَامِك: جمع جامكية، مرتّب خُدّام الدولة من العسكرية والملكية – تركية (المنجد في اللغة، ص١٠٢).

الفطر من السنة المذكورة، وسيأتي خبر خروجهم علـــى حكمـــه إن شـــاء الله تعالى.

– ولما استولى الإمام على اكثر البلاد وجه إلى الحيمة رجُلاً مـــن بنـــي أسد[١] يقال له عبدالله الطير، فحزّب الأحزاب، وجمع القبائل من كل جنـــاب، وانضم إليه فقيه من الحيمة يقال له يحيى المخلافي، والسيد أحمد المسوري من بلاد خولان، وكان إمام مسجد الشهيدين في صنعاء وله رزق مـــن الســـلطنة يجري عليه، فاستمالوا القبائل، وسعوا بالفساد في الضحى والأصائل، وتغيرت بلاد حضور وبني مطر، وداخلهم الطغيان والبطر، وطلعوا عن بكرة أبيهم إلى حضور، وآوى إليهم كل فاتك مشهور. ثم إن قبائل خولان لما جرى منها ذلـك الخلاف، وكان جهّز عليهم الوزير جعفر الأمير حسين بن محمد بن النـــاصر في عسكرٍ وخيل فتقدّم إلى غيمان[٢]، وجرت حربٌ بينه وبين خولان، وكـانت فيه الدائرة عليهم وهزمهم الأمير حسين، ثم إنهم بعد الإنهزام حاصروا قلعـــة جبل اللوز[٣] وأخرجوا منها الرتبة السلطانية وقبضوا السلاح منـــهم. ثـم أن الأمير حسين تقدم عليهم وطلع جبل اللوز واسترجع القلعـــة، ثـــم أن الوزيـــر جعفر جعل إلى الأمير حسين جميع بلاد خولان المواجهة كسحام الوطا وتنعـــم واليمانية[٤] وبلاد سنحان جميعها، وفي خلال ذلك جهّز الوزير جعفـــر إلـــى حضور عسكراً لم ينصر علمه، ولا رسخ في تلك البلاد قدمه، علـــى مقدمتـــه إسماعيل آغا كيخيه الشاوشيّة، والنقيب محمد سعدان. وكتب الوزير جعفر بعد أن وصل إسماعيل آغا إلى بلاد حضور كتاباً إلى الأمير حسين بن محمد بأنـــه قد زاده إلى بلاده هذه بني مطر وأنه يتوجّه إليها ليشغل غارة بني مطر عـــن

---

(١) بنو أسد: من مشائخ بلاد البستان – بني مطر – والحيمة في غربي صنعاء.

(٢) غَيْمَان: بلدة في مديرية بني بُهلول، بالشرق الجنوبي من مدينة صنعاء، بنحو ١٦ كيلاً.

(٣) جبل اللوز: من جبال خولان الطيال في شرقي مدينة صنعاء.

(٤) سحام، وتنعم، واليمانية: أسماء مناطق بلاد خولان صنعاء.

إسماعيل آغا ومن معه، فتقدم إليها وحطّ في الدار البيضاء[١] وتحزّبت عليه أحزاب بني مطر، وأقبل واحد من مشائخهم يقال له الكامل في غارة إلى قرية متحصّنة يقال لها الشرفة[٢] فتقدم الأمير حسين بن محمد بمن معه وقصد الشرفة وأحربهم حرباً عظيماً آل أمرها إلى انكشاف بني مطر وقتل الكامل واحتز رأسه وعشرة من أصحابه، وامدَّ الله الأمير حسين بالظفر وواجهه أكثر تلك البلاد.

ثم إن الوزير جعفر بعد أن فعل الأمير حسين هذه الفعلة كتب إليه كتاباً يأمره فيه بالتقدم إلى عند اسماعيل آغا لأجل المعاونة بالرأي والمشورة واجتماع الكلمة والإمداد في وقت الحرب، فتوجّه الأمير حسين ولم يكن لإسماعيل آغا رضا بذلك، وشرع يحصل منه العناد والمخالفة لما قاله الأمير حسين ورآ فيه الصواب، واستبد برأيه وأراد بمخالفة الأمير حسين أنه إذا جرى فتحٌ ونصرٌ ينسب إليه دون الأمير حسين. وكان من قضاء الله المبرم، وأمره المحكم، أنه خرجَ صحبة إسماعيل آغا الشيخ صلاح البروي[٣]، لرشده إلى سبيل المنهج السوي، وكان اسماعيل آغا أهوجاً سخيفاً أحمقاً متهوراً في أموره يتبع هواه وينقاد لنفسه إنقياد الذلول، فلما وصلوا إلى بيت ردَم[٤] من أعمال حضور، تقدم البروي إلى محله البروية، فأرسل عليه اسماعيل آغا مائة رجل وجعل لكل واحد منهم على البروى حرفاً نفاعة، فثقل ذلك عليه، ونفض من طاعة السلطنة يديه، وانحرف إلى جهة الإمام، واتصل بالطير اتصال الجفن بالمنام، وجرّ تلك القبائل، والشواجر والعواسل، وجرى بينهم وبين اسماعيل آغا مناوشة قتال،انهزم عقيب ذلك النزال إسماعيل أغا وفرّ إلى

(١) الدار البيضاء: قرية من بلاد الروس، جنوب صنعاء بنحو ٢٠ كيلاً، وشرقي أسافل بني مطر.
(٢) الشّرفة: من قرى بني حِشَيْش.
(٣) الشيخ صلاح البروي: شيخ البروية في بني مطر، غربي صنعاء.
(٤) بيت ردَم: قرية وحصن في منطقة شهاب أسفل من مديرية بني مطر، تقع جنوب الطريق الأسفلتية في قاع سُهمان.

الجبل لكي يعصمه عن الهلاك، ونهبت المحطة والسوق، وبلغ الأمير حسين فكتب إلى الوزير جعفر وعرّفه بصورة الأمر وأنه يوجّه إليهم بغارة، فأخرج الوزير جعفر بقية من كان معه من التوابع غير عيال الخزانة وكانوا زهاء ثلاثين فارساً، وأغار الأمير حسين على اسماعيل آغا فوجده قد ترك بيت ردم وطلع الجبل ولم يبق له شيء من الأثاث والفراش، فتقدم الأمير حسين لقتال القبائل المقبلة على إسماعيل آغا، ورام من إسماعيل آغا أنه يمدّه بالعسكر الذي عنده فما أمكن من أحد أن يسمع له كلمة بل دارت رحى الحرب على الأمير حسين واسماعيل آغا ومن معه بمرءا ومسمع، ولا تمكنهم الغارة، ولا يرجى منهم دفع تلك الجموع الموّارة، وجرى بين الأمير حسين وأصحاب الإمام قتالٌ عظيم أبان فيه عن شدة ونجدة وشجاعة وثبات قلب، ووقع فيه صوبٌ من بندقٍ في صدره، ولما وقع فيه الصوب كتم ذلك ورجع من موضع القتال ولم يشعر بصوبه أحدٌ لكونه كان لابساً لدرعه فلم يُرَ فيه الدم. ثم أنه عاد بسبب الصوب إلى صنعاء وعاد بعوده إسماعيل آغا، واستولى بعدهما الطير على البلاد الحضورية جميعها، وامتدت يده إلى سنع وحدّة، وأخذ منهما للإمام الفطرة والعدة، وحكم فيها البزوي وانفذ أحكامه وأوامره ولم يبق بينهم وبين صنعاء سوى ثلاثة أميال أو أربعة، ونهبوا الغنم من القاع الذي تحت البركة المتوسطة[1] بينه وبين بير العزب، والمسافة منها إلى صنعاء مقدار ميل ونصف، وعادت الفتنة كما بدأت، ولله الأمر.

ولما عاد اسماعيل آغا بصفقة المغبون أسقط الوزير جعفر جنايه وأهمله وأطرحه، وقد كان الأمير علي بن شمس الدين لما جرى ما جرى في غارب أثلة وخالفت بعد ذلك بلاده أخرج ولده محمد وجهّزه بعسكر، وقد كان الوزير جعفر أرسل إليهم الأمير محمد بن عبد الرحمن بن المطهر إعانة لهم فخرج

---

(١) جاء في هامش النسخة: لعلها المُسماة ماجل القُحطُمي في عصرنا.

من كوكبان صحبة محمد بن علي بن شمس الدين إلى الطويلة، وثبت فيها ثباتاً حصل به التسكين.

وعقيب فعلة الغارب تقدم علي بن الإمام لأخذ صعدة، وكان مقيماً هناك من يوم قتل الأمير رستم، وكان في صعدة الأمير صفر مقيماً استخلفه الأمير حيدر لما خرج إلى الظاهر، وظن علي بن الإمام أن الأمر سوف يجري في فتحها على أسهل مرام، فلما قرب منها خرج الأمير صفر بمن لديه من الخيل والعسكر، وجرى بينه وبين ولد الإمام قتال عظيم آل فيه الأمر إلى انكشاف أصحاب ولد الإمام، فأفردوه وجماعة معه وخذلوه أصحابه وتركوه للسهام عرضاً، وللسيوف غرضاً، فأحاطت به عساكر السلطنة فقُتل وقُتِل معه عصابة من رفقته، وبعث الأمير صفر برأسه إلى حضرة الوزير جعفر إلى محروس صنعاء، وسيأتي تاريخ ذلك.

وفيها أخذ الأمير حيدر عزّان بني عشب[1] عنوة، واتصل عسكر السلطنة بكحلان تاج الدين.

وفيها وجّه الأمير حيدرعسكراً إعانةً للأمير علي بن شمس الدين إلى محروس الطويلة، وجعل عليهم سرداراً مصطفى آغا المعروف برميلي، ففتحوا جبل تيس، وهزموا مقدّماً من أصحاب الإمام يقال له محمد قراع، وقد كان توجه إليها شريفٌ من أصحاب الإمام يقال له المحنكي فوصل إلى خَبْت لاعة[2] إلى محل لرجل من أهل الخبت يقال له عديعد، وكان سلطانياً، فلما علم عُديعد بوصول الشريف المحنكي تقدم عليه ورماه وأخذ رأسه وبعث به وبالبغلة حقه إلى مقام الأمير علي بن شمس الدين، وخلف الشريف محمد قراع المذكور،

(١) بنو عَشَب: بفتحتين، منطقة في جبل كُحلان عفار، شرقي مدينة حجة. تُنسب إلى قبيلة من بني قُدَم الحاشدية.

(٢) لاعة: مركز إداري من مديرية الطويلة وأعمال محافظة المحويت، يقع في جنوب جبل مسور.

وأقام في بني حبش[1] وكاد يُظفر به فسلم، وانفتحت تلك البلاد جميعها. ثم انفتحت بعدها لاعة وقراضة[2] واتصل الفتح ببلاد حجة، وبقيت من بلاد علي بن شمس الدين الشّاحذية[3] فأمر الوزير جعفر الأمير محمد بن عبدالرحمن بن المطهر أن يتقدم إلى حجة بمن معهُ، وجعلوا عوضه عند الأمير علي بن شمس الدين في الطويلة مصطفى آغا أمير ياخور، فأقام هناك حتى فتحت الشاحذية وعاد إلى مقام مخدومه.

ودخلت سنة أربع وعشرين بعد الألف:

وفي صفر منها قتل علي بن الإمام القاسم في بلاد صعدة كما تقدم ذكره.

وفيه خرج المحصورون من عرّة الأشمور إلى يد الأمير حيدر بالأمان من القتل، وكانوا ثمانين رجلاً، فأمر بهم تحت الحفظ إلى حضرة ولي أمره الوزير جعفر، فلما وصلوا إلى مقامه أودعهم الدار الحمراء، ولما بلغ أهل كُسْمة[4] وريَمة ودنوة[5] اشتغال الوزير جعفر بهذه الفتنة التي زخرَ عبابها، وأظلم سحابها، تمنّعوا عن دفع الأموال السلطانية، وانحرفوا وغيّروا النية، وكان بها الأمير محمد سردار فخرج بجملة العساكر الذين معه، وكانوا في عصابة نافعة حمتهم عن عيب القبائل سيوفهم، ووصل إلى مقام الوزير جعفر فخلع عليه وأكرمه وأعزّه، ثم وجّهه بعد ذلك لفتح بلاد خولان؛ فتوجّه عليها وأخذها ودخلها من قاع السودين[6] وعادت إلى ما كانت عليه من الصلاح.

(١) بنو حَبش: بفتح الحاء وخفض الباء، جبل غربي الطويلة، عداده من مديرية الرُجم بالمحويت.
(٢) قُراضة: بلدة في جبل مَسْور المُنتاب.
(٣) الشّاحذية: جبل في شمال شرق مدينة المحويت ومن أعمالها.
(٤) كُسمة: مدينة وحصن في ريمة، بالشرق من بيت الفقيه.
(٥) دنوة: بكسر الدال، حصن في بني الضُبَيبي ببلاد ريمة.
(٦) قاع السودين: منطقة في خولان العالية.

ثم أن الأمير إبراهيم بن عبدالله بن المعافا توجه ومعه جماعة من العسكر السلطانية والأغوات إلى جهة السودة فافتتحها، وقد كان طال عليها الحصار، وقلت الأنصار، وذلك في خامس شهر رجب من السنة المذكورة.

وفي هذا الشهر وجه الوزير جعفر مصطفى آغا أمير ياخور بعسكر زيادة إلى محطة السودة، وكان هناك من الأغوات عمر آغا كيخيه الأمير حيدر، وعلي آغا، نزل إلى السودة صحبة الأمير إبراهيم بن المعافا، فمن جملة الحوادث التي جرت في هذا الشهر قتلة الفايشي، وكان السبب فيها أن إبراهيم بن المعافا لما فتح السودة ونفس عليها من تلك المصائب الموعودة، بمن معه من الأغوات والعساكر السلطانية، وصل إليه كتابٌ من الأمير حيدر يأمره بالتقدم إلى محل قرب تلك البلاد يقال له الفايشي[١] وكان به جملة من أصحاب الإمام القاسم، وكان الأمير إبراهيم بن المعافا في تلك الأيام في سياسة وتدبير في صلاح غُربان[٢] وقد كان قرب صلحهم وأن يراجع الأمير حيدر، وعرّفه بأن غُربان قد دنا صُلحهم، واندمل جرحهم، وأن الغزو إلى الفايشي مما ينفر قلوبهم لقربه منهم، وإن صلحوا صلح الفايشي من غير لا تعب ولا نصب، فما كان الجواب إلاّ وصول مصطفى آغا أمير ياخور بمن معه من العسكر وحثهم على حرب الفايشي، فما وسع الأمير إبراهيم بن عبدالله إلاّ المساعدة. فلما قصدوا الفايشي ووصلوا إليه وتلازم القتال قطعت عليهم الطريق قبائل غربان، فانهزموا عن ذلك المكان، واجتمعت عليهم قبائل الأهنوم وظليمة وبني عبد[٣] وعمل السيف فيهم حتى وصلوا إلى الموسم قرب السودة، وقتل من أعيان العسكر فوق المائة، وكان يوماً عظيماً، ونهاراً

---

(١) الفايشي: محل من مركز ذي علي، بمديرية حُوث وأعمال محافظة عمران.

(٢) غُربان: بضم فسكون ففتح، مركز إداري من مديرية خَمِر.

(٣) بنو عَبْد: بفتح فسكون، قبيلة من عيال يزيد، ديارهم في غربي بلد وادعة من حاشد.

مشئوماً، وملكوا من ذلك الوقت محلاً قريب السودة في بني حجّاج شظب[1] وصار في حكمهم إلى الآن. ولما أظلمت عليهم هذه الفتنة السابقة، وتبعها هذه القتلات المتلاحقة، حاصر أصحاب الإمام حصن ظفار[2]. وكان في حكم السلطنة القاهرة، فلازموا حصاره في الليل والنهار، واستمر عليه الحصار من بعد قتلة غارب أثلة إلى هذا التاريخ، فلما عيل صبر من فيه، وعسر على الوزير جعفر تلافيه، خرجوا إلى يد الحاج أحمد الأسدي بالأمان، وكان هو المحاصر له. وبعد خروجهم وتسليمه إلى يد الحاج أحمد أمره الإمام القاسم بخرابه فأخرب دوره، ودمّر معموره، وكانت عمارته من أبلغ العمائر، ولم يترك حتى المسجد وتركه طللاً بلقعاً، ومرتعاً للرعاة، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وفي مدة حصار ظفار حصر أصحاب الإمام حصن مسار، وكان المحاصر له شخصٌ من أهل تلك البلاد يقال له سعيد العطار، فلما طال على من فيه الحصار خرجوا إلى يد المذكور بالأمان والذمام، وصار في قبضة الإمام.

إن دخول الوزير جعفر في العودة الثانية إلى القصر قضى بقدرة الله تعالى جميع ما جرى وحدث وطرأ، ولقد كُنتُ قلتُ له لما أراد الدخول: لا تدخل المدينة في هذه الأيام، فيثور الإمام، ويعظم الخطب والصدام. فتأخر ما شاء الله، فلم يمكن منه الصبر، وحمله على ذلك بعض الجلساء الجاهلين بأحكام النجوم، ومواقع سرها المكتوم، الذي أودعه فيها الحي القيوم. وكان دخوله إلى غمدان شروق الشمس يوم سابع وعشرين في شهر شعبان، والطالع العقرب وصاحب العاشر بيت الملك والسلطان الأسد، وربه الشمس

---

(١) بنو حَجَّاج: فخيذة من قبيلة العُصَيمات الحاشدية، منازلهم في جبل شَظَب من بلاد السودة، والبعض يسكن في جبل حَرْف سُفيان.

(٢) حصن ظفار: هو ظَفار الظاهر، حصن في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة ذيبين، على بعد ٨٥ كيلاً شمال مدينة صنعاء، تابع مديرية حمر.

في الدرجة التاسعة عشر من برج الميزان بيت هبوطها، وفي الثامن عشر من الطالع محل الغربة والادبار والشجون والغموم والهموم ودليل من زالت عنه الدولة، وكان القمر في برج الأسد ناقص النور وربّ بيته الشمس في الهبوط كما ذكرنا، ولها عواقب الأمور، لأجل ذلك لم يُنصر له عسكر، ولا برح جيشه يهزم ويكسر، حتى فارق اليمن، رهين الهم والحزن.

وفيها حدث في الناس الاسقام والعوارض، من جهة الحمّى والنافض، وكان ابتداؤه في بلاد الجوف فأحرق بحرارته منهم الحشاشة والجوف، وأخلى أكثر قراه، وملأ من أجسادهم ثراه، ثم سرى حتى وصل بلاد تِهْم، وخولان، فأذهب أكثرهم، وأفناهم ودمَّرهم، وعمَّ المشارق وامتدّ إلى عمران وجبل عيال يزيد والخشب وعيال عبدالله وذيبان والسّر والرّحبة وشعوب، ثم وصل إلى صنعاء في جمادي الأولى واشتد في الروضة والجراف وما حولهما ووادي ظهر، وهلك فيه أمّة عديدة، ومات فيه جماعة من أعيان السادة وأرباب الإفادة، ومرض الوزير جعفر مرضاً شديداً وجميع من في حوزته، واستمر ذلك الحادث إلى آخر سنة أربع وعشرين بعد الألف، ورفعه الله تعالى. وكان زحل في تلك الأيام في برج الحمل ثاني عشر طالع صنعاء، فأفسد بقدرة الله فصل الربيع واستنزل تلك المادة الصفراوية التي لا تحدث إلاّ في الأماكن الوبيئة، وقل أن يحدث في صنعاء مثلها. فلما دخل هذا الكوكب النحس برج الاعتدال أفسد الأمزجة، ثم انتقل إلى برج الثور، برج صنعاء، وقارنه فيه المرّيخ، وحدث ما سنذكره إن شاء الله تعالى في حوادث سنة خمسٍ وعشرين بعد الألف.

وفي رجب من هذه السنة مات الإمام الحسن بن علي المؤيد[1] الذي

---

(١) الإمام الحسن بن علي المؤيد: هو الحسن بن علي بن داود بن الحسن بن الإمام علي بن المؤيد. دعا إلى نفسه بالإمامة سنة ٩٨٠هـ، واستمر إلى أن أسره الأتراك بجبل الأهْنوم سادس عشر من شهر رمضان المعظم سنة ٩٩٣هـ، ومكث في اليمن سنة، ثم وجهوه وأولاد المطهر بن الإمام يحيى شرف الدين إلى السلطنة. ولم يزل في الحبس إلى أن قبضه الله في التاريخ المذكور، ومن ذريته: آل الهاشمي بوادي رحبان في صعدة. (التحف شرح الزلف، ص٢٢٧).

أرسل به الوزير حسن باشا صحبة أولاد المطهر بن الإمام شرف الدين إلى الأبواب العالية، وذلك في السجن بذي قلة، وفي هذا الشهر مات الأمير عبد الرحيم بن عبدالرحمن بن المطهر بالسجن بذي قلة، وقد ذكرنا تاريخ دخوله فيما سبق.

ودخلت سنة خمسٍ وعشرين بعد الألف:

وفيها طلعت شمس العليا المشرقة، وسطعت أنوار المجد المتألقة، وسفر بدر السعادة المنير، وابتسم من كمامه زهر روض الأنس النظير، بالولاية الأوحدية، والدولة المحمدية، والغرّة الزاهرة، والطلعة المسفرة الباهرة، غرّة من جمعت فيه خصال الكمال، وكمال الخصال، وصور الله العقل به إنساناً، والحلم ذاتاً تدرك عياناً، أعلنت أفعاله بصدق مقالي، وشهد بذلك المحبّ والقالي، ذلك مولانا ومالكنا، واحد الزمن، وخليفة سلطان الإسلام في قطر اليمن، الوزير المكرّم، الأشرف الأفضل الأعظم، الحاجي الباشا محمد، خلد الله ملكه وأيد، وأتته التشريفات بهذا المقام الأكرم، في الشهر الحرام المحرم، وزفت مصر إلى اليمن مُحمّدّها في فلكه المشحون، فقالت لسان حاله: إني لأجد ريح محمد لولا أن تفندون. وكان استواه على جوديّ الجود والسعادة والرفعة، في بندر البقعة، وذلك في شهر شعبان الكريم، ولاح محيّاه فيه كبدره الوسيم، وفرق الله له في ليلة نصفه كل أمرٍ إلى الخير حكيم. ثم تقدم بحمد وسعدٍ وعزء إلى مدينة تعز، ووصلها في شهر رمضان المكرم، وشرّف حوضها الأشرف لما جعل فيه المخيم، وعند ذلك حشد الوزير جعفر جنوده وخزائنه، وأضعانه وضغائنه، وخرج من صنعاء في اليوم الحادي عشر من رمضان، وتوجه إلى باب السلطان.

ولما صّح خروج مولانا الوزير محمد إلى اليمن، وظهر اسمه عند الناس في العلن، عقد الوزير جعفر بينه وبين الإمام هدنة، وجعل مدتها سنة،

واستخرج الأمير صفر ومن معه من صعدة، ووجه لحفظها الأمير صلاح بن أحمد بن المؤيد، فأقام فيها مدة يسيرة، وقاسى خطوباً عسيرة، ودبّر فيها العدو الحيلة، وجعلها بيد القبيلة، فتحزبوا لديه، ومالوا عليه، وأخرجوه منها، وأبعدوه عنها، ثم وجه إليها الإمام ولده، وأعانه وأمدّه، وأقام مولانا الوزير محمد، حرس الله ملكه وخلد، في تعز شوال والقعدة والحجة، وازدادت به الديار جمالاً وبهجة.

وكان وصوله واليمن قد عمته الخطوب والفتن، وشمله النصب والحزن، وتفرّقت قبائله زمراً، وأظهر كل فريق رؤساء وأمراء، وتقطعوا طوائف، وحكوا ملوك الطوائف، والسبب في ذلك ما تقدم ذكره في حوادث سنة ألف وثلاث وعشرين، من هلاك العسكر المئين، وقد كان قبل قدومه المبارك بأيام والحرب نيرانها ساهرة، وعجاجات دخانها ثائرة، وبحار فتنتها مائرة، وغاباتها تشن الغارات، والنفوس من شدة الهموم في مغارات.

ودخلت سنة ست وعشرين بعد الألف:

وفيها وجّه ركابه العالي إلى صنعاء، وحشر إليها جموعاً وجمعاء، وما برح يتنقل في المراحل، تنقل الشمس في المنازل، حتى وصل إلى ذمار، وحطَّ في تلك الديار، ثم ركب منها لطيافة جبل الكبريت[1]، وهو قريب بلاد قد جمعت كل شيطان وعفريت، فاقتضى نظره الصائب، ورأيه المنزّه عن المعائب، أن يجعل على ذلك حصناً حصيناً وسوراً رصيناً يمنع عنه يد المتخطف، ويصد عن أخذه تناول المحرب المنحرف. وكان هذا الرأي رأياً لم يره أحدٌ من الباشات، ولا اهتدى إليه شخصٌ من أرباب الولايات. وعلم حفظه الله أن تركه بغير حافظ وراتب، وحارس وراقب، من أقوى الأسباب

(١) جبل الكبريت: هو المشهور باسم جبل اللّسي، الواقع في شرق مدينة ذمار على بعد ٢٠ كيلاً.

في تقوية الخصم بتربته التي تملأ التراب نفوساً، وتضرم بعدنها ناراً وحربـاً وعبوساً، فجمع إليه العمار، وأهل الصناعـات تتحـت الصخـور وتقطـع الأحجار، وتمت في دائره الاستدارة، وانفق في عمرانه الأمـوال، وأجـزل العطاء والنوال، ونقل إليه الحفظة الحماة، والكالين لحماه، وقرر لهم السـبار الكافي، وعين لمعاشهم الكيل الوافي، فصار بعد ذلك الكبريت الأصفر، فـي عزّة الكبريت الأحمر، وعدّت قيمته كقيمة الأكسير، لا يؤخذ منه إلا الـنزر الحقير.

ثم أنه حفظه الله حرّج على التجار، المسافرين في البحار، وذكر أن من وجد عنده كاشف البندر مثقالاً، فقد جرَّ إلى نفسه أزماتٍ ثقالاً، وإن وُجد ذلك عند واحدٍ منهم، أخذ لجانب السلطنة في الثمن الذي يرضيهم.

فَخَبَا بذلك أكثر حرّ النار، وبلغ الرطل من الباروت قرب الدينار، بعـد أن قد كان يباع بالباخس، ولا يراجع فيه بائعه ولا يمـاكس، وكـان قبـل استهلال غرّته، والسعي في مشعر صفا مودّته، واستلام كفه منبع المكـارم، رأيت فيما يرى النائم، أن قمراً طلع في أفق صنعاء غير قمرها المعـروف، وأنه حصل معي من رؤيته مع وجود الأول أمر مخوف، فما شعرت بذلـك القمر الجديد، والبدر الباهر السعيد، إلا وقد مرّ من فوق صنعاء مـن محـل كنت مشرفاً فيه على الدنيا، في ذلك الرؤيا، وهو يعظم حتى صار في حجـم القبة الكبيرة، والآفاق من سناه منيرة، وما برح يدنو حتى اسـتقر بمكـاني بحيث تلمسه بناني، ثم قربت منه قرباً لا فصل فيه ولا مـانع، ولـم يغـش بصري من نوره اللامع، ثم انفجر من أحد جوانبه نهرٌ عذبُ المذاق، حسـن الاندفاق، فشربتُ من تلك الماء حتى ذهب الظمأ، وقلت في نفسي هذا مـاءٌ أشهى وأعذبُ من ماء اليقطين، الذي يجعله أهل الطب دواءً للحمّى المحرقـة لأنفس العالمين، فاستيقظت فرحاً مسروراً، جذلاً محبوراً. وكان تأويل ذلـك الماء المَعين، مودّة مولانا الوزير لعبده، مع تفضّلاته التي لا تبرح تناله فـي

كل وقتٍ وحين.

وفي المحرم من هذه السنة منحه الله بالنجم السعيد، والنجل الحميد، الأمير الأوحد، أحمد، بلغه الله في الكمال مبالغ أبيه، وجعل الخير مودعاً فيه، وكان في محروس ذمار خروجه إلى عالم الوجود، في ساعات الإقبال وطوالع السعود.

ثم توجه إلى محروس صنعاء ليتخذها محلاً وربعا، وحصل لي الملاحظة من الله برؤيته وهو في مخيم ريمة المنون، فرأيت ملكاً تملأ جلالته القلوب، والعيون، ورفعت في مقامه ساعة عدلت عندي الدهر، وأخجلت بحسن بهجتها روضة الزهر، وخلع علي خلعةً خلعت نفوس حسّادي، وسرّت أهل ودادي، وعدتُ إلى صنعاء مبادراً، وقد خامرني السرور باطناً وظاهراً، واستقبلته في الغد، وقد برز في ذلك الموكب الذي جمع السؤدد العد، وكانت طريقه إلى البستان الذي خارج الباب، وضُربت فيه للخيام الأطناب. وكانت الهدنة التي جعلها الوزير جعفر بينه وبين الإمام، آخرها شهر جمادي الآخرة من هذا العام.

ولما استقر ركابه العالي، وزهت بنور محياه سماءُ المعالي، شرع في افتقاد البلاد والرعية، والبحث عن المقرر عليها في الدفاتر المرعية، وتنبه على جوامك الأجناد، وأرزاق العباد، وجمع الكتّاب، وألزمهم بالمقابلة والحساب، وشمّر في ذلك ساق عزمته، وشهر في تحقيقها وضبطها صارم همته، فوجدها لا تخلو عن خلل، ولا تنزّه عن سهو وزلل، فصحح رقومها، وأثبت معلومها، ووجد أُناساً كان يجري عليهم من السلطنة رزق ولا لهم وجود، وتيقن وعرف كل فرد ممن له من الدولة عطاء محدود، وسهر في أمر سلطانه وخالف النوم، وجانب الدعة ولفظ اللوم، وشد في ذلك غاية التشديد، وثبت بفعله قواعد الملك المشيد.

أتعب النفس فاستراح ومن لم

يتعب النفس لم يزل في عناءِ

ولما كان في يوم الاثنين العشرين من ربيع الأول من السنة المذكورة دخل محروس صنعاء في أُبَّهة تملأ الصدور، وتخجل بحسن منظرها مطالع البدور في منازل السرور، واستقر بغمدان في أسعد وقتٍ وأشرف قران، وفي ذلك يقول السيد العلم الأوحد محمد بن عبدالله الحوثي[١] ولله درّه فلقد أجاد، وهي:

سَلِ الدَّهر ما أهداه للناس من بُشرى

ووفَّى به من نعمةٍ للورى كبرى

وما نشرت أيّامهُ من مطارفٍ

وألبسه دين الهدى حُلَلاً خُضرا

وما واصل الإسلام فيه من الهنا

ومن مكرمات شرَّفت أرضنا قدرا

وماذا انتهى فيه إلى غير غاية

ومن رسل جاءت بما نشتهي تترى

(١) محمد بن عبدالله الحوثي: ترجمه القاضي إسماعيل الأكوع فقال: عالمٌ محقق في اللغة والمعاني والبيان، حافظٌ لأشعار العرب، شاعر كاتب مترسل. مدح بشعره الوزير حسن باشا الوالي العثماني على اليمن، ومدح محمد الباشا، كما مدح الإمام القاسم بن محمد وولده أحمد الملقب أبو طالب. توفي بصنعاء في تاريخ غير معروف (هجر العلم، ج١ ص٥١٢).

وأخبار صدقٍ مسندات مُتونها
تعنعنها رايات أفراحنا كثرا
طلعن شموساً في سماء بشائرٍ
بآفاق أفراحٍ نشرن الضيا نشرا
ومن خبر وافا به عن محمدٍ
محمد باشا يقدم السعد والنصرا
مليكٌ تملّكنا به كل نعمةٍ
قدوماً وأسرى الرّوح فينا بما أسرا

ومنها:

هو الناصر الدين الحنيف قدومه
ورافع راياتٍ على السنّة الغرّا
تناول كفّ النصر عن كفّ أحمدٍ
فإن شاء باليمنى وإن شاء باليسرى
لصاحبه العدل الذي شاع ذكره
وحسبك عدلاً موسعاً أرضنا ذكرا
وآراؤه مثل النجوم ثواقبٌ
يُرى دونها البيض الصوارم والسُمرا
وقابله السعد الذي بقدومه
على أرض صنعا سَحَّ ريّقه قطرا

ومنها:

مليكاً تلونا في صحائف مجـــده
مكارم أضحت عندنا سُـوراً تُقـرا

فلا عَزْو إن أملا اليراعُ صفاتــه
وألقابه العظمى على مركز الظفـرى

نصبنا لأقلام التهاني صدورنـــا
فأبرزن منها كل ما يشرح الصـدرا

فجاءت قوافٍ فيه تقفـو فخـارهُ
تسـاقطه درّاً وتنظمــه شــعرا

تودّ الثريـا أنـها مـن حُليّـه
وفي أذنها قرطا لها كوكب الشعرى

هنيئاً لنـا هـذا القـدوم فإنـهُ
لنا مثل عيدي دهرنا النحر والفطـرا

به انست صنعاء ومن حلّ ربعها
وأوحش هذا الأنس من قبله مصـرا

ومنها:

سلامٌ على من سـرّنا بقدومـه
ومن جاءنا منه على البعد بالبُشـرى

أُهنيكم آل النبي قدوم من
بأحكام يُسرَاهُ لكم نسخ العُسرى
أصابع بحر النيل مدَّت أكُفَّها
إليكم بصنعا فاستوت كلها بحرا
وزهرة غمدان لرؤية وجهه
سروراً به لمَّا رأى وجهه بدرا
وتاهت به الأبراج منها قصوره
ومن عجبٍ لما رأى برجهُ قصرا
مناخ ملوك الحميريين قادماً
ومن آل خاقانٍ ومن مضرِ الحمرا
توطّنهُ شمس الملوك محمدٌ
فلا زال منصور اللوا عاقداً نصرا

وهي طويلة تركتها طلباً للاختصار، وبالقليل تعرف الآثار، وللسيد المذكور من قصيدة أُخرى:

أترى وقد نشرت يدُ الأزمانِ
رايات أفراحٍ على غمدانِ
وتبرّجت شرفاته زهواً على
شمس الضحى بملابس الألوان

وجلى السرور وجوه سعد للورى
ترنو إلى قسماتها العينان

ومنها:

وجب الهناءُ لقصر غمدان وقد
أربت منازلهُ على كيوانِ
فليهنه بمحمد الباشا الذي
أنسا المسالك من ذوي التيجانِ
ملك بمقدمه إليه تواصلت
نعمٌ على الإسلام والإيمانِ
وتناقلت عزماته ما عزّ من
طلب العُلى بالطوع والاذعانِ
هو أول في باشوات ملوكهم
ولئن تأخّر ماله من ثاني

ومنها:

يهنيك يا غمدان عزّاً باذخاً
بسط الفخار به على الأكوان

ولما استقر في القصر، وراق من محيّاه العصر، أقام ديوان المظالم، وأنصف المظلوم من الظالم، وساوى بطريق الحق بين الملك والمملوك،

والغني والصعلوك، وميَّز بألمعيته بين المبطل والمحق، وعرف ذلك من صفحات الخدّ وبوادر المنطق، وطمع الضعيف في انصافه، وخاف القوي من انحرافه، فحصل لهُ في القلوب هيبة، ورغبة ومحبة، ووضع الأشياء محلها، وفتح المبهمات في ذلك فحلّها، وعلى الجملة أنه لم يقف في صدر الديوان ممن حكم اليمن من عهد ازدمر إلى هذا الزمان، أرجح منه عقلاً، وأتم نبلاً، وأعرف بالأمور، وسياسة الجمهور، وأمره لا يرجع، وموضوعاته لا تضمحل ولا تدفع، يتصفح الأحوال، ويعرف الرجال، إن قال صدق، وإن وعد حقق، حليمٌ لا يستفزه الغضب، صبورٌ لا تتهنه النّوب، سموحٌ لا يبخل بالعطاء، إلا في غير موضع الإعطاء.

يضع الأشياء في مواضعها، ويطلع انجم الإصابة في مطالعها، عرف الدهر فجربه، وساير الزمان فأصحبه، ضبط أمور الرعية ضبطاً محكماً، وأنفذ فيما يقوم بأودهم أمراً مبرماً، ورفع عنهم مظالم الولاة، فهابت الاقدام عليهم الرعاة، وسمع الشكوى من الضعيف، ونصب ديوان العدل للّهيف، ورأى الناس من أحواله، وسداد أقواله، ما بهر العقول، وحير النقول. وكم من مرَّة عرف في وقت الديوان زور الشهادة، وفطن في دعوى الخصم مقاصد الإرادة، فزاد الحق به رفعة وبسوقاً، وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً، وبلغ بعقله وكماله هذه المراتب، وزاحم بعلوّ همّته مدارات الكواكب، لا تنفذ فيه حيلة محتال، ولا يخدعه خُلّبُ مقال، فما أحقّه يقول الشاعر:

الألمعي الذي يظن بك الظنّ

كأن قد رأى وقد سَمِعا

محسنٌ لا يكدّر إحسانه المن، همامٌ لا يأخذ بالظن، يتكبر على الجبّار، ويتواضع للسّادة الأخيار، ويعظم الأولياء، ويتمسك بعروة الأصفياء، ينفق في

مصالحهم الأموال الجزيلة، ويجعل ذلك إلى الله ورسوله ذريعة ووسيلة، فمن ذلك عمارته في الوهط للسيّد الفاضل القطب الولي، فخر الدين عبدالله بن علي، فإنه أقام له داراً وقبةً وجامعاً كبيراً رحباً واسعاً، وبئراً عذبة المنسهل، لا تنزف ولا تقل، وقام بما يحتاج إليه السيد عبدالله في أمور دنياه، ولبّى في مشاعر إرادته بين مروته وصفاه، وكذلك الشريف صاحب الجشا، فإنه في مناهج مرامه سار ومشى، كم له من مكرمةٍ صارت في سوالف الليالي لآلِيَا، وفي ليل الزمان صبحاً ناديا، ولمّا عاين سور صنعاء وقد سعى فيه الخراب، وأبلت السواري فيه فأصبح خلق الجلباب، قريباً إلى الذهاب. ألزم العملة في الطين، والمحسنين من العمارين، بإصلاح شعبه وصدوعه، وإقامته قبل حدوث وقوعه، وبدأه من باب شعوب، وضحكت شرائفه على زمن طغتكين بن أيوب، وأنه أمر حفظه الله بعمارة ما اختل وخرب من القلاع في حجة، فعادت إلى الصلاح والبهجة، وكذلك أمر بعمارة يريم، وجعل فيها الجامع العظيم، والتربة على الشيخ العلامة حسن الحافظ، وكذلك حصن التعكر، أصلح ما افسدت فيه الأيام والغير، هذا وأما أحواله في الأوقات، فمعمورة بالطاعات، وحضراته محروسة، مصونة، مأنوسة، تحف به أنواع كتب العلوم من التفاسير والتصوّف والحديث، والأدب والتاريخ، وذكر أحوال العلماء والصلحاء والفضلاء، قديمهم والحديث، أكثر من يلم بمقامه، ويصغي للطيف كلامه، إمام صلواته، ونديم حضراته، ذو الخلق الحسن، الأفندي حسن، لكونه من ذوي الذكاء والعرفان، والفطنة والكمال والرجحان، أعرف الناس بمجالس الملوك، وله في أكثر العلوم بابٌ مسلوك، حديثه وخطابه يلهيك عن الروض الأريض، ويشغلك عن مغازلة الطرف الغضيض، يناسب حضرة مخدومه بما يليق، وإن سأله عن أمرٍ أجاب بالتحقيق شعراً:

أندى على الأكباد من قطر النّدى
والذّ في الأجفان من سـنة الكـرى

ثم إنه حفظه الله اصطفى ثانياً، وجعلهُ مناجياً، السيد العلامة، الفاضل الفهامة، أعرف أولاد الرسول، وجامع مفخر أولاد البتـول، وجيـه الدين عبدالرحمن بن الصديق الطباطي، ثم مؤلف هذا المختصر، ممن خصّه حفظه الله بحضور هذا المحضر، الذي ودّت النجوم أنها نزيلة لديه، ورام البدر أن يهبط من أفقه عليه، ولم يبرح حفظه الله يشملني شمول الأب، ويتبـع في معاملتي ما أمر به الرب، فأسأل الله ألا سلبني ناعم نعمته، وأن يحفظ عليّ وعلى جميع المسلمين مشاهد أنوار طلعته، ويصلح به الدين، ويمد ظل عدله على جميع المسلمين، بحق محمد الأمين وآله الأكرمين.

ثم استقر مولانا الوزير في تخته وحدّ بلاد الإمام حدّه، يؤخذ له منها الزكاة والعدّة، وبلاد علي بن شمس الدين جبل تيس وقراضة ولاعة، مذعنة للإمام بالسمع والطاعة، وبلاد كحلان تاج الدين والسود، قابض على الناصية والفود، وبلاد حجة مائلة عن الاستقامة معوجّة، داخلة في ضمن المخالفين، خارجة عن طاعة سلطان المسلمين، ولما كملت الهدنة بين مولانا الوزير والإمام، وانقضت تلك اللّيَيْلات والأيام، جنّد الجنود، وعقد الألوية والبنود، وعسكر عسكراً، وعقد للجوامك أُمماً وزُمراً، ووجه الأمير تيمور إلى بلاد حضور ففتحها، وداوى جُرحها، وقُتِل في تلك المدّة من رؤساء الإمام الطير، وزال بعد قتله عن البلاد الضّير. وكان هذا الطير الذي وقع، طال ما طار فارتفع، وأثار في الحيمة وحضور دخان الفتنة فأظلم، وشب جمره فأضرم، حتى أهلكه الله بسيوف الوزير في هذه السنة، وهكذا عاقبة من ظلم، وفي ذلك يقول السيد البليغ المفرد في الفصاحة والبلاغة، الساحب ذيل التيه على

ابن المراغة، محمد بن عبدالله الحوثي:

عداك للطير في ذا العيد قُربـــانُ
تتناشـــهم أنسُـــرٌ منـــها وعقبـــانُ
ومن جسومهمُ للوحـــش مأدبـــةٌ
منها روى وشبع ظمـــآن وعريـــان

ومنها:

أمّا محمـــدٌ الباشـــا الوزيـــر أعـــا
دته نفوسٌ فاصمت وهـــي مرنـــانُ
وكم كتائب نحو الخـــارجين عـــنِ
الطاعات لم يُحصها عدٌّ وحُســـبانُ
وكـــم عســـاكر هيّأهـــا لحربـــهمُ
ملائك النصر فيمـــا شـــاء أعـوانُ
وكم لكولٍ علـــى الأجنـــاد فرّقـــها
لم يحوهـــا دفـــتر عـــدّاً وديـــوانُ

ومنها:

ذاب العدى بنصالٍ من عزائمـــه
من بعد ما أردت الفرسان فرســـانُ

وزحزح المركز الأدنى وأبعدهُ

وقد تلاحسم بالأقران أقرانُ

سل حجةً عنه واسأل بعدها شطباً

وفي رُبا خَمِرٍ دان الأولى دانُ

وسل حضوراً وما نالت بنو مطرٍ

كانوا جميعاً فهم ذا اليوم شذّانُ

وهي طويلة، تركتها للعذر السابق الذي أوجبه الاختصار اللائق.

وفي شعبان منها وقع في القمر خسوفٌ مظلم استغرق جميعه وغشى صفحته، وأذهب بهجته، وذلك في برج الدلو.

ودخلت سنة سبع وعشرين بعد الألف:

وفيها في المحرم سفر هلال الملك، وانتظم في تاج الرياسة فصّ ذلك السلك إبراهيم بن مولانا الوزير محمد، وفيها جعل مولانا الوزير حفظه الله سردار العساكر والفيالق الأمير محمد بن سنان باشا واستدعا الأمير تيمور من حضور وعقد عليه لواءاً شريفاً وجهزه لأخذ ريمة ودنوه، وأمره بتدبير تلك القوة، ثم أن الأمير محمد بن سنان فتح من بلاد الحيمة الأحبوب وما لديها وبلاد بني مطر وآنس، وفي العشر الأُخَرْ من رمضان وصلت لمولانا الوزير حفظه الله تشريفات الوزارة، وفي ذلك يقول السيد محمد بن عبدالله الحوثي من أبياتٍ:

إنّ الكرامة للوزير محمدٍ

الباشا أنالته المعالي مظهرا

خلعٌ خلعن العقل مـــن حُسّـادِهِ
وسقتهم الســـم الزعـــاف الممقـــرا
سرٌّ سرى من عند سلطان الورى
لسرایر الديـــن الحنيفـــي أظـــهرا
جاءته تمشي في غلائل زهوهـــا
حللٌ تروق بمسمعي مـــن أبصـــرا

وهي طويلة قد ذكرت في ديوان المدح الذي جُعل لمولانا، وقـــد كـــان الوزير حفظه الله لمّا جهز تيمور إلى حضور أشار عليه بعض خواصه بـــأن يترك هذه الجهة فإن البذل عليها جليل، والخراج فيها قليل، لو فتحت لما أدت بعض ما صُرف فيها، ولا حصّلت النصف من المنفق عليها، وبلاد الخـــراج والأموال الواسعة، والخيرات المتتابعة، متروكة مهملة، مغلقة مقفلة، فأصغى إلى ذلك وعلم أن الاضراب عن هذه البلاد الحقيرة، من صلاح السريرة، مع شهر السيوف على هذه الآفاق الفسيحة الكبيرة، وهي بلاد وصـــاب وريمـــة ودنوة، لكونها قد تحيّرت من أول الفتنة الآخرة واتسمت بالقوة، فلمـــا ثبـــت عنده هذا المرام، قدّمه على جميع الأحكام، ودارت بينه وبين الإمام المكاتبة، وصحت المراجعة والمخاطبة على أن له ما تحت يده بعد افتتاح البلاد التـــي كان استولى عليها، ولا له سبيل عليها، وإخراج المجابيس من كلا الجـــانبين، وكان عند الإمام من يوم غارب أثلة أسرى فوق المائتين، فحصل له تخليص أولئك المسجونين، وفكاكهم من القيود التي التوت عليهم التـــواء الثعـــابين، للأجر الذي تملأ به الصحيفة، وينجي يوم الفزع الأكبر من الخزي والخيفـــة، ضاعف الله ثوابه، ورفع في الدارين جنابه، ولما تمت الإصلاح ونادى منادي الفلاح، نظمت الشعراء في ذلك الأقوال، ووسّعت المجال، فممن أنشد ذلـــك

اليوم السيد البليغ عين الملّة، وترجمان الأدلة، محمد بن عبدالله الحوثي من أبياتٍ:

وإلى باب ذا الوزيــــر المفــدّى
الحميــد الإصـــــدار والإيــــراد
الوزيــر الــذي بــه أيّـــد الله
بمــا شــاءه جيـــوش الجــهادِ
مــن أتتــه عنايــة الله حتـــى
عقــد الصلــح ذا بحســن اعتقــادِ
هكــذا هكــذا الملــوك يُريــدو
ن بآرائـــهم صـــلاح البـــلادِ

ومنها:

قد ســما للعُلــى محمــد باشــا
وتوخّـــا الكمـــال بالازديــــاد
مُطفيــاً نــار فتنــةٍ تتلظـــى
فــي البرايــا عظيمــة الايقـــادِ
يتجلــى نــور رأيــه بوقـــارِ
قادحــاً بالذكــاء قــدح الزنـــاد
وعلى ذكر ذا المقــام تذكّــرتُ
مقامــاً لشــاعرٍ ذي انتقـــادِ

قال في مثــل ذا المقــام مقــالاً
بالبلاغــات هــام فــي كــل وادِ
إنما الصلح ما اشتهته الأعــادي
وأذاعتــه الســن الحسَّــادِ

وفيها فتح الأمير محمد البلاد الوصابية، وأخذهم أخذة رابيــة، وتسلم الأموال، واستقامت له بها الحال، وقبض بنادقهم، وأزال مارقــهم، وأرسـل بالسلاح جميعه إلى حضرة مولانا الوزير حفظه الله في سنة تسع وعشـرين بعد الألف، وسرّه اللهُ بذلك الفتح المبين، وكذلك الأمير تيمور أرسل ببنــادق الجهات التي قد فتحها، وأزال برحها، وفيها رجّح مولانا صـاحب السـعادة الوزير محمد أيّده الله أن الأمير محمد باشا ينزل من حضــور، ثـم انتظـم بالصلح أمر الجمهور، ثم جعله كدخداه لما وجد فيه حماية وكفاية وثباتاً.

ودخلت سنة ثمان وعشرين بعد الألف:

ودخلت سنة تسعٍ وعشرين بعد الألف:

وفي المحرم منها نجم نجمٌ ثم اختفى ولاح من حلل الجهل وطفى، وهـو شريفٌ من غربان ظهر جهله وبان، وعرف سخفه واتضح، يُقال لهُ نــاصر صبح، قرأ يسراً، ونهل من العلم ثماداً حقيراً، وأصله من عيال قاسم، ومـن أتباع الإمام القاسم، ففارق حضرته مغاضباً، وفرّ إلى الحيمة مجانباً، وكــان في رأسه علامة شيب كالجلالة، استغربها أهلُ الجهالة، وزعم أنه المــهدي المنتظر، المذكور على لسان سيد البشر، وكتب إلى جميع البلاد، وأكثر فــي الحيمة وجهاتها التَرداد، ومات في أثناء ظهورِه الإمام القاسم، فأعلمــهم أن ذلك من براهينه وأنه السيف الصارم، فتبعه ألفافٌ من الناس، وأوغــادٌ مـا

لجمعهم أساس، ثم توجه صُحبةُ إلى محل في بني مطر يقال له قبا، فخرجت عليهم من صنعاء الخيل والأسنّة والبنادق والظبا، وأحاطت بهم عساكر السلطنة إحاطة الهالة بالبدر، والمنطقة بالخصر، ورفع الله عنهم المطر وأذهب الماء، فأخذهم العطش والظمأ، فخرجوا على حكم الوزير، فأمر بضرب أعناقهم تقرّباً إلى السميع البصير، وسُلخت جلود أربعة منهم وهم الرؤساء، وجنا عليهم باضلالهم وخسر واساء، وكان أن ينبغي له أن يفرج كربهم العسير، ويفتح سور قريتهم بالتكبير، فلما بلغه مصرع رفقته، وهلاك أهل دعوته، فرّ فرار الآبق المريب، إلى حيث يعوي الذيب، وفي الليلة المسفرة عن يوم الثلوث الخامس عشر من شهر ربيع الأول توفى الإمام القاسم بن محمد بن علي بحصن شهارة، وكانت وفاته بالحمّى الحارة، وجرت الإصلاح بعد وفاته، كما كانت بحال حياته، ولا بأس بذكر نسبه:

هو القاسم بن محمد بن علي بن الرشيد بن أحمد بن الأمير الحسين بن علي بن يحيى بن محمد بن يوسف الملقّب بالأشل بن الإمام الداعي إلى الله القاسم بن الإمام الداعي إلى الله يوسف بن الإمام المنصور بالله يحيى بن الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه في الجنة.

وفيها استمر الغلاء وعم أهل المشارق البلاء وتعطلت القرى وفشى الموت في الفقراء، وفني المقلون وهلك المسنون، ووقع بعض وباء في صنعاء وكوكبان وكثر في الحيمة وشهارة وجبلة وإب، جعلنا الله ممن يعتبر ويحتسب، لا ممن ينتظر ويرتعب.

وفي هذه السنة الشهباء، أخرج مولانا الوزير صدقة على المتعففين الذين لا يسألون الناس إلحافاً وأغاث سادة وأشرافاً، ووسع تلك الصدقات، رفع الله له الدرجات، وأثابه في الدنيا والآخرة، وأدام علينا سحائب جوده

الغامرة، وفيها وصلت التشريفات والمراسيم من حضرة سلطان الإسلام والمسلمين السلطان عثمان لمولانا الوزير حفظه الله تعالى، وللسيد البليغ العزيز المبرز في لفظه كل لفظٍ وجيز محمد بن عبدالله الحوثي من قصيدة بلغت في الحسن الغاية يهنئ الوزير أيده الله بالخلع الواصلة من الحضرة السلطانية:

بسمت ثغور العزّ والعلياءِ
فرحاً بخلعة سيّد الوزراءِ
وتلألأت أنوار دولة أحمدٍ
وافتر ثغر السنّة البيضاءِ

ومنها:

فليهن دولة أحمد ما نالها
من بسط عدلِ الدولة الغرّاءِ
فتح به جاد الاله وقبله
كان الزمان به من البُخلاءِ
أودى حضور وهكذا يا ويح من
ناواكمُ قد آذنوا بجلاءِ
لمحمدٍ خيف العدى الملك الذي
يوماه يوم سطاً ويوم عطاءِ

وهي على هذا التركيب الذي يستفز البليغ اللبيب، وفي النصف من

رجب الأصب، وقع في القمر خسوفٌ طمس جُرمه طمساً وغمسه في غميق مخروط الظل غمساً، وذلك في برج القوس، وفي شعبان جعل الوزير لولده الأمير الخطير الشهير مصطفى بن محمد ونظم فيه الأمور نظماً ما رُئيَ مثله، ولا تصوّر لمن قبله، وتأتّى في أحسن ترتيب، وكيّفه حفظه الله في منظرٍ بهيج جليلٍ جميلٍ عجيب، تقصر العبارات عن وصفه ويكل القلم عن رصفه، نصبت فيه الموائد للجنود والأعيان، والقاصي والدان، ففاق في حسنه وليمة بوران والمأمون، وجمع ما تشتهيه الأنفس، وتلذ العيون. وللفقيه الأريب الكامل اللبيب الصاحب الكاتب الأريب عز الدين محمد بن علي غفير حماه الله في هذا الاعذار الذي حارت فيه القلوب والأبصار:

تَهلّل المجد واستهلت غمائمُهُ
والوقت بالبشر قد طابت نسائمهُ

والغصن ترفل في أثوابها مرحاً
والدّوح قد صدحت فيه حمائمه

والطرس قد طرّزت بالتبر أسطرهُ
ودبّج اللؤلؤ المنظومُ راقمُهُ

وأضحك الروض سُحبُ الملك حين همَا
ونمنم الدمع فافترّت كمائمهُ

واليمنُ في اليمن الميمونُ مظهره
وكيف لا ووزير الملك حاكمهُ

محمد الملك محمود لنا ظهرت
آياته وتمت فينا مكارمه
أعياد فارس إن جلت وإن عظمت
في سالف الدهر تحكيها ولائمه
إذا تقاصر دهرٌ فهو قيصره
أو أمحل الدهر يوماً فهو حاتمُه
في عصره ملّة الإسلام قد شرفت
فالنصر قادمُه والسّعد خادمه
سهلٌ طرائقُه بحرٌ حقائقُه
دُرٌ رقائقه بسط تراجمُه

ومنها:

هُنيت مولاي بالأعذار في بلدٍ
طابت به وبسبطيه مواسمُهُ
تحدّث الركب في مصرٍ وفي حلبٍ
به وفي الروم قد سارت رواسمُهُ

وهي طويلة اكتفيت ببعض تمائمها الفريدة، وانتخبت أشرف جواهرها النضيدة.

وفي شهر شعبان من هذه السنة كمل مسجد طلحه ومنارته، وأحياه مولانا الوزير محمد بعد أن كانت على شفا جُرُف عمارته، ووسّعه فصار جامعاً، وزاد جعل فيه منبراً وصرحاً فحوى نوراً ساطعاً وفرشه بالفراش

النفيس، وكوكبهُ بالقناديل، وكم قبله قد هجره الأنيس، وقد كنت أعرفه فيما سلف من السنين، لا يفتح له بابٌ ولا تقام فيه صلاة المصلين، ((إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلاَّ الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين))، فعمر الله ملك من عمره، وخلّد سلطانه وعمَّره.

وفي هذه السنة وصلت تشريفات لمولانا الوزير من الحضرة، وسيف يقطع أعناق الأعداء الفجرة، وذلك في رمضان حفظ الله المرسل والمُرسل إليه بحق الكرام البررة.

وإلى هنا انتهى الجزء الثاني من رَوْحِ الرُّوْحِ، ونرجوا من الله أن يجعل هوله الخيرات والفتح والفتوح، وهو القادر أن يبلّغني إكمال الثالث والرابع، في دولة هذا الوزير الذي جعله الله في سماء المكرمات كالبدر الطالع، وكان الفراغ من تبييضه في الليلة المسفرة عن صبح يوم الجمعة المبارك الثامن والعشرين من شهر شوال سنة تسعٍ وعشرين وألف للهجرة، ختمها الله على بلوغ الآمال، وصلاح الأحوال، وكان ابتداء تأليفه في غرّة شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، المقررة المزبورة، وذلك بعناية مولانا ومالك أمرنا جامع رواسي السيوف والأقلام سيد الوزراء الكرام محمد باشا، بلغه الله كل ما يروم ويشاء بحق محمد وآله.

المحتـويات

صفحة